حرب
البوسنة والهرسك

في أطارها

السياسي

الاقتصادي

القومي

العرقي

الديني



مجدي نصيف

البوسنة والهرسك

في اطارها السياسي والإقتصادي
القومي - العرقي - الديني

حرب
البوسنة والهرسك
فى اطارها السياسى والإقتصادى
القومي - العرقي - الديني

مجدى نصيف



دار المستقبل العربى

جذور قضية البوسنة والهرسك

مجدى نصيف

الغلاف : بهجت عثمان

الناشر : دار المستقبل العربى

٤١ شارع بيروت ـ مصر الجديدة ـ القاهرة

جمهورية مصر العربية ت : ٢٩٠٤٧٢٧

رقم الإيداع : ١٦٣٧ / ٩٣

الترقيم الدولى : ٠ ـ ٠٤٥ ـ ٢٣٩ ـ ٩٧٧ ISBN

مقدمة

ركزت المقالات التى تنشر عن حرب الاستقلال التى خاضها مسلمو جمهورية البوسنة والهرسك، على جانب واحد. هناك كتابات ركزت على الجانب القومى والعرقى، وأخرى ركزت على الجانب السياسى ـ الاقتصادى، وثالثة على الجانب الدينى. ويندد الصرب الآن بسياسات الزعيم تيتو فيما بعد الحرب العالمية الثانية، فى يوجوسلافيا الثانية، على أساس أنها هى التى أدت إلى تردى الوضع حتى وصل إلى ماهو عليه.

وحقيقة الأمر أن الحرب هى جماع التاريخ والجوانب السياسية والاقتصادية والقومية والعرقية ـ الاثنية ـ والدينية. فهذا الصراع ليس جديدا على يوجوسلافيا السابقة والبلقان بشكل عام. فالصرب أمة مقاتلة منذ القدم وحلم «الصرب الكبرى» ليس جديداً، وهناك أحداث فى التاريخ أدت إلى احتدام هذا الصراع. فأثناء الحرب العالمية الثانية احتلت ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية يوجوسلافيا، وفى ا لحال قامت حكومة فاشية محلية فى كرواتيا ضمت اليها أراضى البوسنة ـ الهرسك. وقامت بعمليات «تمشيط عرقى» لتصفى الصرب. وصفى الصرب جسدياً هذه الحكومة وأنصارها بعد الحرب.

كانت قوات الانصار بقيادة الزعيم تيتو هى التى كافحت النازية لذا كان الشيوعيون هم الذين حكموا البلاد برئاسته . كان هدفه هو إقامة دولة قوية متماسكة؛ دولة مركزية ـ شمولية تقوم بنهضة شاملة، وعملية تصنيع واسعة النطاق. من هذا كان لابد من القضاء على النعرات القومية ـ وكانت سياسة قيادة عصبة «الشيوعيين اليوجوسلاف» إضعاف القوى وتقوية الضعيف بين الأمم والقوميات التى تشكل الاتحاد الفيدرالى.

هكذا منحت مقدونيا وضعية الجمهورية المستقلة فى إطار الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى، ومنح المسلمون صفة «الأمة» وجمهورية البوسنة ـ الهرسك. ومنح إقليما «كوزوفو» «وفويفورنيا» «الاستقلال الذاتى» داخل جمهورية الصرب.

ثم فى السنوات العشر الأخيرة من عمر الماريشال تيتو رتبت الرئاسة الفيدرالية لتكون دورية من الجمهوريات الست التى تكون الاتحاد الفيدرالى وكذا الاقليمين اللذين يتمتعان بالاستقلال الذاتى على قدم المساواة كان تيتو يتمتع باستقلالية ايديولوجية عن موسكو فلم تربطه بها الروابط الثقيلة التى ربطت بقية دول أوربا الشرقية والأحزاب الشيوعية. وكانت التجربة اليوجوسلافية فى بناء الاشتراكية فريدة من نوعها كُتِبَ عنها العديد من الدراسات والكتب التى لم تكتب عن أى دولة شيوعية أخرى باستثناء الاتحاد السوفيتى.

رغم ذلك كان النظام اليوجوسلافي شمولياً وإلا لكانت النعرات القومية قد أطلقت من

عقالها. لكن النظام اليوجوسلافى ابتدع تجربة «التسيير الذاتى»؛ وكان مسموحاً لليوجوسلاف بالخروج من البلاد على عكس الدول الشيوعية الأخرى، بل وسمح للمواطنين بالهجرة، فكانت هناك جماعات يوجوسلافية كبيرة فى عديد من بلدان العالم. لكن لم يكن مسموحاً بتأسيس الأحزاب فقد كان الحزب الشيوعى الحاكم (عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف) هو الحزب ـ الدولة ويسير على اسس ماركسية ـ لينينية، وهو الحزب الوحيد المسموح له بالعمل فى البلاد.

سارت الأمور بشكل معقول إلى حد كبير بعد وفاة الماريشال تيتو. ولم يكن ماحدث من تفكك تال بسبب وفاته، وانما بسبب العصر الجديد الذي بدأ فى العالم، كانت الشعوب تسير فى اتجاه الحريات والتخلص من الأنظمة الشمولية والأثقال حتى ولو كانت من أجل التصنيع والرفاهية. كانت تنظر إلى شعوب الغرب التى تمتعت بالرفاهية وبالحريات فى آن واحد. وكانت الدول الصناعية المتقدمة قد تقدمت إلى عصر المعلومات والكومبيوتر وبدأ العالم أجمع يمر بمرحلة من العلاقات الدولية الجديدة.

أدركتَ القيادات اليوجوسلافية أن هذا كله سينعكس على يوجوسلافيا وأساساً بالتفكك، وهنا أسرعت الصرب إلى تبنى الأحلام القديمة بـ «الصرب الكبرى»، وتولى جناح بقيادة سلوبودان ميلوسيفتش السلطة فى الحزب والدولة فى جمهورية الصربية، وتحول شيوعيو الصرب إلى القومية، لتصبح الايديولوجية خليطا من الشيوعية والقومية.

أخذ الرئيس ميلوسيفتش يتجول فى انحاء الصرب، ملقيا بخطب نارية أحيث المشاعر القومية الصربية، وألغى الاستقلال الذاتى الذى تمتع به إقليم كوزوفو وإقليم فويفورنيا، ووقف المثقفون الصرب المشهورون بانجازاتهم الثقافية والايديولوجية الجديدة وراء ميلوسيفتش.

وبالمقابل اشتعلت المشاعر والقوميات الاخرى. وبدأ الغليان القومى.

أعلنت سلوفينيا وكرواتيا استقلالهما عن الاتحاد الفيدرالى. وكانت مشكلة سلوفينيا هى الاسهل، فالجمهورية لاتضمها تقريبا قوميات أخرى. أما كرواتيا، فكان بها اقلية صربية. وعندما بدأت الحرب سيطرت على المناطق التى تشكل فيها أغلبية، وحدثت فظائع لامثيل لها.

وكانت الحرب فى جمهورية البوسنة والهرسك اكثرها تعقيداً إذ تقطنها الأمم ـ القوميات الثلاث : المسلمون ويشكلون الأغلبية ٤٦٪ من السكان، والصرب ويشكلون ٣٢٪ من السكان، والكروات ويشكلون حوالى ١٨٪ من السكان. وعندما بدأت الحرب كان الكروات يسيطرون على المناطق ذات الأغلبية السكانية الكرواتية، أما الصرب فقد أسرعوا واستولوا على ٦٥٪ من مساحة اراضي البوسنة وتوسعوا فى ذلك فيما بعاد.

وهكذا استولوا على أراضى يشكل المسلمون فيها أغلبية السكان وترك الجيش إدارة الحرب فى البوسنة ـ الهرسك للميليشيات الصربية وكان يرأس عددا كبيرا منها قطاع طرق وخارجون عن القانون. وارتكبت مذابح فظيعة لا تقارن حتى بفظائع النازية فى الحرب العالمية الثانية.

وقد انتهيت من كتابة هذا العمل والحرب دائرة وسيراييفو محاصرة، وحديث عن قوافل الإغاثة للأمم المتحدة. فقد كان المسلمون بقيادة الرئيس على عزت بيجوفيتش يتوقعون أن يتدخل الغرب والتحالف الدولى الذى تدخل من قبل لتحرير الكويت من القوات العراقية. لكن الغرب لم يفعل اكثر من تقديم «المعونات الانسانية». فليس له مصالح نفطية أو مصالح أخرى فى هذا البلد الصغير، بالإضافة إلي أن البوسنة والهرسك خارج إطار «الحضارة الغربية المسيحية» التى تشمل المنطقة كلها. وقد لعب الصرب على هذا الوتر الحساس مدعين أن البوسنة ـ الهرسك ستتحول إلى ايران أخرى فى قلب أوربا، وهو إدعاء غير صحيح، لأن المسلمين هناك شعب مسالم بعيد عن التعصب والأصولية.

وعندما تولى الحزب الاسلامى بقيادة على عزت بيجوفيتش السلطة فى سيراييفو، أعلن أنه يفضل «الوسائل السلمية» لحل هذه القضايا القومية لكن هذا لم يمنع الصرب من الاستيلاء على الأراضى التى يشكلون فيها أغلبية وأراضى أخرى يشكل فيها المسلمون أغلبية لذا فليس من مصلحة المسلمين التقسيم الآن إلا اذا ضمت لهم أراضيهم؛ وأعيدت إليهم.

ويناقش هذا الكتاب التاريخ المعقد للمنطقة فى عجالة سريعة، ثم يقدم الموزايك القومى ـ العرقى ـ الدينى المتعدد المتنوع، ثم يقدم بعدها ومياث متناثرة عن «حرب الاستقلال» التى خاضتها الامم ـ القوميات. وقد تفاديت الدخول فى تفصيلات عن التاريخ، وكذلك تفاديت دراسة «التجربة اليوجوسلافية» رغم انها تستحق مناقشة مستفيضة، مكتفيا، بالتفصيلات عن القوميات، وعن الأحداث الأخيرة.

وقد استفدت كثيراً من فصل التاريخ من كتاب فريد سينجلتون، «التاريخ المختصر لشعوب يوجوسلافيا»، واستفدت فى فصل القوميات أساساً من كتاب إيڤو باناتش «القضية القومية فى يوجوسلافيا: الأصول والتاريخ والسياسات»، وكذا من كتاب: هيو پولتون: «البلقان : أقليات ودول فى صدام». هذا بطبيعة الحال، إلى جانب مصادر ومراجع أخرى، أثبتها كلها فى آخر الكتاب.

مجدى نصيف

لندن سبتمبر ١٩٩٢

الباب الأول

التاريخ ... والقبائل

الفصل الأول : تركة امبراطوريتين

الفصل الثانى : يوجوسلافيا : الخطوط العامة

الفصل الثالث : التاريخ / القبائل / الحقائق / الحرب .

الفصل الأول

تركة امبراطوريتين

تعتبر شبه جزيرة البلقان جنوب منطقة شرق أوربا، من اكثر مناطق العالم تعقيداً من الناحية القومية - العرقية واللغوية والثقافية. فقد نتج عن موقعها الجغرافى أن تعرضت على مدى التاريخ لانتهاك الغزاة الذين تحركوا من آسيا الصغرى إلى أوربا أو بالعكس. وشعوب البلقان الحالية هي تركة هذا التاريخ، تركة الامبراطورية العثمانية والامبراطورية النمساوية - المجرية.

وحتى يمكننا فهم الصراع الدائر فيما كان جمهورية يوجوسلافيا الاتحادية، بين قومياتها وجمهورياتها، لابد من إلقاء نظرة تاريخية على تشكيل القوميات والجماعات الاثنية، ولابد أيضاً من دراسة سريعة مبسطة لتاريخ يوجوسلافيا. وهذا هو الأطار الذى يدور فيه الصراع الحالى.

وأقدم ثلاثة شعوب فى المنطقة التى ندرسها هم :

أولاً : اليونانيون ،

ثانيا : «الفلاها» المنحدرون من «الطراقيين» الأصليين،

ثالثا : والألبان الذين يقال انهم من نسل الأليريين القدامى،

أما السلاف، وهم شعب هندو - أوربى أصله شرقى وسط أوربا، فقد بدأوا يعبرون نهر الدانوب إلى البلقان بحلول القرن السادس الميلادى.

وفى القرن السابع وقعت هجمات من كل من السلاف والبلغار الأوائل أدت إلى تأسيس أول دولة بلغارية عام ٦٨١. والبلغار الأوائل هؤلاء هم شعب تركى من المنطقة الواقعة بين الأورال والفولجا قدموا عبر سهوب إلاستبس شمال بحر قزوين. واعتنق البلغار الأوائل المسيحية بطريقة جماعية عام ٨٦٤ بتوجيه زعيمهم بوريس. وساعدهم ذلك على اندماجهم مع السلاف الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية قبل ذلك. وما أن حل القرن التاسع حتى أصبحوا كما لو كانوا شعباً واحداً يتحدث لغة مبنية على السلافية، وإن كان المؤرخون اليوجوسلاف (فى يوجوسلافيا الاتحادية السابقة) يدّعون أن السلاف المقدونيين كانوا على الدوام شعباً منفصلاً عن سلاف بلغاريا.

وابتداء من القرن العاشر فصاعداً، بدأ الروم [1] (الغجر) فى التحرك إلى المنطقة، ويرجع موطن هؤلاء الروم إلى شمال الهند. وفى القرن السابع توطن السلاف المنطقة الشمالية ليوجوسلافيا المعاصرة (الإتحاد الفيدرالى السابق)، وأسس الكروات دولة مستقلة استمرت حتى عام ١١٠٢ م حين «أُجملوا» فى مملكة هنغاريا (المجر) ثم فى الامبراطورية الهابسبورجية التى كانت آخذة فى التوسع آنذاك، فاستولت على سلوفينيا، ثم سيطرت على شرق أوروبا. فضمت أراضى آل هابسبورج مايعرف فى وقتنا الحاضر بسلوفينيا وكرواتيا وفويفودنيا. وأصبحت فيما بعد عام ١٨٨٧ تشمل البوسنة والهرسك. أما الساحل الدالماسى لكرواتيا، فما زال يحتفظ حتى يومنا هذا - بتأثيرات فينسية قوية تظهر بوضوح فى العمارة، هذا إذا كان قد تبقى منها شئ بعد قتال الحرب الأهلية الوحشى. والسبب أن الشاطئ معزول جغرافياً فى معظم الأمر عن داخل كرواتيا، بسلاسل جبال وعرة يصعب اجتيازها.

وبنهاية القرن الثالث عشر، كان الصرب، وهم شعب سلافى آخر، يوطدون سيطرتهم على جزء كبير من البلقان وفى عام ١٢٨٢ م، استولى الملك ميلوتين ملك الصرب على سكوبچي (عاصمة جمهورية مقدونيا فى الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى السابق) استولى عليها من الامبراطورية البيزنطية، ففتح بذلك الطريق للاختراق الصربى لمقدونيا. لكن تلك الفُرقة وعمليات الضم والاستيلاء والحروب المتبادلة فى البلقان، فتحت الطريق أمام الأتراك العثمانيين المسلمين لغزو شبه جزيرة البلقان من آسيا الصغرى عبرمقدونيا ووادى ماريتسا فى القرن الرابع عشر. كانت الامبراطورية العثمانية تتضخم تدريجياً على حساب تآكل الامبراطورية البيزنطية المريضة. ولقد وصل الغزو العثمانى التدريجى ذروته بهزيمة الصرب فى كوزوفو پولچي عام ١٣٨٩ م، وفتح الطريق بالتالى أمام الغزو العثمانى الكامل لكل البلقان. وشهد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ نهاية الامبراطورية البيزنطية. وتحركت جموع كبيرة من الصرب شمالاً تاركة كوزوفو، هروبا من السيطرة العثمانية، واستقر الصرب على حدود مملكة هنغاريا فى منطقة فوفودنيا الحالية. ولقد استمر الحكم العثمانى لجزء كبير من شبه جزيرة البلقان حوالى خمسة قرون.

ورغم تقدم الامبراطورية العثمانية إلى قرب فيينا العاصمة النمساوية، وتطلعها إلى دق أبواب أوروبا الغربية، إلا أنها كانت قد بدأت تتدهور. فما أن حل القرن التاسع عشر حتى كانت فى حالة تحلل: فالجيش القوى صاحب الغزوات والفتوحات فقد روحه المعنوية، والبيروقراطية الكفء التى أدارت شئون الدولة المترامية الأطراف أمست فاسدة، والاقتصاد الذى كان مزدهرا متنوعا أصبح راكدا. وساعد كل هذا - ولأسباب أخرى عديدة إلى جواره - على استيقاظ شعوب البلقان وقومياتها. وقد دفع هذه اليقظة إلى الأمام تدخل القوى الكبرى واهتمامها بشل حركة الامبراطورية العثمانية وتفكيك أوصالها، وخاصة

الامبراطورية الروسية، والامبراطورية النمساوية ـ المجرية. ولقد ساعد على هذا فى الأساس جغرافية شبه جزيرة البلقان، فهى ذات تضاريس جبلية وعرة مما جعل المواصلات صعبة. ونتج عن ذلك ان شعوبها عاشت فى «جماعات» وفى «جيوب» منفصلة عن بعضها لاتميل إلى التوحيد.

وتحولت بعض هذه الشعوب فى ظل الحكم العثمانى الجديد إلى الاسلام مثل الألبان أو أهل البوسنة فى وسط يوجوسلافيا، والبوماك قاطنو جبال الرودوب. لكن رغم هذا لم يمتص العثمانيون هذه الشعوب، وانما تميزوا بتعدد القوميات، فلم توجد تسهيلات تقنية ولا مؤسستية لتكامل الشعوب الخاضعة لهم وتوحيدها. وهذا عكس ماحدث فى أوروبا الغربية، حيث انصهرت فى «الدول الأمم» الجديدة الولايات الاقليمية. وبذلك احتفظت شعوب البلقان بشخصياتها وهوياتها وثقافاتها وحضارتها المنفصلة الخاصة، بمثل ما احتفظ كثير منها بمشاعر ماضيه العظيم عندما كان يسيطر على منطقة بذاتها، طالب بها مرة أخرى خالصة له عندما استيقظ الوعى القومى فى القرن التاسع عشر. كان ذلك فى أحيان كثيرة على حساب جيرانهم الذين قدموا بدورهم مطالب تاريخية حول نفس المناطق.

هكذا شهدت يقظة الوعى القومى بدايات تهاوى السلطة العثمانية فى البلقان فى منتصف القرن التاسع عشر، وكذا تأسيس الدولة الصربية فى الشمال حول بلغراد والدولة اليونانية فى الجنوب حول أثينا. وتسببت هذه اليقظة فى أحيان كثيرة، فى عداء بين الشعوب التى كانت تخضع للعثمانيين، وقد وصل هذا العداء إلى ذروته حول مقدونيا فى بدايات القرن العشرين.

كانت الامبراطورية العثمانية حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والجزء الأول من القرن العشرين، امبراطورية يقسّم سكانها على أساس الانتماء الدينى، نظام المللى، وليس على خطوط لغوية. فكان الدين تقليدياً هو أحد العوامل الرئيسية فى التمييز بين المجموعات المختلفة. أما مفهوم القومية كما هو مفصل فى الايديولوجية القومية، فكان زائراً متأخرا للبلقان بمثل ماكان لتركيا.

وفى حالة البلغار بعد الغزو التركى، فقد وُضعت الكنيسة البلغارية المنفصلة ومدارسها التعليمية المرتبطة بها، تحت رعاية وسيطرة الكنيسة الأرثوذكسية ـ اليونانية، والبطريرك اليونانى فى اسطنبول. هكذا واجه البلغار تهديداً كبيراً بالامتصاص فى اليونانيين، حتى يقظة القومية البلغارية فى القرن التاسع عشر: ذلك أن اليونانيين كان يسيطرون على الخدمات الدينية والتعليمية، التى كانت باللغة اليونانية. بنفس ماكانوا مهددين بالامتصاص فى الأتراك العثمانيين (٢) .

لكن عاملا جد فى نمو الوعى القومى البلغارى، لعب دوره فى ألا يحدث ذلك

الامتصاص. فقد نمت حركة ابتداء من عام ١٨٢٠ للمطالبة بتأسيس كنيسة وطنية، وبالفعل تأسست «الاكسارشيت» ـ أى الكنيسة الوطنية البلغارية على يد السلطات التركية عام ١٨٧٠ (٣) .

اتخذ شكل الكفاح من أجل تأسيس كنيسة وطنية بلغارية شكلاً دينياً، لكنه كان في جوهره صراعاً سياسياً. فقد كانت الأبرشيات التي اختارت اللغة «الدارجة» لكنائسها تؤلف مايسمى بـ «بلغاريا الكبرى» والتى كان مقدراً لها أن تظهر إلي الوجود بعد معاهدة سان ستيفانو عام ١٨٧٨ عند نهاية الحرب الروسية ـ التركية بين عامى ١٨٧٥و١٨٧٨. على أن القوى العظمى آنذاك، وعلي وجه الخصوص بريطانيا والامبراطورية النمساوية المجرية، خشيت أن تسيطر بلغاريا الكبرى على البلقان والبوسفور، وتكون دولة تابعة للامبراطورية الروسية، فضغطت لابدال «بلغاريا الكبرى» بكيان أصغر بكثير هو مانصت عليه معاهدة برلين.

كان فقدان ماكان يعتبره البلغار عندئذ ـ وما زالوا ـ أن وطنهم الطبيعي، بمثابة عامل هام في تشكيل مشاعرهم القومية. ومازال البلغار يحتفلون حتى الآن بذكرى توقيع معاهدة سان ستيفانو التى رسمت حدود «بلغاريا الكبرى». احتفاء رسميا أكبر بكثير من احتفائهم بتوقيع معاهدة برلين التى تلتها. ورغم ان بلغاريا نجحت عام ١٨٨٥ فى استعادة «روميليا الغربية»، فإن كثيرا من «الأقاليم المفقودة» ظلت خارج حدودها فى يوجوسلافيا (السابقة) وفي اليونان.

أما تجربة الكروات والسلوفينيين الكاثوليك، وأيضا صرب ڤويفودنيا، فقد كانت تجربة جد مختلفة. كانوا تابعين لامبراطورية آل هابسبورج، كانت الحدود بين الامبراطوريتين المتنافستين كثيفة التحصين على جانب الهابسبورج بواسطة المدن ذات الحاميات. وأثناء ثورات ١٨٤٨ التى اجتاحت امبراطورية الهابسبورج، استدعت السلطات الصرب والكروات لإخماد محاولات المجريين الاستقلال. وباءت بالفشل محاولة اعوام خمسينات القرن التاسع عشر (١٨٥٠) لإشاعة نوع من التجانس بين أجزاء هذه الامبراطورية المترامية علي أساس ألماني، وأجبرت السلطات على التوصل إلى حل وسط مع المجريين، نتج عنه عام ١٨٦٧ ما أطلق عليه «الأوسبجلج».

وشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر هذه الامبراطورية وهى تعانى من الصراعات الداخلية باضطراد، تحت التأثير المتنامى للمشاعر القومية، حيث تنافست المجموعات القومية ـ العرقية المختلفة مع بعضها البعض من ناحية، ومع المركزية (النمسا والمجر) من ناحية أخرى، وذلك للحصول على الحقوق القومية. وكانت عدم قدرة الامبراطورية الهابسبورجية على التعامل مع أقلياتها، وبالذات مع الصرب، عاملاً رئيسياً

فى التوتر المتزايد مع الدولة الصربية الجديدة، وأحد أسباب قيام الحرب العالمية الأولى. ولقد كانت الشرارة الأولى لها هى اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند فى سيراييفو على يد صربى من سكان البوسنة. ومن المفارقة أن الأرشيدوق كان من أصحاب فكرة إقامة امبراطورية ثلاثية مكونها الثالث هم السلاف الجنوبيون.

هوامش الفصل الأول

(١) أهل الروم فى اللغة العربية هم أهل بيزنطة. أما المقصود بالروم هنا، فهم الرومانيون.

(٢) يعبر عن هذا مثل بلغارى يقول: «اللهم ارحمنا من البلغارى الذى يصبح يونانياً، ومن الغجرى الذى يصبح تركيا».

(٣) عندما وجد البطريرك جريجورى السادس أنه لامفر من تأسيس الكنيسة الوطنية البلغارية بعد أن قويت حركة المطالبة، عرض عام ١٨٦٧ م إنشاء كنيسة بلغارية مستقلة عن الكنيسة اليونانية، على ألا يمتد نفوذها ونشاطها إلى أويروشيات مقدونيا. لكن البلغار رفضوا هذا العرض مطالبين بأن يسمح لسكان اويروشيات مقدونيا أن يقرروا بأنفسهم مايريدون. وعندما صدر المرسوم (العثمانى) عام (١٨٧٠ ألحق بكنيسة «الاكسارشيت» ١٧ أويروشية فقط، وإن كان قد سمح للأويروشيات الأخرى أن تقرر بأغلبية ثلثى أصوات الذكور البالغين ما إذا كانت أويروشيتهم تنضم إلى الكنيسة البلغارية وتقدم الخدمات الكنسية باللغة «الدارجة» وليس باللغة اليونانية أم تستمر فى تقديم الخدمات باللغة اليونانية.

الفصل الثانى

يوجوسلافيا

الخطوط العامة

كانت الجمهورية اليوجوسلافية - الفيدرالية - الاشتراكية SFRJ هى أقل جميع بلدان أوروبا تجانساً من الناحية السكانية. فهى اتحاد فيدرالى متعدد القوميات، له نظام يتكون من ثلاثة مستويات للحقوق القومية:

(١) **أمم يوجوسلافيا**: وكل منه له وطن قومى فى إحدى جمهوريات الاتحاد الفيدرالى الست (١) . وهناك ست أمم يوجوسلافية، ينص عليها الدستور وهى:أ - الصرب، ب - الكروات، جـ - السلوفينيون، د - أهل الجبل الأسود، هـ - المقدونيون، و - المسلمون، الذين اعترف بهم كفئة عرقية، وكأمة منذ إحصاء عام ١٩٧١.

(٢) **قوميات يوجوسلافيا** : وهى القوميات المسموح لها قانونا بحقوق ثقافية وباستخدام لغتها. وهناك عشر مجموعات عرقية معترف بها رسمياً كقوميات، أكبرها الألبان الذين يتركزون فى كوزوڤو، والمجريون الذين يتركزون فى ڤويڤودنيا، ثم البلغار، والتشيك، والايطاليون، والرومانيون، والسلوڤاك، والروثينيون، والاتراك، والفجر.

(٣) **قوميات ومجموعات عرقية أخرى**: وهى باقى المجموعات العرقية الأخرى الموجودة فى يوجوسلافيا : النمساويون، واليونانيون، واليهود، والألمان، والپولنديون، والروس، والأوكرانيون، والفلاها، ومجموعات أخرى، وبينهم أولئك الذين يصفون أنفسهم بأنهم «يوجوسلاف».

***

ظهرت يوجوسلافيا للوجود فى ديسمبر عام ١٩١٨ كمملكة الصرب والكروات والسلوڤينيين، عند نهاية الحرب العالمية الأولى. ووحدت بعض الأقاليم التى كانت تتبع الامبراطورية النمساوية - المجرية، مثل سلوڤينيا وكرواتيا - سلوڤينيا، وڤويڤودنيا، والماسيا والبوسنة والهرسك، وحدت مع مملكتى الصرب والجبل الأسود، بما فى ذلك ماهو الآن - تقريبا - مقدونيا، وكوزوڤو .

وفى عام ١٩٤١، وأثناء الحرب العالمية الثانية، غزت قوات المحور يوجوسلافيا، فشهدت

السنوات التالية مقاومة عنيفة للقوات المحتلة، صحبها حرب أهلية مريرة .

عند نهاية الحرب، كانت الغلبة العسكرية والسياسية لحركة الأنصار ـ المقاومة التى يقودها الشيوعيون بقيادة الماريشال تيتو. وفى يناير ١٩٤٦ خلع الملك، وأعلنت يوجوسلافيا جمهورية فيدرالية شعبية. ثم أعيد تسميتها عام ١٩٦٣، «اشتراكية» بدلا من «شعبية». وفى دستور ١٩٧٤، كانت الدولة الفيدرالية تتألف من ست جمهوريات فى اتحاد فيدرالى :

١ ـ البوسنة والهرسك	وعاصمتها	سيراييڤو
٢ ـ كرواتيا	وعاصمتها	زغرب
٣ ـ مقدونيا	وعاصمتها	سكوبچى
٤ ـ الجبل الأسود	وعاصمتها	تيتوجراد
٥ ـ سلوڤينيا	وعاصمتها	لوبليانا
٦ ـ الصرب	وعاصمتها	بلغراد

وكانت بلغراد هى العاصمة الفيدرالية أيضاً، إلى جانب ان جمهورية الصرب كانت تضم أيضا إقليم ڤويڤودنيا الذى يحكم حكماً ذاتيا وعاصمته نوڤى صاد، وأيضا إقليم كوزوڤو ويحكم أيضا حكما ذاتيا وعاصمته بريستينا .

وقد صيغت المواد الخاصة بالاتحاد والانفصال فى الدستور بدقة وعناية شديدتين، فذكر «حق تقرير المصير» لكل من أمم يوجوسلافيا الست بما فى ذلك حق انسحابها من «الاتحاد» والاستقلال. إلا أنه عاد وأكد «أن تلك الأمم قد اتحدت، على أساس مشيئتها الحرة واختيارها الذى تم التعبير عنه أثناء الحرب العالمية الثانية. ويعنى هذا من الناحية الدستورية، ان تلك الأمم قد عقدت اتفاقاً ملزماً، وان «حقها فى الانفصال والاستقلال» لم يعد واردا .

على أن التغيرات السياسية السريعة التى اجتاحت أوروبا الشرقية عام ١٩٨٩، بعد «البيريسترويكا» الجورباتشوفية التى بدأها الزعيم السوڤيتي السابق ميخائيل جورباتشوف عام ١٩٨٥، شهدت الانهيار الكامل للأنظمة الشمولية ـ الشيوعية، وكذا انهيار النظام الدستورى القديم فى يوجوسلافيا . وتنامت المشاعر القومية، وأدى تنامى المشاعر القومية الصربية إلى إلقاء «الزيت على النار» كما يقول المثل، فازداد سخط الصرب على الترتيبات الدستورية لعام ١٩٧٤ فى الدولة الاشتراكية ـ التيتوية، تلك الترتيبات التى أدت فيما أدت إلى منح إقليمى ڤويڤودنيا وكوزوڤو الاستقلال الذاتى، فى وضع يكاد أن يقترب فى الواقع من وضع جمهوريتين مستقلتين داخل جمهورية الصرب. واستغلت القيادة الصربية هذا السخط فأجرت فى شهر مارس ١٩٨٩ تغييرات دستورية، حرمت بها هذين الاقليمين من وضع الاستقلال الذاتى الذى تمتعا به .

شعرت القوميات الأخرى فى الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى بالتهديد المحتمل من

الهيمنة الصربية، وإضافة إلى ذلك لعبت الأزمة الاقتصادية والسياسية التى أمسكت بخناق يوجوسلافيا دوراً كبيراً فى إشعال الموقف، فبدأت الميول الانفصالية تظهر فى جمهورية سلوفينيا، وتعود للاستيقاظ فى كرواتيا. وفى ٢٧ سبتمبر ١٩٨٩ صدقت «الجمعية الوطنية السلوفينية» على تعديل دستور الجمهورية، يسمح لها بالانفصال عن الاتحاد. وهكذا ألغى دستور ١٩٧٤عملياً.

وعندما جرت الانتخابات العامة الحرة لأول مرة فى جمهورية كرواتيا، فاز «الحزب القومى الكرواتى»، فشدّد هذا الهوة بين الجمهوريتين الكاثوليكيتين فى الشمال [كرواتيا وسلوفينيا اللتين أخذتا أيضا الإرث الهابسبورجى، وهما أيضا الأكثر رخاء] وبين الجمهوريات الأربع الأخرى، والصرب على وجه الخصوص. وفى ٢٣ ديسمبر ١٩٩٠، أجرت سلوفينيا بدورها استفتاءاً عاما عما إذا كانت ستبقى داخل ماتبقى من الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى، أم تعلن انفصالها واستقلالها. وجاءت الأغلبية الساحقة مؤيدة الاستقلال .

وانهارت يوجوسلافيا، وحاولت الصرب الدفاع عن الاتحاد حتى تستمر لها الهيمنة .

الأديان فى يوجوسلافيا

كان الدين منفصلا عن ا لدولة فى دستور ١٩٧٤. والمذاهب المسيحية الرئيسية هى الكنيسة الأرثوذكسية الصربية والكنيسة الأرثوذكسية المقدونية، ويقدر عدد أتباعهما بثمانية ملايين نسمة، ثم الكنيسة الكاثوليكية فى كرواتيا وسلوفينيا ويقدر عدد أتباعها بستة ملايين شخص. أما المسلمون فيصل عددهم إلى حوالى أربعة ملايين شخص من عرق سلافى فى جمهورية البوسنة والهرسك أساسا وكذلك فى مقدونيا، بالإضافة إلى معظم الألبان والأقلية التركية. وهناك أتباع لما يزيدوا على ثلاثين مذهباً دينياً لاخرى، وهى فى أحيان كثيرة صغيرة الحجم للغاية، ومعظمها بروتستانتى .

لعب الدين - تاريخيا - دورا مهما فى هذه المنطقة التى تناطحت فيها الكاثوليكية والأورثوذوكسية والإسلام. ففى البوسنة حيث التقت المسيحية اللاتينية بالمسيحية اليونانية، ظهرت هرقطة البوجيوميل وغيرها من الهرطقات، وعند الغزو العثمانى فى القرن الخامس عشر، كانت البوسنة قد ارتدت إلى الكاثوليكية نتيجة لجهود بعثات تبشير الفرنسيسكان، بينما ظلت الهرسك والأطراف الشرقية للبوسنة يدين معظمها بالمذهب المسيحى الاورثوذوكسى. وظلت الهرطقة البوجيوميلية متمركزة فى شمال الهرسك حيث كان «التنقل بين المذاهب» هو المعتاد. لكن الاسلام، الدين الجديد، بالنسبة للمنطقة، جذب كثيرين من كل الطبقات، وبالذات طبقة نبلاء البوسنة. وبهذا بدأ الإسلام فى الانتشار بين السلاف.



DISINTEGRATION OF THE OTTOMAN EMPIRE IN THE 19TH AND EARLY 20TH CENTURY

كانت الكنيسة الاورثوذكسية تقليديا كنيسة الدولة التى تأتمر بأمر كل حكومة فى السلطة. وفى سلوفينيا كانت الكنيسة الكاثوليكية ذات نفوذ كبير فى الحزب السياسي الرئيسى فى فترة مابين الحربين العالميتين : «حزب الشعب السلوفينى».

وفى البوسنة، أصبحت «منظمة المسلمين اليوجوسلاف» قوة لها تأثيرها، فى سياسة مابين الحربين العالميتين. ولكن لم يستطع أى من الحزبين السابقين المعتمدين على الدين (فى كل من سلوفينيا والبوسنة) ان يخرج من إسار محليته ليتحول إلى حزب قومى.

وعلى النقيض من ذلك، كان الحزب السياسى الرئيسى الكرواتى فى فترة مابين الحربين، وهو «حزب الفلاحين الكرواتى HSS» حزبا معاديا للكهنوت . على أنه فى فترة مابعد الحرب العالمية الثانية، تغير وضع الكنيسة الكاثوليكية تجاه القومية الكرواتية تغيراً جذريا . فالكنيسة الكاثوليكية تختلف فى ولائها الدينى عن الكنيسة الارثوذوكسية. فبينما مركز ولاء الكنيسة الكاثوليكية فى روما - أى خارج البلاد - فإن ولاء الكنيسة الأرثوذوكسية لنفسها - للداخل وكانت كنيسة الدولة. لهذا نظر إلى الكنيسة الكاثوليكية من قبل السلطات الشيوعية الجديدة على أنها منافس خطر، لذلك شنت عليها هجوما شاملا عام ١٩٤٦. وجرت محاكمة كبير الأساقفة ستبيناك من زغرب. وكانت النتيجة أن تحولت الكنيسة الكاثوليكية لتصبح لأول مرة فى كرواتيا أحد رموز القومية الكرواتية.

ورغم هذا الهجوم الشامل الذى شنته السلطات الشيوعية على الأديان بجميع أنواعها، إلا أن احصائية جرت عام ١٩٥٣، بينت أن ٦ر١٢٪ من السكان فقط سجلوا أنفسهم «بدون ديانة» فى أوراقهم الرسمية.

وبزغ الإسلام كقوة فعالة فى البوسنة، وهى أيضا قوة كامنة وراء القومية الألبانية، وأساسا فى إقليم كوزوفو. ورغم أن بعض الدارسين يرون أن الألبان لا يأخذون الدين مأخذاً جدياً، إلا أنه قوة كامنة قد تتحول إلى برميل بارود، وخاصة إذا كان العدو القومى يعتنق دينا آخر.

ولقد تم استطلاع للرأى العام عن الايمان بالدين فى كل جمهوريات يوجوسلافيا وفى الاقليمين اللذين يتمتعان بالحكم الذاتى، وذلك فى شهر نوفمبر عام ١٩٨٥، فكان نسبة المؤمنين كما يلى: كوزوفو (مسلمون) ٤٤٪، كرواتيا (كاثوليك) ٣٣٪، سلوفينيا (كاثوليك) ٢٦٪، مقدونيا (ارثونوكس) ١٦٪، البوسنة والهرسك (مسلمون) ١٧٪، الصرب (ارثونوكس) ١١٪، فويفودنيا (مختلط) ١٠٪، الجبل الأسود (أرثونوكس) ١٠٪ (٢) .

وما يلفت النظر فى هذا الاستطلاع أن كوزوفو بها أكبر نسبة من المؤمنين. بل وأعلن ٢٥٪ من أعضاء «عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف» - الحزب الشيوعى وهو الحزب الوحيد الذى كان مسموحا له بالعمل آنذاك، ان ٢٥٪ من أعضاء الحزب الذين أخذ رأيهم فى الاستطلاع أعلنوا أنهم يؤمنون بالدين، وزيادة على ذلك أعلن ٤٪ منهم أنهم يؤدون

الشعائر الدينية.

وفى استطلاع آخر للرأى العام جرى بعد ذلك فى ٢٥ مايو ١٩٨٦، سجل أن ٩٤٪ من أعضاء «عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف» ليسوا متدينين ولكن ٣٠٪ من الأعضاء فى كوزوفو قالوا أنهم متدينون. ومن الواضح أن هناك صلة بين تنامى المشاعر القومية الكرواتية والألبانية والسلوفينية منذ أواخر الثمانينات، وبين زيادة التدين والايمان وممارسة الشعائر الدينية. وقد يكون لعودة تصاعد القومية الصربية فى أواخر الثمانينات انعكاس فى ارتفاع نسبة المتدينين عن النسبة المسجلة عام ١٩٨٥.

السياسة: النظرية والممارسة

كانت عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف SKJ » الحزب السياسى المسموح له بالعمل فى كل أنحاء يوجوسلافيا حتى حدوث التغيرات الهائلة التى بدأت عام ١٩٨٩. كانت «العصبة» هى الحزب - الدولة، تسيطر على نظام شمولى من خلال السيطرة على الحياة السياسية بهيمنتها على منظمات اجتماعية - سياسية مفتاحية، خاصة على «التحالف الاشتراكى للشعب العامل فى يوجوسلافيا SSRNJ .

ورغم خلاف تيتو مع ستالين، ذلك الخلاف الذى أدى إلى طرد الماريشال تيتو من الكومنترن، والى عداء الدول والأحزاب الشيوعية له، ووقوفها ضده وضد يوجوسلافيا، إلا ان النظام اليوجوسلافى لم يكن يختلف كثيرا عن بقية الأنظمة الشمولية فى الاتحاد السوفييتى وأوروبا الشرقية إلا فى بعض التفصيلات.

ولقد كان الزعيم جوزيف بروز تيتو رئيسا للجمهورية مدى الحياة، ورئيسا لـ «عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف» وقائدا عاما للقوات المسلحة. وبعد وفاته ترأس العصبة قيادة جماعية من ٢٣ عضوا أطلق عليها «مجلس رئاسة اللجنة المركزية»، وتداول هذا المجلس الرئاسة سنويا. أما رئاسة الدولة فتمارسها هيئة جماعية أيضا تتكون من ممثلين عن كل جمهورية وإقليم مستقل ذاتيا، ومن رئيس مجلس رئاسة العصبة بحكم منصبه. وكانت رئاسة هذه الهيئة تتداول سنويا أيضا. بهذا كانت القيادة جماعية بالمفهوم السياسى والقومى - العرقى. ففى كل الهيئات التشريعية الرئيسية، كما فى كل الهيئات الفيدرالية، ساد مبدأ التمثيل المتساوى لكل الجمهوريات والتمثيل النسبى للاقليمين اللذين يحكمان «حكما ذاتيا». هكذا كان الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى مبنياً على مبدأ المساواة القومية وليس على مبدأ التمثيل النسبى العرقى. وكانت كل جمهورية تمارس، داخليا، سياسة «الحصص» القومية. ففى عام ١٩٨٩ على سبيل المثال كان رئيس فرع «الحزب» الكرواتى صربياً، وكان لكل جمهورية وإقليم جهازه الحكومى والقضائى بالإضافة إلى مجلسه التشريعى.

على أنه فى عام ١٩٨٩، بزغت بدايات التعددية السياسية، وبالذات فى سلوفينيا، حيث

كان يسود طقس أكثر ليبرالية، فبدأت تعمل مجموعات سياسية غير شيوعية، ثم أصبحت هذه المسألة موضع حوار واسع فى أماكن أخرى.

كان انهيار الأنظمة الشيوعية يتم بشكل متسارع فى الأنظمة الشمولية ـ الشيوعية، وفى شكل متوازٍ مع التغيرات غير العادية التى كانت تحدث فى الدول الاشتراكية المجاورة ـ التى كانت أحزابها الشيوعية لاتزال فى السلطة ـ تسارعت التغيرات السياسية فى يوجوسلافيا بسرعة أكبر. فقد واجهت فروع «العصبة الشيوعية» فى الجمهوريات تحديا لأول مرة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، فى شكل معارضة متزايدة من أحزاب منافسة لاشيوعية، قومية التوجه فى معظم الأمر. وحاولت الأحزاب تغيير أسمائها لتبعد عن تاريخها وعن فشلها السابق.

كان تشكل الأحزاب والمنظمات الجماهيرية ظاهرة جديدة مارسها الشعب اليوجوسلافى بشغف فتشكل فى الصرب وحدها ثلاثون حزبا جديدا. كان السباق رهيبا فى هذه المرحلة بعد الشيوعية الأولى، بين الأحزاب الشيوعية القديمة، مهما كان اسمها الجديد، وبين الحزب القومى الرئيسى لكل مجموعة قومية ـ عرقية. حاول تحالف القوى الشيوعية الاصلاحية SRS بزعامة رئيس الوزراء أنتى ماركوفيتش أن يلعب دوره من أجل استمرار الاتحاد اليوجوسلافى، لكن لم يصبه إلا القليل من التوفيق. كان يقف ضد تيار الاستقلالية الجارف. كان لكل شعب ـ قومية يريد أن يمارس حريته بأى ثمن.

وبدأ خسوف شمس الأحزاب الشيوعية الحاكمة فى جمهورية تلو الأخرى، عندما سمح بإجراء الانتخابات العامة الحرة عام ١٩٩٠. كان الاستثناء هو جمهورية الصرب وجمهورية الجبل الأسود. والسبب أن قيادة «قومية ـ صربية» تولت مقاليد الأمور فى الحزب الصربى بزعامة سلوبودان ميلوسيفيتش. وكان هذا التحول من «الشيوعية» إلى «القومية»، هو الذى جعل الحزب الشيوعى يحتفظ بالسلطة فى وجه تحديات الأحزاب القومية الجديدة الأكثر تطرفاً.

وهكذا تمت محاولة لانعاش مستقبل يوجوسلافيا بقيادة أنتى ماركوفيتش رئيس الوزراء الفيدرالى الذى كان يتمتع بشعبية كبيرة، ولاقت تجربته بعض النجاح، لكنه كان يقف فى وجه تيار جارف ونجح اقتصادياً على وجه الخصوص فى تثبيت نسبة التضخم الفائق.

وكما أشرنا، كانت يوجوسلافيا دائما بلدا شديد التعقيد من ناحية الموزايك القومى، ثم أصبحت أكثر تعقيدا حين دخلت عقد التسعينات وبدأت الصراعات.

المسلمون

ونحن نعتبر أن مشكلة المسلمين فى يوجوسلافيا ـ أى مشكلة البوسنة والهرسك ـ هى مشكلة فى إطار الصراع القومى ـ العرقى ـ الدينى، وليس دينيا خالصا. فمنذ بداية تفكك

الاتحاد الفيدرالى وكل جمهورية فى الاتحاد تبحث عن مستقبلها بمفردها. والمسلمون فى البوسنة هم سلاف. والمشكلة أن سكان الجمهورية يتكونون من المسلمين والكروات والصرب (بالثلث تقريبا لكل منهم). وكل من الكروات والصرب لهم جمهوريتهم وأصولهم فى كرواتيا والصرب. أما المسلمون السلاف فليس لهم سوى جمهورية البوسنة والهرسك.

وهناك أقليات إسلامية كبيرة فى جنوب الصرب بمنطقة «السندزاك» وأيضا فى جمهورية مقدونيا. كما أنهم أكبر مجموعة فى البوسنة والهرسك وإن لم يشكلوا الأغلبية.

وهناك الألبان (مسلمون أساسا) فى كل من إقليم كوزوڤو حيث هم أغلبية طاغية، أو فى جمهورية مقدونيا، حيث يشكلون أقلية كبيرة متكتلة. وتعيش أعداد كبيرة من الألبان أيضا فى مجموعات بجمهورية الجبل الأسود وفى جنوب الصرب، وقضية الألبان فى يوجوسلاڤيا هى برميل المتفجرات القادم، بسبب حجم الألبان كأقلية وصراعاتها وبالذات مع الصرب، وأيضا مع المقدونيين، ووضعها الجغرافى المجاور لحدود ألبانيا.

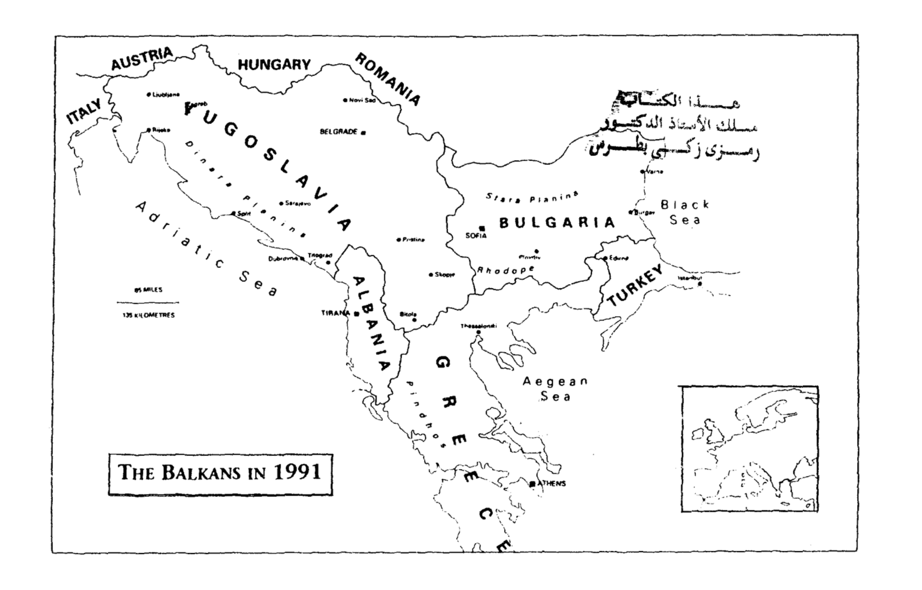
وقمنا فى هذا الكتاب بدراسة مقدونيا [الجمهورية اليوجوسلاڤية] والمقدونيين نظرا للخلاف المستمر حول هويتهم وهل هم شعب منفصل حقيقة أم انهم أحد اختراعات يوجوسلاڤيا التيتوية، أم هم جزء من اليونانيين.

ولقد كان العداء لفكرة أنهم شعب سلاڤى مستقل عداء مستمراً فى كل من اليونان وبلغاريا اللتين وقفتا ضد استقلالها، وهذا مايجعلها قضية «بلقانية» قابلة للإنفجار.

وتأتى دراسة الصرب كقومية مفتاحاً أساسياً لفهم مشكلة القوميات والصراع فى يوجوسلاڤيا الآن، والحرب الأهلية فى البوسنة والهرسك، والمشكلة متعددة الأطراف.

فالصرب يشكلون الأغلبية فى جمهورية الصرب التى تضم أيضا إقليمى ڤويڤودنيا وكوزوڤو. وهناك «مستوطنات» صربية كبيرة فى «البوسنة والهرسك» وفى كرواتيا. وهذا مايُعقد الصورة، فعند نشوب الصراع القومى لايكون القتال بين جمهورية وأخرى فقط بل يمتد بين حى وآخر وحتى بين منزل وآخر. وأيضاً تصبح «اللعبة السياسية والعسكرية» لعبة تعددية وليست بين طرفى نزاع فقط.

وسنحاول تقديم صورة لهذا الموازيك القومى - الإثنى حتى يمكن أن نفهم صورة النزاع وجذوره.



THE BALKANS IN 1991



الفصل الثالث

التاريخ .. القبائل .. الحقائق ... الحرب

(١) التاريخ

النسر هو الشعار الرسمي للصرب والجبل الأسود والبانيا لكنه ليس نسراً عادياً انه نسر ذو رأسين ، وهو يطل أيضاً في ڤيينا وروسيا . ان يعود الى عصر الامبراطورية الرومانية. وهو سبب البلاء والدماء التى سالت فيما كان يوجوسلاڤيا.

كيف؟

عندما كانت الامبراطورية الرومانية فى ذروة مجدها، كان يمثلها، كان شعارها النسر: الطائر الجرىء ذو الكبرياء ملك السماء. كانت الامبراطورية الرومانية شاسعة، تطبق قوانينها من اسكتلندة غرباً وحتى أرمينيا شرقاً. لكن في القرن الرابع الميلادى قسّم الامبراطورية قسمين: الشرقى وأصبحت عاصمته القسطنطينية، وهى مدينة اسطنبول الحالية. الآن انقسم رأس النسر إلى رأسين، أحد الرأسين ينظر شرقاً، والثاني ينظر غرباً. كانت البلقان هي رأس النسر، وإلى الشرق الأراضي التى ستصبح بعد قرون الصرب. والى الغرب الأراضي التى ستصبح بعد قرون كرواتيا وسلوڤينيا والبوسنة.

كان النصف الشرقي من الأمبراطورية الرومانية القديمة يضم الشرق الأوسط (حالياً). لكن سرعان ما غزا الاتراك أراضى الامبراطورية الرومانية الشرقية، ليقيموا فوقها الامبراطوبة العثمانية. وتأسست مستوطنات المسلمين في عمق البلقان المسيحي. لكن في نفس الوقت، وعلى نفس المستوى من الأهمية انقسمت المسيحية: فأصبحت هناك المسيحية الشرقية الارثوذكسية، والمسيحية الغربية الكاثوليكية التى تشكلت فيها أيضاً مذاهب أخرى فيما بعد أهمها البروتستانتية. ولقد تعايشت الامبراطورية العثمانية مع المسيحية الشرقية الارثوذكسية.

وعندما وصلت الامبراطورية العثمانية أوجها تحدت وسط أوربا الهابسبورج الرومانية وطرقت أبواب عاصمتها ڤيينا . لكن ما أن حل منتصف القرن السابع عشر حتى فقدت الامبراطورية العثمانية عنفوانها، فبدأ تراجع الحدود الاسلامية اللاتينية إلي الخلف حتى وصلت بهذا الشكل أو ذاك إلي تلك الحدود التي رسمها الامبراطور قسطنطين ، قد رسمها

قبل الف عام أو يزيد. فكان الكروات على الجانب «اللاتينى»، أما الصرب فكانوا على الجانب الآخر. وإلي حد كبير كانت البوسنة تفصل بينهما كانت منطقة جبال ومستنقعات لا يقطعها احد : أصبحت أقصى بقايا الامبراطورية العثمانية.

أعادت النمسا في القرن التاسع عشر إلي غزو معظم غرب البلقان. كانت عدة دول جديدة قد أعلنت استقلالها عن الامبراطورية العثمانية التي بدأت تعاني الشيخوخة، وكانت الصرب على وجه الخصوص من أولى هذه الدول. وأدى هذا إلي المزيد من تعميق الانقسام القديم في البلقان : فإلي الشمال و الغرب كان هناك السلاف الكاثوليك في إقليمي كرواتيا وسلوفينيا تحت سيطرة امبراطورية الهابسبورج - والتي أعيد تسميتها آنذاك الامبراطورية النمساوية المجريه، والسلاف الارثوذكس في الجنوب والشرق، في الصرب المستقلة ، وتجد هذا منعكسا علي العمارة، وفي الكنائس علي وجه الخصوص: ففي الشمال والغرب هناك العمارة القوطية وإلي الجنوب والشرق الكنائس كلها متشابهة تماماً بشكل ممل، لكنها من الداخل مختلفة اختلافاً جميلاً رائعاً.

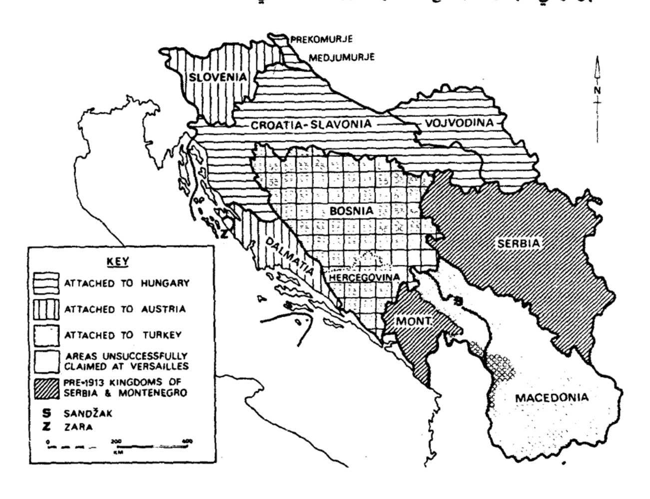
والناس، السلاف هنا وهناك يتحدثون لغة واحدة لكنهم مختلفون اختلاف كنائسهم. ثم هناك أيضاً السلاف المسلمون الذين تحولوا إلي الاسلام في ظل الامبراطورية العثمانية. فهم من ناحية الجنس والعنصر لايمكن تمييزهم عن جيرانهم، إلا انهم يعيشون في عالم مسيحي سواء أكان كاثوليكياً أم ارثوذكسياً.

وعلي اتساع هذا الموازيك برز شيء جديد تماماً : حركات التحرر الوطني - القومي التي ستتشكل القرن العشرين. قوى مصممة متطرفة بل وأحياناً إرهابية بدأت تقاتل، ليس من أجل المواجهة القديمة بين النمساويين و الاتراك، ولكن من أجل تأسيس الدول - الأمم. وقد اصطدمت هذه القوى الجديدة مع الامبراطوريات عام ١٩١٤، وكانت كل قوة من القوى الأوروبية تساند هذا الجانب أو ذاك، مما أدى إلي نشو ب الحرب العالمية الأولي.

وواجهت الامبراطورية النمساوية - المجرية الهزيمة مع المانيا. فطلبت الشعوب العديدة التي تعيش على أراضيها حقها في تقرير مصيرها وإنشاء دولها - الوطنية. وواجه السلاف الكاثوليك، الكروات والسلوفينيون، شمال وغرب خط التقسيم القديم، محنة. فلم تكن الأراضي التي يطالبون بها محددة، لأنها كانت تضم أقليات عديدة إلي جانبهم وحولهم. وأسوأ من ذلك أنهم قاتلوافي جانب الامبراطورية النمساوية - المجرية المهزومة في الحرب، وخشوا أن تبتلعهم ايطاليا التي كانت في الجانب المنتصر. ولما كانت الصرب في الجانب المنتصر أيضاً، فقد قاموا بالتوصل إلي اتفاق معها : أن تقوم مملكة جديدة من الصرب والكروات والسلوفينيين، ونصبوا ملكاً صربياً علي المملكة. هكذا عبرت الدولة الجديدة خط التقسيم القديم، لكن هذه الشعوب الثلاثة كانت تتحدث بألسنة قريبة للغاية. وأطلق على هذه الدولة الجديدة اسم «يوجوسلافيا - أي بلد السلاف الجنوبيين (يوج) وقد وقع علي «

إعلان كورفو» الذي أسس هذه الدولة في ٢٠ يوليه ١٩١٧.

تضمن «إعلان كورفو» أربع عشرة نقطة لتأسيس مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين «كدولة ملكية ديموقراطية دستورية برلمانية تحكمها أسرة «كاراديوبيفيتش» الصربية. وضمن الإعلان تساوي القوميات الثلاث الموقعة. وضمن الإعلان كذلك حرية ممارسة الشعائر الدينية : المسيحية الأرثوذكسية، والمسيحية الكاثوليكية، والاسلام ومساواة استخدام الحروف السيريالية واللاتينية. ورفض أي اقتراح «بحلول جزئية» للحركات الوطنية ـ القومية الثلاث . «فشعوبنا كل واحد لايتجزأ، بعد تحررها من النمسا ـ المجر، وهي تقبل وحدتها مع الصرب والجبل الأسود في دولة واحدة».



تأسيس مملكة يوجوسلافيا

ملاحظة البوسنة ـ الهرسك كانت تركية منذ القرن الخامس عشر
وقد وضعت تحت الادارة النمساوية ـ المجرية عام ١٨٧٨
ثم ضمت إلي الامبراطورية نفسها ١٩٠٨

وذكر الاعلان أن الصرب والكروات والسلوفينيين يشتركون من نفس اللغة والثقافة، لكن تم تجاهل سلاف مقدونيا ولم يحضر أهل الجبل الاسود المؤتمر الذي وقع الاعلان في النهاية واعتبروا صرباً، وتم تجاهل وجودهم مستقلين تاريخياً ـ لعدة قرون. وعبرت «لجنة الجبل الاسود للوحدة الوطنية» بباريس عن استيائها من هذا الوضع لأن هذا يلغي وجود بلدهم نفسه، لكن أحداً لم يعر احتجاجهم اهتماماً. ووافق الحلفاء في النهاية علي إعلان كورفو كأساس لتسوية أمور أراضي امبراطورية الهابسبورج.

توترت العلاقات في الدولة الجديدة بين الصرب والكروات، ونشأت خلافات حول طريقة الحكم، والحدود «الادارية» ومسائل أخرى. وأثناء نقاش في البرلمان عام ١٩٢٨، أطلق الرصاص علي النواب الكروات. ففرض الملك الصربي دكتاتورية مباشرة على كرواتيا، لكن هذا أدى إلي اغتياله هو نفسه. ولم تستقر الأمور حتى عام ١٩٣٩، عندما وقعت معاهدة جديده لتنظيم كل المشاكل، وأعطى الكروات مساحة كبيرة من الأرض ضمن حدودهم الاقليمية. وكان من الممكن أن تسير الأمور سيراً حسناً لولا سحب الحرب، وغزو الألمان والايطاليين للأراضي اليوجوسلافية عام ١٩٤١. احتلت المانيا الصرب وأقامت في كرواتيا نظاماً فاشستياً بقيادة زعيم «الاوستاشا ustasha أنتى بافيليتش. بينما احتلت حليفتها ايطاليا الساحل الادرياتكي الذي كانت تحلم بضمه منذ فترة طويلة ووقف تأسيس الدولة اليوجوسلافية في وجه تحقيق هذه الأحلام.

أعلن نظام بافيليتش انه سيقوم بـ «بتنقية» كرواتيا من العناصر «الغريبة ـ الاجنبية» غير الكرواتية. وبدأت المذابح ضد صرب كرواتيا والي حد ما مسلمي البوسنة المقيمين في كرواتيا. وأعلنت الخطة الرسمية عن تقسيم الصرب الأرثوذكسي الذين كان عددهم في كرواتيا مليوناً و٩٠٠ الف صربي إلي ثلاث فئات : الفئة الأولي يتم التخلص منها بإعدامات جماعية، والثانية ترحل إلي خارج كرواتيا، والثالثة تتحول بالإكراه من الارثوذكسية إلي الكاثوليكية. فقامت «الاوستاشا» بحملات على أحياء الصرب في يونيه ١٩٤١ حيث ذبح الألاف. وهذه هي نفس عمليات «التمشيط العرقي» التي يقوم بها الصرب ضد مسلمي البوسنة ـ الهرسك ، وضد الكروات. وقد وصفت بعض هذه العمليات الفظيعة في محاكمات نورمبرج فيما بعد. ففي قرية جلينا، جمع كل الذكور في الكنيسة التي أشعلت فيها النيران، وكل من يحاول الخروج يحصده رصاص «الاوستاشا». ويقدر أن عدد الذين رحلّوا في الأشهر الأولي قد وصل إلي ١٢٠ ألف صربي. أما عددهم الاجمالي فقد وصل عام ١٩٤٣ إلي ٣٠٠ الف صربي. رحلّوا جميعاً إلي الصرب. وركز الكروات الفاشيست على الكهنة الارثوذكس، ويقدر أن نصف عددهم البالغ ٥٧٧ كاهناً في كرواتيا، رحّل إلي الصرب.

ساعدت القوات الألمانية والايطالية الزعيم الإرهابي الكرواتي «للأوستاشا» على إقامة

«دولة كرواتيا المستقلة» التي عرفت اختصاراً باسم «إن. دي. إتش» N D H التي ضمت أيضاً أراضي البوسنة والهرسك. وفي نهاية عام ١٩٤١، ذعرت قوات «العاصفة» الالمانية نفسها من مذابح «الاوستاشا» فأمر موسوليني جيشه ان يعود إلي البوسنة ـ الهرسك لوقف هذه المذابح التي تجعل السكان يقفون ضد قوات الاحتلال. وعندما كشف عما حدث، ذكر ان المذابح التي قامت بها «الاوستاشا» هي أسوأ المذابح الدينية في تاريخ أوربا. وقد عمقت من العداء بين الكروات والصرب ولم تمح من ذاكرة الصرب حتى الآن. وتمت عملية «التـ شيط العرقي» هذه بعد كرواتيا، في «البوسنة ـ الهرسك» حيث كان الصرب الارثوذكسي يشكلون آنذاك ٤٤٪ من السكان والكاثوليك ٢٣٪ أما المسلمون فكانوا يشكلون بقية السكان. وبدأت المذابح في الهرسك بقتل أربعة آلاف صربي «تحت إشراف» وزير داخلية «الاوستاشا» لأنه من المنطقة! وفي هذه المرحلة كانت «الاوستاشا» تقوم بسياستها ضد الصرب الارثوذكس في وجود القوات الألمانية والايطالية المحتلة التي كانت لاتوافق على هذه السياسة التي فاقت فظاعة النازي ووحشيتهم، لأنها سياسة ضد مصلحة المحتلين في النهاية إذا ما استمرت بتلك القسوة. لكن في شهر يونيه ١٩٤١ تحركت معظم القوات الألمانية إلي «الجبهة الروسية»، وانسحبت القوات الايطالية من داخل «دولة كرواتيا المستقلة NDH إلي الشاطيء. بعدها مباشرة بدأت «المذابح الكبرى» للصرب على يد «الاوستاشا» بمنطقتي موستار وكابلينا.

أرسل أسقف موستار الكاثوليكي خطاباً يصف فيه ما حدث، وكان واحداً أو اثنين فقط من الكهنة والأساقفة الكاثوليك الذين أدانوا المذابح، بينما شارك البعض الآخر فيها:

« بدأ عصر الإرهاب، أسر الرجال وذبحوا كالحيوانات، القي بالبعض من قمم التلال وهم أحياء، في يوم واحد ألقي بـ ٧٠٠ إلي قبورهم. حملت ست عربات قطار بسيدات وفتيات وأطفال، القي بهم جميعاً من قمة الجبل، والبعض الأخر في مدينة أخرى أطلقت عليهم النيران».

أحد أماكن هذه المذابح لايبعد بأكثر من ثلاثة كيلومترات من دير فرانسيسكاني، أصبح مكاناً يحج إليه الألاف كل عام في العقد الأخير.

أما قوات العاصفة SS الألمانية، فيتلخص رأيها في التقرير التالي: « يجب أن نعتبر أن المذابح التي ارتكبتها ميليشيات «الاوستاشا» ضد الصرب الأرثوذكس هي أهم أسباب انفجار حرب العصابات ضدنا، لقد ارتكبت هذه المذابح ليس ضد الشباب في سن الجندية ولكنها شملت النساء والأطفال والشيوخ أيضاً».

وأرسل الصرب وفداً إلي روما طلبا للمساعدة، فأمر موسوليني جيشه بأن يعود إلي «البوسنة ـ الهرسك» لوقف مذابح «الاوستاشا» وعندما أعاد الايطاليون احتلال «موستار» في ديسمبر ١٩٤١، احتشد عشرة آلاف إمراة وطفل من الصرب يرحبون في الميدان

الرئيسي بالقوات الغازية، تقدمت فتاة صغيرة يتيمة قتلت «الاوستاشا» والدها وأمها، وقدمت للقائد الايطالي باقة من الزهور وطلبت منه باسم كل الحاضرين البقاء، وحماية الجيش الايطالي.

كان هذا أول وآخر تدخل عسكري لإنقاذ البوسنة والهرسك من المذابح.

***

المقاومة والانتصار

بدأت المقاومة ضد جحافل النازية الهتلرية والفاشية الايطالية. وكانت قصص الفظائع التي ارتكبتها ميليشيات «الاوستاشا» دافعاً كبيراً لأن تبدأ المقاومة في الصرب، بعدها بقليل شملت كل يوجوسلافيا في حركه تعتبر من أروع قصص المقاومة ضد المحتل، جعلت ليوجوسلاڤيا خصوصيتها وتميزها عن دول أوربا الشرقية التي قام الجيش الأحمر بتحريرها، وإن اشتعلت بها المقاومة أيضاً.

انفجرت المقاومة المسلحة في بداية الأمر في سوميدبيا جنوبي العاصمة بلغراد شاركت فيها قوات حرب عصابات «الشيتنيك» الصربية بقيادة ضابط سابق في الجيش الملكي هو الكولونيل درازا ميهايلوڤيتش و«الأنصار» الشيوعيون بقيادة تيتو. وفي صيف ١٩٤١ بعد أن أرسل تيتو، ميلوفان جيلاس، انفجرت المقاومة في الجبل الأسود، وجيلاس من أهل الجبل الأسود. ونمت المقاومة الوطنية والشيوعية بسرعة إلي درجة إقامة قيادة عليا إقليمية لقوى التحرر الوطني في الجبل الأسود، بكوثور في ١٨ يوليه. وضم المجلس القيادي الشيوعيين الذين كانوا عصب المقاومة إلي جانب شخصيات وطنية تقدمية. وفي هذه المرحلة كان هناك تعاون بين «الأنصار» والشيوعيين و «الشيتينك» والمجموعات الوطنية الأخرى. وفى ليلة ١٨/١٧ سبتمبر وصل إلى الشاطئ من غواصة بريطانية الكابتن دى . تى . هدسون وضابطان يوجوسلاڤيان من سلاح الطيران الملكى اليوجوسلاڤى مع عامل لتشغيل جهاز راديو اتصالات، للتنسيق مع بريطانيا . كانت المجموعات الوطنية الموالية للملك والملكية تحاول إبعاد الشيوعيين، لكن هدسون توصل إلى أن «الأنصار» هم أرقى المنظمات من ناحية التنظيم وبالتالى من ناحية القيام بالعمليات. فذهب لمقابلة تيتو سرا فى شهر أكتوبر ثم بعدها ميهايلوڤيتش..

وفى سلوڤينيا، بدأت المقاومة النشطة للاحتلال يوم ٢٢ يوليو ١٩٤١، لكن حتى قبل ٣ مايو عندما أعلنت ايطاليا ضم سلوڤينيا رسميا كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق لإقامة جبهة عريضة ضد الفاشية، عرفت باسم «أسڤوبوديلنا فرونتا» أى «جبهة الحرية»، ضمت الشيوعيين بقيادة ادوارد كارديللى وبوريس كيدريتش، وأعضاء الجناح اليسارى من «النوادى الرياضية»، والمسيحيين الاشتراكيين، وشارك فيها أيضا كهنة وكتاب وفنانون ومثقفون وضباط جيش سابقون.

وفي مارس ١٩٤٢ كانت قوة الأنصار قد وصلت إلى درجة كبيرة، فرتب الألمان عملية جومية للقضاء عليهم شاركت فيها القوات الايطالية إلي جانب القوات الألمانية وكذلك ميليشيات «الاوستاشا» وكذلك وحدات «الشيتينك» الذين بدأوا سياسة معاداة الأنصار. كان الانصار يمتلكون خمس «فرق بروليتارية». استطاعوا اختراق صفوف الأعداء لمجتمعين ضدهم وعبروا إلى البوسنة حيث استطاعوا الاستيلاء على عاصمة البوسنة لقديمة «بيهاك» في شهر سبتمبر بعد معاناة فوق طاقة البشر. وعندما «جيش التحرير» بيهاك كان عدده قد وصل إلى ١٥٠ ألف جندي.

خلال إقامة الأنصار أربعة أشهر فى بيهاك، شهدت هذه المدينة حدثا تاريخيا باعلان تشكيل «المجلس المعادى للفاشية للتحرر الوطنى ليوجوسلافيا «أفنوىAVNOJ». ضم المجلس القوى المعادية والمقاومة للاحتلال بقيادة الشيوعيين.

لم يوافق ستالين ولا الكومينترن على تشكيل المجلس على أساس أن الملك كان موجودا فى المنفى وكانت قوات المقاومة الوطنية تدين له بالولاء. لكن هذه القوات كانت معادية للشيوعيين أكثر من معاداتها لألمانيا المحتلة، وبدأت التصفية الجسدية بين الفريقين. وقد أجهز الأنصار بالفعل على «الشيتينك» قبل أن ينزل الحلفاء قواتهم فيجدوا ميهايلوفيتش فى استقبالهم. وقد أرسل السكرتير العام للكومينترن برقية بهذا المضمون فى ٢ مارس ١٩٤٢ : «تعطى الأولوية الآن لهزيمة الجحافل الفاشية ... ولنتذكر أن الاتحاد السوفييتى يرتبط بعلاقات مع يوجوسلافيا وحكوماتها، وتربطهما معاهدات . وأن أى موقف عدائى سيسبب مصاعب جمة لمجهود الحرب والعلاقات بين الاتحاد السوفييتى، وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية».

هكذا كانت الخلافات بين ستالين وتيتو موجودة، كامنة، تراكمت فيما بعد ليطرد تيتو من الكومنترن. وحقيقة الأمر أن الاتحاد السوفييتى لم يقدم مساعدات تذكر للأنصار وكانوا فى أشد الحاجة اليها، وكان لقيادة الأنصار بزعامة تيتو استقلاليتها، وكانت هذه إحدى خصائص الحزب الشيوعي اليوجوسلافي.

وفى مؤتمر طهران ٢٨ نوفمبر - أول ديسمبر ١٩٤٣ اتفق تشرشل وروزفلت وستالين

- ضمن ما اتفقوا عليه - على مساندة الأنصار. وفى ٢٣ فبراير ١٩٤٤، وصلت أول بعثة عسكرية سوفيتية إلى قيادة الأنصار. كان قد بدا واضحا للعيان أن المانيا على وشك أن تخسر الحرب وان الحكومة المقبلة فى يوجوسلافيا سيسطر عليها الشيوعيون، وحلت النهاية، نهاية الاحتلال الألمانى.

قامت القوات الألمانية المحتلة بهجومها السابع والأخير فى البلقان. ومنذ يونية عام ١٩٤٤ بدأت تدفع بالألمان إلى التقهقر بمساعدة قوات الحلفاء، وفى شهر سبتمبر وصل

«الجيش الأحمر» إلى حدود يوجوسلافيا ورومانيا وصمم تيتو على مقابلة ستالين قبل دخول «الجيش الأحمر» الاراضي اليوجوسلافية واتفق الزعيمان في ١٨ سبتمبر علي السماح للقوات اليوجوسلافية على ألا يتدخل ستالين من خلال الجيش الأحمر في الادارة المدنية، وعلى أن يترك البلاد حالما انتهت مهماته العسكرية فيها. وقد اتفق على إبقاء هذه الاتفاقية سرا. ودخل الجيش الأحمر الأراضى اليوجوسلافية فى أول أكتوبر. وفى ٢٠ أكتوبر دخلت قوة مشتركة من «الجيش الأحمر» و «الأنصار» بلغراد.

ورغم استسلام الجانب الألمانى رسميا فى ٧ مايو ١٩٤٤، إلا أن الحرب بالنسبة للأنصار استمرت حتى أواخر عام ١٩٤٥، حيث تم تصفية ميليشيات «الأوستاشا» فى كرواتيا و «الشيتينك»، وإخماد هبة فى كوزفو وغالبيتها من الألبان المسلمين الذين على اتفاقية تيتو - خوجة بسيادة يوجوسلافيا على الاقليم.

تقدر المصادر التاريخية خسائر يوجوسلافيا بعد الحرب كما يلي:

القتلى	١ ٧٠٠ ٠٠٠	قتيل
	[أى ١١٪ من السكان قبل الحرب مباشرة]	
من بين هؤلاء	٩٠ ٠٠٠	من العمال المهرة
	٤٠ ٠٠٠	مثقف
لاجئون بلا مأوى	٣ ٥٠٠ ٠٠٠	شخص
عدد المنازل التى تهدمت	٨٢٢ ٠٠٠	منزل
نسبة الآلات الزراعية المحطمة	٨٠ ٪	
نسبة خطوط السكك الحديدية المحطمة	٥٠ ٪	
نسبة القاطرات المحطمة	٧٧ ٪	

يوجوسلافيا بعد تيتو

ومات الزعيم تيتو فى ٤ مايو ١٩٨٠، بعد صراع طويل مع المرض إذ دخل المستشفي فى ٥ يناير ١٩٨٠. ورغم أن وفاته كانت متوقعة، فإن موته صدم يوجوسلافيا، وربما أثار خوف شعوبها، فلم يعرف أحد زعيما للحزب والدولة غيره على مدى خمسة وثلاثين عاما. وحضر الجنازة قادة العالم مما يعكس مكانة تيتو كرجل دولة، ويعكس أهمية يوجوسلافيا فى الجماعة الدولية

وعملت *آلية الخلافة* بشكل تقليدى بعد وفاته، كانت *القيادة الجماعية الرئاسية* تعمل بشكل طبيعى لعدة أشهر بالفعل فعند وفاة الماريشال تيتو، تسلم لازار كولشفسكى (مقدونى) رئاسة الدولة حتى انتهت مدة خدمته لعام فى ١٥ مايو ثم تلاه سيفيتين فيراتوفيتش (صربى من البوسنة) طبقا للنظام الموضوع للدورة الرئاسية. وبالمثل تولى *رئاسة عصبة (الشيوعيين اليوجوسلاف)*، أسيتفين دورونسكى ممثل فويفودنيا. وفى ٢٠

أكتوبر تلاه لازار مويسوف من مقدونيا. ومنذ ذلك الحين استمرت القيادة الجماعية بشكل منتظم.

لم تكن المصاعب التى لاقتها القيادة الجديدة منذ مايو ١٩٨٠ ترتبط مباشرة بخلافة تيتو، رغم الافتقار إلى قيادته العبقرية لهذا الموزايك القومى والعرقى الفريد من نوعه والتى أسكتت أصوات المعارضة والمنشقين، والقوميين المتطرفين منهم علي وجه الخصوص.

كان هناك مجالان رئيسيان واجهت فيه القيادة الجديدة المصاعب :

الأول : المشاكل الاقتصادية المتزايدة وسيطرة الدولية.

والثاني : سخط ألبان كوزوفو.

كان هناك نقاش نقاش دائر حول الاتجاه السياسي والاقتصادي للبلاد. لم يكن الجدل في الدوائر الأكاديمية وحدها، وانما تعداه إلي الصحف والمجلات، والأهم بين قادة «عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف» ولم يحدث مثل هذا الحوار الحر والنقاش المفتوح في أي دولة شيوعية. لكن لم يكن هناك إجماع أو غالبية رأي حول استراتيجية طويلة المدى. وكان رد الحكومة الفيدرالية على أحداث كوزوفو ولمواجهة الأزمة الاقتصادية، تقليدياً.

أحداث كوزوفو البادرة الأولى :

كان ألبان كوزوفو يسود بينهم السخط لعدة سنوات قبل وفاة الماريشال تيتو، وبذلت عدة محاولات لحل مشاكلهم. واعتقدت القيادة في بلغراد انه يمكن احتواء المشاعر القومية المتطرفة إذا ما صبت بعض الأموال في التنمية الاقتصادية لكن المشكلة أن الأموال التي خصصت لاقليم كوزوفو لم تذهب للتنمية الاقتصادية بسبب ضعف البنية التحتية وعدم وجود الافراد والعمال المدربين تدريباً مهنياً، وهكذا بدلاً من استغلال ثروات كوزوفو ومصادرها الطبيعية أو تحسين الاتصالات والطرق انصبت الأموال على مشروعات سريعة افادت الطبقة المتوسطة للقوميين المتطرفين الألبان. وتحولت جامعة بريستنيا عاصمة كوزوفو لتصبح قلب التطرف القومي الألباني وقبل عام ١٩٦٨، كانت هذه الجامعة تعتمد على جامعة بلغراد، لكن بعد أحداث تمرد عام ١٩٦٨، كان أحد التنازلات أن تصبح جامعة مستقلة تستخدم اللغة الألبانية. وابتداء من أواخر السبعينيات أخذت جامعة بريستنيا تقدم مايقرب من عشرة آلاف خريج سنويا، وكانت الطريقة الوحيدة التي حصلوا بها على وظائف، هي استيعابهم في جهاز الدولة وفي المؤسسات الثقافية التي تلقت أموالاً كان ينبغي ان تذهب إلي مشروعات اقتصادية ذات عائد. وبتضخم جهاز الدولة لم يعد من الممكن تعيين المزيد في الوقت الذي تدهور فيه الوضع الاقتصادي. كان واحد من كل أربعة من العاملين، يعمل بجهاز الدولة الاداري وهكذا واجه الخريجون البطالة، ونشأت فجوة أخذت تتسع بين هؤلاء الذين يحصلون علي مرتبات ثابتة من جانب، ومن جانب أخر هؤلاء الذين يشكلون نصف عدد السكان ويعتمدون على الزراعة في الريف يضاف اليهم عشرات

آلاف الخريجين العاطلين عن العمل من الشباب.

وهناك عامل أخر أضاف الكثير إلي التوتر، ألا وهو الوضع المميز نسبياً للأقلية ـ الإثنية ـ الصربية. كانت نسبة الصرب إلي مجموع سكان كوزوڤو تصل إلي ٦ر٢٣٪ عام ١٩٦١، انخفضت إلي ٢ر١٣٪ عام ١٩٨١. ويحتل الصرب المناصب العليا فيما يرتبط بالتقنية والطب والقانون. والوضع هنا يكاد أن يكون شبيهاً بدول العالم الثالث المستقلة حديثاً التي مازال الاوربيون يمسكون فيها بالوظائف العليا وخاصة تلك التي تتطلب مهارات تقنية ومهنية، وتحولت الجامعات الجديدة إلي مراكز اشعاع للثقافة الوطنية.

أحيت مناهج جامعة بريستنيا الثقافة الألبانية في كل ناحية من نواحيها. اللغة والأداب والتاريخ والفن، وأقيمت علاقات وثيقة بجامعة تيرانا في عاصمة البانيا وتم التبادل الطلابي بينهما. وقام القوميون المتطرفون الألبان بمضايقة طلبة الأقلية الصربية، ونبشت القبور في القرى الصربية وتم الاعتداء علي الكنائس. كان القوميون الألبان ينتقمون بذلك من أيام الهيمنة الصربية قبل عام ١٩٦٨. وفي عام ١٩٧١ أزيح رئيس فرع «عصبة الشيوعيين» بكوزوڤو ڤيلى ريڤا من منصبه ليحل محله قائد الشباب محمود باكالى. وكان ڤيلى ريڤا قد شارك في حرب الأنصار ضد النازية، وأحد الذين يكنّون مشاعر معادية لتيرانا، آنذاك، التي كانت في ظل حكم أنور خوجة. وخلال حياة تيتو كان الموقف في كوزوڤو تحت سيطرة الحزب والحكومة. لكن بعد وفاته مباشرة بدأت علامات عدم الاستقرار وقبض علي عدد من زعماء الطلبة والشباب، ولم يعلن عن القبض عليهم حتى قدموا للمحاكمة في ديسمبر ١٩٨٠ وحكم عليهم أحكام قاسية بالسجن.

وانفجرت العاصفة في مارس ١٩٨١ عندما قام طلبة الجامعة بالاحتجاج على سوء الوجبات التي تقدم لهم وكذا ظروفهم السكنية وضد البطالة التي يعاني منها الخريجون. وبدا أن المسئولين يسيطرون علي الموقف، لكن بين ٢٦ مارس والثالث من ابريل اتسع نطاق الاضطرابات بانضمام العمال إليها. هنا اتخذت المظاهرات السمات القومية. واستخدم العنف ضد الصرب وأهل الجبل الأسود من سكان كوزوڤو. وارتفع شعار منح كوزوڤو وضع الجمهورية. وطالبت العناصر الأكثر تطرفا بضم المناطق التي تتحدث الألبانية في جمهورية الجبل الأسود إلي «جمهورية كوزوڤو» المقترحة، وارتباطها بالبانيا المجاورة. وذكرت مصادر ان بعض الشكوك حامت حول وجود عناصر أرسلها أنور خوجة قامت بإثارة قضية «البانيا الكبرى».

وخشى المسئولون ـ لأول مرة ـ تفكك الدولة الفيدرالية، كانت هذه هي المرة الأولي ـ في أوربا الشرقية كلها ـ التي يرتفع فيها شعار الانفصال والاستقلال. وهذا على مايبدو يفسر العنف الذي قمعت به المظاهرات والذي نتج عنه مقتل أحد عشر شخصاً وجرح سبعة وخمسون بجراح بالغة، حسب إعلان المسئولين. ولم تذع وسائل الإعلام شيئاً عما حدث

فضاعفت الشائعات ارقام الخسائر البشرية. فرضت حالة الطوارىء وأرسلت قوات الجيش إلي كوزوڤو التي عزلت عن بقية يوجوسلاڤيا وعن العالم، وأعيد طلبة الجامعة إلي قراهم، وفرض حظر التجول في العاصمة بريستينا، ومُنِعَ تجمع اكثر من خمسة أشخاص.

كانت هذه الأحداث الأولى من نوعها في كل دول العالم الشرقي. وكانت هذه هي البادرة الأولى في قضية القوميات للانفلات من الانظمة الشمولية.

وعندما بدا أن الحظر قد إنزاح، بدأ جدل في الصحافة اليوجوسلاڤية وفي الحكومة وفي دوائر «عصبة الشيوعيين»، للتوصل إلي أسباب أحداث كوزوڤو. لكن تحليل الأحداث سار في نفس الفلك القديم رغم شهرة «عصبة الشيوعيين» بحرية التفكير وجرأة التجربة في اطار الشمولية. أدينت قيادة العصبة وتصرفاتها في كوزوڤو، وأشار البعض إلي أصابع تيرانا ـ العاصمة الألبانية. وفصل محمود باكالي من منصبه، وأعيد ڤيلي ريڤا إلي منصبه، وعين علي ساكريي، وهو من قدامي المحاربين من الأنصار رئيساً للحكومة الاقليمية في كوزوڤو محتفظاً أيضاً بمنصبه في مجلس رئاسة «عصبة الشيوعيين». وقامت القيادة بعملية تطهير واسعة النطاق شملت مسئولي الحزب والحكومة وأساتذة الجامعة ومديريها. وقدم كل هؤلاء الذين اتهموا بالمشاركة في المظاهرات، بأي شكل من الأشكال، إلي المحاكمة، وحكم عليهم بالسجن بحد أقصى ١٥ سنة. وأقيمت محاكمات مماثلة في المناطق الألبانية بجمهورية مقدونيا.

وحاولت القيادة الفيدرالية في الحكومة البحث عن إجابة شافية عن مشاكل كوزوڤو، فقدمت المزيد من المساعدات المالية وتأكيدات بزيادة الاستثمارات، وشنت حملة ضد الفساد. لكن كل هذا لم يؤثر في موقف سكان كوزوڤو ولم يقض على سخطهم. فرغم انه لم يحدث تعبير عن سخطهم في السنتين التاليتين بمظاهرات السخط على مستوى ماحدث عام ١٩٨١، إلا انه بدت علامات واضحة على مقاومتهم السلبية للسلطة وعدم تعاونهم مع المسئولين في الحكومة والحزب. واستمرت محاكمات القوميين طوال عامي ١٩٨٢، ١٩٨٣. وجاءت الازمة الاقتصادية عام ١٩٨٣ لتحد من المخصصات والمساعدات التي وعدت بها القيادة، ولم تعد الجمهوريات الأخرى في الاتحاد الفيدرالي راغبة في مساعدة «إقليم متمرد» في وقت اضطرت فيه قياداتها إلي القيام باستقطاعات في المصروفات العامة بسبب الأزمة، أثرت على شعوبها نفسها.

فقد كان الأمل في الثمانينات أن تتمكن يوجوسلاڤيا من زيادة صادراتها من المنتجات الصناعية، لكن اضطرت الحكومة بعدها إلي اتخاذ عدة إجراءات متشددة لتدخل الدولة لتخفض التضخم الذي كان قد وصل آنذاك إلي ٣٠٪ : تخفيض العجز في ميزان المدفوعات، وتخفيض استهلاك الكهرباء، وانقاص بعض البضائع الاستهلاكية، وتخفيض الدينار بنسبة ٢٠٪. لكن كل هذه الإجراءات لم تحقق إلا نجاحاً ضئيلاً، على حساب

ارتفاع نسبة البطالة إلي رقم المليون الذي يشكل ١٨٪ من قوة العمل. ولم يحدث أي تغير في الفوارق بين الجمهوريات. على العكس من ذلك تماماً. فما أن حل عام ١٩٨٣، حتى كانت النسبة في دخل الفرد في كوزوڤو (أفقر اقليم)، وسلوڤينيا (أغنى منطقة) قد ارتفعت الي ١ : ٧٥.

ووصلت الديون عام ١٩٨٣ أيضاً إلي ٢٠ بليون دولار ووصلت اقساط الديون وفوائدها ٥ بلايين دولار سنوياً وهو ما يشكل نسبة ٢٣٪ من عائدات التصدير أو ٨٪ من الدخل القومي الكلي. و اضطرت يوجوسلاڤيا مرة أخرى إلي طلب المساعدات الغربية.

لكن يوجوسلاڤيا كانت تتجه إلي أزمة اقتصادية عامة عميقة، شاركت إلي حدً كبير في تعميق الخلافات القومية والعرقية والدينية، التي بدأت زخمها، وأدت إلي الحرب الأهلية.

(٢) .... القبائل

ترك هذا التاريخ آثاره علي البلقان بأسرها. فمنذ فترة ليست بالطويلة كانت مركز الصدام بين الامبراطوريات. وكان البحر الابيض المتوسط قلب العالم : مصر واليونان وروما، ثم الاسلام وحروب التدخل التي أطلق عليها اسم خطأ «الحروب الصليبية»، ثم الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الرومانية، ثم الامبراطورية - الروسية - القيصرية والامبراطورية البريطانية مع مصالحها في قناة السويس والطرق المؤدية إلي الهند.

تركت كل هذه الامبراطوريات آثارها، كبيرة كانت أم صغيرة، في المنطقة. وأهم النتائج أن البلقان التي كانت مسرحاً لهذا الصراع الدامي، أصبحت متخلفة نسبياً، فلم تحدث تلك الحركة الاقتصادية التي اجتاحت شمال أوربا وغربها، عندما نشأت مدن متجانسة كبير ة، انصهرت فيها الأقليات واختفت الاختلافات بينها. وبقايا هذه الامبراطوريات والصراعات، مازالت حية حتى يومنا هذا في البلقان، كأنما هي «حفريات» حية احتفظ بها التاريخ في هذه المنطقة، كما احتفظ تاريخ الأرض الجيولوجي بحفرياته بين الصخور لملايين السنين.

هناك على سبيل المثال، شعب صغير، اسمه «كوزو - فلاشى» Kugo - Vlaches ، أسلافه هم جنود الحاميات الرومانية في البلقان، ومازال أفراده يتحدثون لغة هي أقرب إلي لاتينية الامبراطورية الرومانية.

وهذا الجزء من غرب البلقان الذي أصبح يوجوسلاڤيا لما لا يزيد عن سبعة عقود - كما ذكرنا من قبل - يتكون إذن من عدة شعوب وقوميات وأقليات عرقية، وأديان متعددة، هي تلك التي نجت من المذابح وعمليات «التمشيط العرقي» اثناء الحرب العالمية الثانية، ومابعدها. وهناك أقلية مجرية كبيرة في اقليم ڤويڤودنيا «ذي الحكم الذاتي» في إطار جمهورية الصرب. *هناك ست «قبائل»*

١ـ الصرب
٢ـ الكروات
٣ـ السلوفينيون
وهؤلاء الثلاثة تكونت منهم الدولة اليوجوسلافية الأولي عام ١٩١٨.
٤ـ الألبان،
٥ـ المقدونيون،
٦ـ المسلمون.

و السلوفينيون هم أسهل قبائل البلقان تناولا، فعددهم لايزيد علي المليونين يعيشون في مساحة جبلية متماسكة بين ايطاليا والنمسا والمجر، وتاريخهم بسيط فقد كانوا من الفلاحين السلاف غزاهم «لوردات الحرب» الألمان والتجار الإيطاليون. فرضت الكاثوليكية عليهم بعد فترة قصيرة من اعتناقهم البروتستنتية تركت آثارها تحت السطح الكاثوليكي. وفي القرن التاسع عشر مع تطور التعليم، طوروا لغتهم السلوفينية وأصبحت خاصة بقوميتهم.

بحلول عام ١٩١٤، كانت مدنهم مزدهرة، فقاوموا التقلبات التالية لهذا القرن. وهم أكفاء اكثر من أي شعب آخر في يوجوسلافيا السابقة. وقد أعلنوا استقلالهم عام ١٩٩١ وكسبوا حربهم ضد بلغراد والجيش اليوجوسلافي، ويتمتعون الآن باستقلال دولتهم، متعاونين مع المانيا والنمسا وايطاليا كما كان الأمر في الماضي. وسينضمون إلي «أوربا المتحدة» ـ السوق الاوربية المشتركة دون مشاكل، ولمصلحة أوربا. وقد كانوا أول من أعلن استقلاله في جمهوريات يوجوسلافيا، وأداروا معركة الاستقلال بالكفاءة التي كانت متوقعة منهم.

أما **الكروات،** فمجرد النظر نظرة سريعة إلي خريطة بلدهم المعقّدة المتشابكة تبين مدى تعقد تاريخهم. وملمحهم الأساسي هو الكاثوليكية ـ الرومانية حيث تجد رمزها في قلب شعار دولتهم الجديدة : درع الصليبيين في حروبهم ضد الإسلام والاتراك.

يقول متخصصون في دراسة تاريخهم أن أصولهم من فارس القديمة، فاسمهم قريب من «الأكراد»، ووصلوا إلي البلقان مع انهيار الامبراطورية الرومانية، وأقاموا مملكتهم التي امتدت جنوباً لتضم البوسنة. تحالفوا مع المجر لمواجهة غزو العثمانيين، لكنهم فقدوا جزءاً كبيراً من أراضيهم، بينما أقام أهل البندقية مدناً تجارية على طول ساحل الادرياتيك، من بينها مدينة دوبروفنيك التي صمم الصرب علي تدميرها في الحرب الأهلية الأخيرة. وطلب المجريون ـ والكروات أن يكون امبراطور الهابسبورج في ڤيينا ملكهم. وكان الثمن تأسيس «كوردون دفاعي جنوبي» ـ «الحدود العسكرية»، حيث فقد بموجبه ملاك الأراضي الكروات حقوقهم. ولم يترك لكرواتيا إلا ما أطلق عليه «كرواتيا المدنية» ـ أي «بقية

البقية»! وحكم الكروات الفرع المجرى من الامبراطورية النمساوية - المجرية، حيث عين لهم حاكم يقيم في زغرب، العاصمة الكرواتية. لكن في أواخر القرن التاسع عشر، استعاد الكروات «الحدود العسكرية»، وبدأوا مناقشة كيفية بعث قوميتهم. هنا برز السؤال الكبير : من هم الكروات؟ ذلك أنهم كبيرو الشبه بالصرب : خاصة وهم يتحدثون نفس اللغة تقريباً. لكن الكروات وجدوا أرضية مشتركة، إذ حصلوا على تأييد البريطانيين والامريكيين ثم انضموا إلي الدولة اليوجوسلافية عام ١٩١٨. وتوحدت أراضي كرواتيا : زغرب، والشاطيء وأقاليم «الحدود العسكرية»، لكنهم في دولة يهيمن عليها الصرب. وسرعان مابدأت المشاكل والصدامات التي عرقلت مسار يوجوسلافيا منذ ذلك الحين، وحتى يومنا هذا.

والصرب ليس عندهم مشكلة تحديد هويتهم علي الاطلاق مثل الكروات.

فمنذ العصور الوسطى كانت إمارتهم تحتل مكانة كبيرة - كحليف للامبراطور الروماني (الشرقي) في القسطنطينية، وكمركز للحضارة الأرثوذكسية ذي قوة يحسد عليها. فكنائس هذه الحضارة وأديرتها موجودة حتى الآن عبر كل هذه السنين، وتعتبر من أعظمها خارج روسيا. لكن الصرب فقدت معركة «بلاكبيردز فيلد» Blackbirds Field الشهيرة في كوزوڤو عام ١٣٨٩ ضد الاتراك العثمانيين. وكانت النتيجة أن أصبحت الصرب جزءاً من الامبراطورية العثمانية لمدة خمسمائة عام.

تعرض الصرب للقنانة والمذابح، فهرب عدد منهم لاجئا إلي امبراطورية هابسبورج. هناك تعلموا أساليب الحياة الغربية، وصفوا لغتهم. وعندما عاد أحفادهم لعبوا دوراً في استعادة أمجاد الصرب.

وأتت الثورة ضد العثمانيين في أوائل القرن التاسع عشر، فأطاح بهم الصرب وأسسوا إمارة صغيرة. وبدأ قادتهم يراجعون الخسائر : كان الصرب الارثوذكس موجودين في دول مختلفة، فكيف يجتمع كل هؤلاء؟ هنا انبثقت فكرة «الصرب الكبرى» التي تضم كل الأراضي التي يعيش المتحدثون باللهجات السلافية الجنوبية، تحت حكم الصرب.

وخلال القرن التاسع عشر طوّروا جيشهم ودولتهم. وعشش العنف طويلاً في الحياة الصربية، وكان الحكم العثماني صعباً. ولم تكن هناك طبقة ارستقراطية ترسخ القيم التي رسختها تلك الطبقة في دول أوربا الغربية، لم تكن هناك غير طبقة متوسطة صغيرة، كان هناك ضباط الجيش والفلاحون، وكهنة الكنيسة الأورثونوكسية الذين كانوا قادة المجتمع. وتأسست الملكية، لكن العائلات الملكية كان افرادها يقتل بعضهم البعض، واشهر تلك الجرائم ولي العهد الذي قتل عام ١٩٠٣، ليس بطريقة عادية، ولكن بتقطيع أصابعه وهو يتعلق يائساً في إحدى نوافذ الطوابق المرتفعة. ولقد كانت هناك عادة صربية وحشية ظلت سائدة في بعض أقاليم الصرب حتى عام ١٩٤٥، أن يسير الرجل وقد علّق جماجم أعدائه

الذين قتلهم في حزامه.

لقد كسب الجيش الصربي معاركه، كسبها من جيرانه قبل وحتى من الامبراطورية النمساوية التي تغلب عليها مرتين في عام ١٩١٤ و١٩١٥. لهذا يفخر الصرب بتاريخ حافل، وماض كله انتصارات بقدر مافيه من معاناة.

وبعد عام ١٩١٨ وتأسيس الدولة اليوجوسلافية التي يسيطر عليها الصرب تحرك المسئولون الصرب إلي كرواتيا وأراضي «الأعداء الأجانب المهزومين». في القرن التاسع عشر «أنهى» الصرب الوجود الكبير والمحسوس للمسلمين في الصرب نفسها، وهدموا الجوامع. وعندما أخذت الصرب الآن المناطق الاسلامية في الجنوب، بما في ذلك اقليم كوزوڤو الذي شهد هزيمتهم القديمة على يد الاتراك العثمانيين، لم يفعلوا بها نفس الشيء بنفس القدر. هذا النوع من التصرفات والأفعال «يكسب» حروبا خاصة ضد امبراطوريات متهاوية «بلا أسنان» مثل الامبراطورية النمساوية - المجرية، لكن هل يمكن أن «تدير» دولة؟

هذا هو السؤال الذي طرح منذ تأسست يوجوسلافيا. لقد كانت «الحروب الداخلية» في ظل سيطرة الصرب حروباً رهيبة : فخلال الحرب العالمية الثانية واجهت حركات المقاومة ضد النازية والفاشية بعضها البعض، وقتل الكروات المدنيين الصرب، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أخذ الصرب بثأرهم وذبحوا الكروات.

هنا أمسك تيتو - على رأس الحزب الشيوعي - بدفة الأمور، في محاولة لإدارة البلاد كدولة متعددة القوميات والجماعات العرقية، ومحاصرة الصرب بجمهوريات ذات حكم ذاتي. آنذاك قال الصرب، أن الآخرين هربوا بجرائمهم، وقال غير الصرب أن الصرب هم الجنس المتميز، في ذلك الاتحاد الفيدرالي. وبعد أحد عشر عاماً فقط من وفاة تيتو تحاول القيادة الصربية لنفس الحزب الذي قاده تيتو ورفاقه أن تعيد الأمور إلي ماكانت عليه.

***

يأتي في : ذيل .. الصرب **أهل الجبل الأسود** الذين لا يزيد عددهم على نصف مليون نسمة. انهم صرب في كل شيء فيما عدا الاسم، وهم حلفاء دائمون للصرب، وجمهوريتهم هي المخرج الصربي إلي الادرياتيك. ونعتبر الجبل الأسود نفسها جزءاً من العائلة الصربية رغم اسمها الايطالي - مونتنجرو - ورغم الأقلية - العرقية الألبانية المتزايدة العدد التي تعيش بين ظهرانيها. وقد جعل منها تيتو جمهورية، وكانت أصغر جمهوريات الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي السابق وقد حاولت في بداية الأحداث أن تنأى بنفسها عن القبضة الصربية، لكن تغيرت القيادة كما حدث في الصرب نفسها، وأصبحت في قبضة قيادة شيوعية متطرفة - متشددة تحالفت مع قيادة سلوبودان ميلو سيڤيتش المماثلة.

ويأتي بعد ذلك المقدونيون إلي أقصى الجنوب. وعندما تكونت يوجوسلافيا، كان السكان السلاڤ الذين يسكنون مقدونيا الآن يتحدثون لغة بين الصربية والبلغارية. وهم مسيحيون

أرثوذكس، يعييش بينهم مسلمون كثيرون، وأقلية كبيرة من اليونانيين. ولفترة طويلة كان يطلق على منطقتهم «جنوب الصرب» . لكن تيتو منحهم درجة من الحكم الذاتي كجمهورية مقدونيا. وهي محاولة أخرى لموازنة التأثير الصربي. وثارت اليونان، ففكرة تأسيس مقدونيا «سلافية» بالنسبة لأثينا، فكرة غريبة، لأنها موطن الاسكندر الاكبر، وأكثر غرابة أن يتحدث لهجة سلافية وليس لغة يونانية كلاسيكية. لذا كانت أثينا مهتمة غاية الاهتمام بالتعليم، وباللغة على وجه الخصوص في مقدونيا اليونانية. ويرفض معظم المقدونيين «البديل اليوناني»، ويشعرون انهم سلاف، وإن لم يكن بيدهم الخيار بين الصرب وبلغاريا. وقد أعلنت مقدونيا استقلالها عن الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي، لكنها فقيرة للغاية لا تمتلك مقومات الدولة، وتقاوم أثينا استقلالها بكل الطرق وترفض اعتراف أوربا بها.

وإلي غرب مقدونيا وشمالها الغربي تقع القنبلة الموقوتة، الانفجار القادم بعد «البوسنة - الهرسك»، اقليم كوزوڤو ذو الاستقلال الذاتي التابع للصرب، موطن الألبان. ومعظم الالبان مسلمين كانوا أو غير مسلمين. و تبدو لغتهم بعيدة تماماً عن اللغات الاوربية، لكنها في حقيقة الأمر واحدة من عائلة اللغات الهندية - الأوربية وهي كذلك تضم أيضاً الانجليزية والسنسكريتية والايرانية. وعندما سقطت البلقان تحت الحكم العثماني في العصور الوسطى، قاومت ألبانيا حتى اللحظة الأخيرة، وبقي العثمانيون حتى اللحظة الأخيرة : عام ١٩١٣.

وقد تشتت الألبان بدرجة كبيرة في جنوب يوجوسلافيا. وتميز الألبان بمعدل ولادة مرتفع، وسرعان ما أن تحولت الاقلية الصغيرة جنوبي الصرب إلي احتلال مساحة كبيرة. وقد منحهم تيتو استقلالاً ذاتياً لمنطقة كوزوڤو. وقد كره الصرب هذا. وفي ظل نظام سلوبودان ميلوسيڤيتش، تم الانقضاض على حقوقهم، فتقلص «الحكم الذاتي» وألغي البرلمان، وفرض حظر التجول، ورفت موظفون، وزاد تواجد أفراد الجيش والبوليس الصربي. باختصار تعيش كوزوڤو في وضع أقرب إلي وضع الأحكام العرفية وإن لم تعلن رسمياً.

ويشكل الألبان مايقرب من ٩٠ إلي ٩٢٪ من سكان كوزوڤو. لكن الصرب تنكر عليهم حقوقهم المدنية التي يتمتع بأكثر منها الصرب في كرواتيا. وهي لذلك برميل بارود، وإمكانية الثورة الالبانية كبيرة، فالألبان شعب عنيد صلب الرأس، يتصل بألبانيا المجاورة بطرق جبلية وعرة، من السهل توصيل الأسلحة إليهم عبرها.

ثم هناك «البو سنيون» الذين تعرضوا بشكل عسكري - معاصر، لعمليات «الصربنة» الوحشية التي ميزت تاريخ الصرب منذ التحرير.

كانت البوسنة أصلاً، «أرض لا أحد» - كما يقال - منطقة أرض لا يملكها أحد تفصل بين الأرثوذكس والكاثوليك. ومع ذلك فقد كانت دولة مستقلة لفترة طويلة قبل الحكم

العثماني. أما ملحقها «الهرسك» فقد اكتسبت اسمها من كلمة ألمانية تعني لوردات الحرب الذين يحرسون المنطقة (١) . ولعبت البوسنة دورها في الحروب الصليبية، مثلها مثل كرواتيا. وفي أوقات بعينها كانت تحت تحكم كرواتيا، ولفترة قصيرة المجر. وحين احتل العثمانيون البوسنة، كان هناك صرب ارثوذكس، الي جانب عددمحدد من المسيحيين السلاف الهراطقة - «البوجوميليون» الذين كانوا مضطهدين من الكنيسة الأرثوذكسية. قال الاتراك «للبوجوميلين»: «ساندونا، نحن نساندكم». وهذا ماحدث، وكانت النتيجة تحولهم إلي الإسلام. وهذا هو أصل المسلمين السلاف من البوسنة.

وظلت البوسنة تحت الحكم التركي حتى عام ١٨٧٨ وحتى بعدها، ظلت تحت الحكم العثماني رسمياً لجيل آخر وإن احتلها الجيش النمساوي هذه الفترة. وأعاد الصرب والكروات تصنيف أنفسهم في البوسنة، لكن ثار جدال حول هوية المسلمين السلاف : فبالنسبة لصرب البوسنة (الذين يشكلون ثلث سكانها) كان المسلمون صرباً مرتدين، وبالنسبة لكروات البوسنة (الذين يشكلون حوالي خمس سكانها) كان هؤلاء المسلمون اناساً متخلفين عبطاً. ورغم أن سيراييڤو - العاصمة، أصبحت مجتمعاً مختلطا متعدد الاديان، إلا أن التقسيم الطائفي - العرقي - الديني ظل سائداً في المدن والقرى.

وقد أعطى تيتو «البوسنة - الهرسك» وضع الدولة - الأمة، كمحاولة أخرى للتخفيف من قوة الصرب وعنفوانهم ولكن بالنسبة لمعظم الصرب والكروات، لم يكن للبوسنة أي سبب للوجود كدولة مستقلة.

(٣) الحقائق

كانت يوجوسلاڤيا لعقود، أسهل الدول الشيوعية من ناحية الدخول بدون فيزات - وتحصل عليها عند دخولك أو تستطيع أن تشترى أية بضائع فقد كانت متوفرة: وإن الزائر ليعجب مما يبدو انه تحقق فيما بعد الحرب العالمية الثانية من الروابط بين شعوب لها هذا التاريخ الحافل، روابط بدا أنها فوق القومية. فى يوجوسلاڤيا كان هناك ست جمهوريات، وستة شعوب وأربع لغات وثلاثة أديان وأبجديتان.

لكن كان هناك حزب واحد - الحزب الشيوعى: «عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف» لكن تطبيق الشيوعية هنا كان مختلفا: لم تكن هناك حدود مغلقة كما كان الحال فى الدول الشيوعية الأخرى، واذا حاولت الخروج يطلق عليك الرصاص كما كان الحال فى «جمهورية ألمانيا الديمقراطية» التى أقيم «سور» حول الجزء المقابل لعاصمتها برلين، برلين الغربية. وكان هناك مهاجرون يوجوسلاف يرسلون أيضا نقودهم إلي أهليهم، كانت هناك تجربة خاصة بيوجوسلافيا، أطلق عليها فى أحيان كثيرة اسم «التيتوية» نسبة للماريشال تيتو: تجربة تلمست طريقها بمفردها فى عالم شيوعى أمسك به «الجمود العقائدى» وحب النظرية وتطبيقها بحذافيرها مهما كانت النتائج، وعبارة التجربة السوڤيتية«الأم» والدفاع

عنها بأى ثمن والوقوع فى نفس أخطائها وجرائمها. وقد ظهرت خصائص التجربة اليوجوسلافية منذ أيام النضال ضد النازية والفاشية، وظهر للعيان ولستالين وللغرب أن الشيوعيين اليوجوسلاف هم الذين يحررون بلدهم، وليس الجيش الأحمر، وانهم هم الذين يديرون بلدهم بعدها. وتأكد هذا بطرد تيتو من الكومنترن عام ١٩٤٨. تميزت هذه التجربة «بالتسيير الذاتى» وسيطرة العمال ولجانهم، لكنه فى النهاية هو نفس «النظام الشمولى». ونفس «نظام الحزب الواحد» الذى يسيِّر الدولة والمجتمْع. لكن هذه القبضة المركزية - الشمولية أفادت فى يوجوسلافيا فى قمع الانفجارات القومية لبناء مجتمع صناعى. لكن ما أن أطلقت الحريات لتشكيل الأحزاب حتى انفجر «القمقم القومي» وحدث ماحدث. ورغم كل صفات النظام الشيوعى فى يوجوسلافيا واختلافه عن الأنظمة الشيوعية الأخرى، إلا أننا نشهد أسوأ أزمة فى أوروبا منذ هتلر.

فما السبب ؟

هناك إجابات سريعة وخاطئة فى نفس الوقت على هذا السؤال.

الإجابة الأولى الخاطئة تقول: ان الشيوعية قد وضعت فى «قمقم» ذلك العداء وتلك الكراهية التى امتدت لما يقرب من ألف عام بين شعوب ماكان يوجوسلافيا. وكان العداء الرئيسى بين الصرب والكروات. وهنا يبدأ الخطأ. فتكمل الإجابة أن الصرب كانوا «الطيبين» قاوموا النازى وشغلوا ٣٠ فرقة ألمانية أثناء الحرب، بينما الكروات هم الفاشيست الذين قاموا بقتل الأقليات حولهم. وقد أقيمت دولتان أثناء الاحتلال الألمانى: واحدة فى كرواتيا والثانية فى الصرب. وكانت هناك مقاومة فى الصرب، «الشيتنك» الذين أخذوا بوجهة نظر معتدلة فى المقاومة تقول: «أن الدول الصغيرة التى تحتلها جيوش قوية عليها أن تنتظر لتحرر، ويمكن فى نفس الوقت أن تقوم بعمليات تخريب هادئة».

أما فى كرواتيا فقد كان الموقف أكثر تعقيدا. نَصَّبَ الألمان نظاماً فاشستياً فظيعاً. وفى عام ١٩٤١، عندما بدا أن المانيا تنتصر وتسحق الشعوب الأوروبية، تمشى معظم الكروات مع نظامهم الفاشى. لكن بعدها التفت المقاومة حول تيتيو وأنصاره الشيوعيين حتى وصل عددهم عام ١٩٤٣ إلى حوالى ١٥٠ ألف مقاتل. الحقائق تقول أن ثلاثة أرباعهم من الكروات. وبمعنى آخر يمكن القول أن المقاومة فى يوجوسلافيا كانت فى الحقيقة أقرب إلى حرب أهلية كرواتية.

وعندما خان الغرب البوسنة ورفض تدخل قواته فيها ذكر معلقون «أن المقاومة اليوجوسلافية أثناء الحرب شغلت ٣٠ فرقة ألمانية على الأقل، والحقائق تقول أن هذا ليس صحيحا أيضا. على الأقل عام ١٩٤٣، انشغلت أربع فرق ألمانية معظم أفرادها ليسوا من الجنود الشبان. فالألمان كانوا يرسلون بهؤلاء إلى جبهة القتال. بعد ذلك كان الألمان يرسلون القوات التى تحتاج إلى «راحة» بعد ستالينجراد. أما «الأنصار» فقد واجهوا

الايطاليين الذين استسلم عدد كبير منهم، أو الكروات الفاشيست الذين هربوا من الخدمة. وهذا لايلغى على الإطلاق عظمة المقاومة اليوجوسلافية ولا دورها الكبير المميز بين كل دول أوروبا الشرقية.

علينا إذن أن نخلص تفكيرنا من الأقوال الغريبة السريعة فى الصحف السارية ان الصرب شغلوا ٣٠ فرقة ألمانيه، حاربوها وظهورهم إلى الكروات والمسلمين الذين كانوا يطعنونهم من الخلف. كذلك رغم العداء التاريخي الطويل بين الصرب الارثوذكس والكروات الكاثوليك، إلا أن ثلثي صرب كرواتيا صوتوا من أجل استقلالها عن الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى، وهذا يعنى أنه لو ترك الصرب والكروات لحالهم، لاستطاعوا ترتيب علاقاتهم وأمورهم.

والإجابة الثانية الخاطئة تخص البوسنة. إذ تتردد أقوال في الغرب عن خطر انتشار «الأصولية الاسلامية» كما هو الحال فى ايران وبلاد أخرى. وأن سيراييڤو ستتحول إلى طهران أخرى تصدر «الفتاوى» المعادية للغرب. كتب عديدون هذا فى رأيى لتبرير «خيانة البوسنة» وعدم التدخل لإنقاذ المسلمين من براثن الصرب أمام الرأى العام. كتاب غربيون نفوا هذا القول مثل البروفيسور نورمان ستون استاذ التاريخ المعاصر بجامعة اكسفورد الذى كتب فى دراسة له نشرت بصحيفة الصنداى تايمز الأسبوعية (١٩٩٢/٨/٩) بالحرف الواحد: « مثل هذه المقولات كلام فارغ، وذلك أن مسلمى البوسنة يؤمنون بمذهب فى الإسلام من أعقل المذاهب وأكثرها اعتدالا بالنسبة للغرب. ولقد عرفت سيراييڤو عاصمة البوسنة على مدى قرون على أساس أنها أكثر الأماكن مدنية ومعقولية فى كل البلقان».

***

إذا كانت هذه الإجابات المتسرعة الخاطئة، فما هى الأسباب الحقيقية لما حدث فى يوجوسلافيا ؟

أولا : **هناك الشيوعية ونظامها الشمولى** الذى وضع الخلافات بين القوميات والجماعات العرقية ـ الإثنية فى قمقم. حلت المشكلة إلى حد كبير بالمركزية وجهاز الدولة ـ القوى ـ المخيف، مع ترتيبات دستورية موزعة ببراعة على القوميات.

تطورات آلية الحكم من خلال ذلك: مركزية، وجيش قوى، وبوليس سرى له سلطات واسعة، وفرضت الرقابة. وأعطى الحزب المسئولية فى الأقاليم لشخصيات دعمت مراكزها بالقسوة على أى خلاف قومى وعرقى. وكما حدث فى الدول الشيوعية الأخرى نمت فرق وجماعات متناحرة متقاتلة من الطفيليات فى السلطة والحزب، وحولهما. وفى مثل تلك الظروف تعتمد المسئولية على «أهل الثقة»، ويعنى هذا فى يوجوسلافيا على القوميات المحلية. بهذه الطريقة شكل «البوليس السرى» فى سولوڤينيا، شبكة من المخبرين. وعندما

حان الوقت، كانت هذه الشبكة ومسئوليها هى التى أعلنت استقلالها عام ١٩٩١.

وثانيا: هناك الاقتصاد اليوجوسلافى. لعب تيتو والشيوعيون اليوجوسلاف ورقة الغرب ببراعة، وأخذوا كل ما فيها من امكانيات. انتعشت السياحة وتدفق السياح الغربيون يملأون الفنادق، وكذلك تدفق رجال الأعمال لاستثمار أموالهم. ومع تدفق الاستثمارات الغربية حدث انفتاح تجاري، وبالمقابل كانت هناك درجة من الخصخصة ودرجة من تخفيف المركزية، ودرجة من التحرر الاقتصادى والمالى. ومع الخصخصة، وإن كانت محدودة جاء التضخم، عالجته حكومة بلغراد الفيدرالية بطبع بنكنوت، لكنها فقدت السيطرة على أسعار القطاع الخاص، وبدت أسعار القطاع الحكومى لافائدة منها. وكان للتضخم تأثيره فى زيادة «سخط الجماهير». وهى نفس التعبيرات الماركسية التى استخدمتها الحكومة لوصف الوضع.

وثالثا: الزعيم تيتو. كان شخصية سياسية عظيمة اكتسبت خبرة واسعة، وأضيف إلى هذا كله، أو قل ان هذا مادعم شخصيته، استقلاليته فى اتخاذ القرار. فالشيوعيون هم الذين يقودون مقاومة النازى، وعندما يصل الجيش الأحمر إلى الحدود، يذهب تيتو ليقابل ستالين، ويضع شروط دخول الجيش الأحمر، وبعدها لايلعب الجيش الأحمر دوراً فى السياسة الداخلية، كما فعل ستالين فى دول أوروبا الاشتراكية الأخرى. ولما يغضب عليه ستالين. يطرده من الكومنترن وتغضب عليه بذلك الأحزاب الشيوعية الحاكمة وغير الحاكمة. فيبنى بلده، ويعيش ويستمر، ويبدأ نجم يوجوسلافيا فى الصعود فى السياسة الخارجية ـ الدولية فى «حركة عدم الانحياز».

كان تيتو وأنصاره يعرفون الكثير عن بلدهم وقومياته. فعرفوا كيف يتعاملون معهم ويسيطرون على الصراعات ويمنعون الصدامات. وكان دستور ١٩٧٤ غاية فى الذكاء والحذق. فقد أعطى لكل قومية جمهوريتها، ومنحت كل أقلية داخلها دوراً كبيراً من خلال «عصبة الشيوعيين» وشبكتها الواسعة، ففى كرواتيا أعطيت للأقلية الصربية الوظائف كمديرى المصانع والقضاة وضباط البوليس. وفى الصرب قام بترقية الألبان والمجريين. ثم اعترف بالمسلمين كأمة من أمم يوجوسلافيا وأعطاهم جمهورية البوسنة ـ الهرسك. بهذه الآلية الذكية المعقدة احتفظ بكل شئ متوازناً تحت السيطرة. وعندما توفى عام ١٩٨٠، بدأ كل شئ يتفكك ويتحلل لينتهى بانتهاك الأعراض وضرب القناصة للأطفال فى سيراييفو.

وأسرع من هذه العملية أن العالم كله كان يمر بمرحلة جديدة: نهاية الأنظمة الشمولية بشكل عام وسقوط الأنظمة الشيوعية فى أوروبا الشرقية وفى الاتحاد الفيدرالى السوفييتى، واتجاه دول العالم أجمع نحو التحرر من القمع ليعبر كل شعب عن نفسه بالشكل الذى يراه مناسبا.

بعد وفاة تيتو أخذت أجنحة تتكون فى «عصبة الشيوعيين» فى كل جمهورية، وأخذ كل

جناح يبحث عن حلفاء وأنصار فى القوميين. آنذاك لم يكن الهدف هو تحطيم الاتحاد اليوجوسلافى، لكنه كان تثبيت أقدامهم داخل كل جمهورية وقومية. وقد تم احتواء هذه العملية حتى عام ١٩٩٠ فى إطار الآلية الدستورية. لكن انتاب السلوفينيين شعور بأن المسألة لاتستأهل كل ذلك، وأنه من الأفضل لهم أن يصبحوا جزءا من «أوروبا»، وبالذات من «السوق الأوروبية المشتركة». ويقول بعض المعلقين «ان سلوفينيا هددت بالاستقلال عن الاتحاد اليوجوسلافى دون أن تعنى ذلك حقاً». وقد فعلت كرواتيا نفس الشئ. ويبدو أن هذا القول صحيحاً إلى حد كبير، فقد تم ذلك الإعلان من كرواتيا وسلوفينيا، دون تنسيق بينهما، وبدون استعدادات أو ترتيبات، وأساساً دون إعداد «آلة الدولة» وأجهزتها.

هنا ظهرت المشكلة الحقيقية : مطالب فك المركزية والخصخصة من ناحية، ثم وضع «الجيش الوطنى اليوجوسلافىJNA» من ناحية أخرى. ولم يكن من الممكن تسوية هذه المسائل.

طلب الجيش من سلوفينيا وكرواتيا التراجع عن الاستقلال. وكان يشعر فى نفس الوقت بالقوة، ويمتلك امدادات هائلة من كل نوع. ووضع الجيش خطة مباشرة بعد إعلان الاستقلال، لمواجهة القوميتين. وعلى سبيل المثال وضع المدافع فى الجبال فوق المدن. وكان الجيش يمتلك دبابات متطورة للغاية.

فى نفس الوقت تقدم جناح سلوبودان ميلوسيفيتش فى «عصبة الشيوعيين» بالصرب ليحتل مكان القيادة. رفعوا شعارات قومية، أرادوا أن «يستعيدوا الصرب من يوجوسلافيا»، وأعلنوا أنهم «لايهضمون» المسلمين ولا مطالبهم.

كان معظم قادة الجيش من الصرب: لايعرفون الرحمة ولا يخشون الغرب الذين اعتبروه مفسداً ضعيفاً منقسماً على ذاته، وانه يمكنهم استغلال ذلك، وهو ماحدث بالفعل فى حالة المسلمين بالذات. وهكذا تحالف الجيش مع القيادة الصربية.

وكانت النتيجة متوقعة. حارب الجيش، لكن حالته المعنوية كانت فى الحضيض. فكان عليه أن يعتمد على قطاع الطرق والعصابات والمهربين والسفاحين المحليين ليقوموا بالأعمال القذرة.

***

(٤) الحرب

وفى أقل من عام تفككت يوجوسلافيا بطريقة لايمكن تداركها، حرب قتل فيها الرضع، وسجنت عائلات، بقسوة لامثيل لها، وتدمير هائل. حرب تسببت فى ٥ر٢ مليون لاجئ، وأظهر فيها التليفزيون صوراً رهيبة لمعسكرات اعتقال صربية سجن فيها آلاف المسلمين للقيام بما سمى «التمشيط العرقى». ظهروا على شاشات التليفزيون «جلد على عظم» ذكروا الغرب بمعسكرات اعتقال النازى.

بدأ تفكك تركة تيتو فى ٢٥ يونية ١٩٩١، اليوم الذى أعلنت فيه سلوڤينيا استقلالها. ورغم تدخل الجيش اليوجوسلافى السريع لايقاف الانفصال عن الاتحاد الفيدرالى، إلا أنه فشل. وبدت المواجهة العسكرية مرعبة آنذاك. لكن ماحدث بعد ذلك فاق الأحداث فى القسوة والوحشية. وخلال شهر واحد تفاوضت سلوڤينيا على استقلالها وعلى انسحاب الجيش الفيدرالى وكانت النتيجة سلسلة من ردود الأفعال من جانب الجمهوريات الأخرى والإقليمين اللذين يتمتعان بالاستقلال الذاتى والقوميات المختلفة، أشعلت العداوات والخصومات القديمة.

وأعلنت كرواتيا ثانى أكبر الجمهوريات اليوجوسلافية (٧ر٤ مليون نسمة) استقلالها فى نفس الوقت الذى أعلنت فيه سلوڤينيا. لكن المشكلة أن هناك عددا كبيرا من الصرب يعيش فى كرواتيا يصل إلى ٧٠٠ ألف. وكانت معظم أراضيهم قد ضمت إلي كرواتيا أيام تيتو لتحجيم الصرب. ورد الرئيس الصربى سلوبودان ميلوسيڤيتش بسرعة، فأرسل «الجيش اليوجوسلافى» وذكرصرب كرواتيا «بالصرب الكبرى». فكانت الحرب الأوروبية الأولى فى ٤٦ عاما بعد أن سكتت مدافع الحرب العالمية الثانية. لم يكن لدى الكروات طائرات وكان الجيش يتفوق فى العدد والعدة بكثير على الكروات ومع ذلك أبلوا بلاءً حسنا وقاتلوا بشجاعة، مستخدمين الأسلحة التى ينهبونها من الجيش ومن التى يشترونها من «السوق السوداء» العالمية. وقد ضرب الصرب مدينة ڤوكوڤار فى كرواتيا الشرقية بالمدفعية أربعة أشهر كاملة، قبل أن يحتلوها فى ١٦ نوفمبر١٩٩١.

وتم التوصل إلى وقف إطلاق النار، وهناك ١٤ ألفا من قوات حفظ السلام من ذوى البيريهات الزرقاء، التابعين للأمم المتحدة مرابطة هناك بعد أن انتهت الحرب هناك فى يناير ١٩٩٢، مخلفة وراءها عشرة آلاف قتيل، وعشرات القرى التى محيت من علي الخريطة، ودمرت كنوز ثقافية وأثرية فى مدينة دوبروڤينك، كما دمرت صناعة السياحة المزدهرة.

ويسيطر الصرب الآن على ثلث أراضى كرواتيا وقد انتهت الحرب فى كرواتيا رسميا باتفاقية وقف إطلاق النار، لكن القتال ينفجر هنا وهناك بين حين وآخر رغم أنف قوات الأمم المتحدة. ولم تتوقف عمليات «التمشيط العرقى» فى كرواتيا حتى الآن. ويريد الصرب الاحتفاظ بما تحت أيديهم من الأراضي التى استولوا عليها، معتمدين على أنه عند انعقاد «مؤتمر دولى» للتسوية، فسيقنن حيازتهم للأرض.

أما البوسنة والهرسك فقد كان معروفا أنها برميل بارود البلقان بسبب خليطها العرقى المتفجر. فالصرب والكروات والمسلمون يعيشون معا على أرضها متداخلين متشابكين بزيجات مشتركة مستقرة. وفى الاحصاء الأخير، كان المسلمون يشكلون ٧ر٤٣٪، والصرب ٤ر٣١٪ والكروات ٣ر ١٧٪ من السكان البالغ عددهم ٤ر٤ مليون نسمة. ورغم أن نسبة

حرب البوسنة لايزيد علي ثلث السكان، فقد أدعوا أنهم يملكون أكثر من ٦٠٪ من أرضها، وقد استولوا فى الحرب على ٧٠٪ من الأراضى. أحد الأسباب أن المتعلمين والمثقفين المسلمين يقطنون المدن. لكن هذا ليس مبرراً لادعاءات الصرب.

لكن المسلمين هيمنوا على الحياة الاجتماعية فى جمهورية البوسنة ـ الهرسك، وهم يخشون أن يشكل المسلمون أغلبية السكان فى نهاية القرن الحالى بسبب معدل مواليدهم العالى. ويدعون أن المسلمين سيقمعون الصرب ويؤسسون دولة أسلامية أصولية فى قلب أوربا.

وكان الأمل ألاتنتقل الحرب الأهلية التى اشتعلت فى كرواتيا إلى البوسنة ـ الهرسك، وتحدث الدبلوماسيون الأوربيون عن «توازن الخوف» ، وأن أهل البوسنة جميعاً قد أخذوا درساً مما عرضه التليفزيون من فظائع الحرب كرواتيا.

لكن الوضع انفجر فى البوسنة ـ الهرسك، وارتكب فى الحرب الأهلية هناك ماجعل الذى حدث فى كرواتيا « نزهة لا أكثر» وحدث الانفجار بعد استفتاء عام طرحتة حكومة البوسنة، وقاطع الصرب وحدهم الاستفتاء، وصوت المسلمون والكروات من أجل الاستقلال.

وبدأت الحرب فى الخامس من ابريل ١٩٩٢. وفى اليوم التالى اعترفت «الجماعة الاوربية» باستقلال البوسنة. لكن المسلمين لم يرتبوا أنفسهم، وكانوا فى حاجة ماسة إلى السلاح، فوجهوا نداءً إلى الأمم المتحدة برفع الحظر عن بيع السلاح ليوجوسلافيا السابقة على أساس أن الوضع يختلف. وكان الجيش اليوجوسلافى قد انسحب من البوسنة ـ الهرسك، لكنه ترك مصانع السلاح ومخازنه الهائلة تحت تصرف صرب البوسنة. وصرح أحد كبار ضباط الجيش السابقين ان ما تركه الجيش اليوجوسلافى للصرب من أسلحة وعقاد ومواد غذائية «يكفى لعشر سنوات قادمة».

ولا يعرف أحد عدد أفراد الميليشيات المسلحة فى البوسنة ـ الهرسك. فالميليشيات الصربية تحت القيادة العسكرية والسياسية لزعيم صرب البوسنة رادوفان كارادزيتش، وقد انضمت اليهم جماعات مسلحة من جمهورية الصرب نفسها: ويضم هؤلاء «النسور البيض» بقيادة زعيمهم المعروف باسمه الحركى «أركان»، و «الشيتينك» الذين يقودهم ڤوييسلاف سيسيلى، السياسى الصربى القومى المتعصب. ويردد زعماء جمهورية الصرب وعلى رأسهم سلوبودان ميلوسيفيش انه ليس لجمهورية الصرب أية علاقة بقيادة صرب البوسنة ولا بالحرب الأهلية الدائرة هناك ولا بالقظائع التى ترتكب ضد مسلمى البوسنة. وإن كان من المعروف أن حكومة صرب البوسنة تعمل بڤيللا فى بلغراد بالقرب من محل إقامة الرئيس الصربى ميلوسيفيش.

ركز الصرب على سيراييڤو العاصمة البوسنية حيث حوصر ٣٣٠ الفاً من سكانها على

مدى أربعة أشهر حتى كتابة هذه السطور (فى الاسبوع الأخير من أغسطس ١٩٩٢)، تحت ضرب المدفعية والمورتار المستمر. ومنذ أواخر يونية ١٩٩٢، أمنّت قوات الأمم المتحدة - المصرية والأوكرانية والفرنسية والكندية - مطار سيراييفو، لوصول معونات الإغاثة بالطائرات. ويدافع المسلمون عن عاصمتهم لأنهم يرون أن استمرار القتال يزيد من إمكانية التدخل العسكرى الخارجي وهذا هو أملهم الوحيد فى استعادة أراضيهم، لتصبح البوسنة دولة بمعنى الكلمة، وإلا قسّمت بين الصرب والكروات والمسلمين، فى مشاريع مقترحة حتى قبل أن يبدأ القتال.

ويجرى القتال على ٨٠٪ من أراضى جمهورية «البوسنة - الهرسك» . فالظاهر للعيان فى الأخبار أن الصرب وحدهم هم الذين يقاتلون ويستولون علي أراضى البوسنة، لكن الحقيقة ان كروات البوسنة يقاتلون بدورهم لانتزاع أراض أخرى، فهناك قوات حكومية كرواتية إلى جانب الميليشيات المحلية أراض أخرى، فهناك قوات حكومية كرواتية إلى جانب الميليشيات المحلية بقيادة الزعيم القومى الكرواتى (دوبروسلاف باراجا) تحارب للاستيلاء على أراض تدعى جمهورية كرواتيا أنها جزء منها، فى غرب البوسنة. ويقدر أن الكروات يسيطرون على ثلث أراضى البوسنة والهرسك (حتى الاسبوع الأول من أغسطس ١٩٩٢).

لقد هدمت فى القتال قرى بأكملها، وخربت مدن، وتقرر المصادر الحكومية البوسنية ان عدد القتلى والمفقودين من المسلمين يصل إلى ٥٠ الف شخص، (حتى الاسبوع الأول من أغسطس ١٩٩٢). وارتكبت فظائع لامثيل لها ضدهم وعلى نطاق واسع : «تمشيط عرقى» يستخدم القتل فى مذابح جماعية والاعتقال فى معسكرات، إلى جانب التعذيب واغتصاب النساء والفتيات .

وفى الاسبوع الأول من أغسطس استطاعت صحفية بريطانية شجاعة أن تصور فظاعات جرائم الصرب، عندما دخلت أحد معسكرات الاعتقال، صور ذكّرت الأوربيين بمعسكرات الاعتقال النازية، ونقلتها جميع تليفزيونات العالم عن التليفزيون البريطانى (أي . تى . فى ١٦٧). وشكّل هذا ضغطاً من الرأى العام العالمى على الحكومات الغربية، التى كانت تناقش فى نفس الوقت توجيه ضربة جديدة لصدام حسين فى العراق لحماية شيعة الجنوب.

وأنكر (رئيس الصرب) سلوبودان ميلوسيفتش، علاقة الصرب (٩٫٨ مليون نسمة) بما يحدث فى «البوسنة - الهرسك» أو انه ينسق مع قيادات صرب البوسنة أو صرب كرواتيا. ولاتصدق الأمم المتحدة مايقوله، لذا فرضت منذ مايو ١٩٩٢ عقوبات سياسية واقتصادية على الصرب لوقف الحرب فى البوسنة، فمنعت وصول الطائرات إلى مطار بلغراد وكذلك أوقف التبادل التجارى معها.

وتسيطر القيادة الصربية لميلوسيفتش علي كل وسائل الاعلام، ومازالت المعارضة هامشية. وقد أُعلن عن وحدة بين جمهورية الصرب «وجمهوريه الجبل الاسود» باسم «يوجوسلافيا الجديدة» بمعنى انها سترث الاتحاد الفيدرالى.

التدخل. عندما ذاعت الفظائع التى ارتكبتها الميليشيات الصربية ضد المسلمين، تشكل رأى عام عالمى يطالب الحكومات الغربية بالتدخل، كما تدخلت فى العراق لتحرير الكويت من قوات الغزو، ووافقت الأمم المتحدة واتخذ مجلس الأمن عدة قرارات، لكنها تمخضت كلها عن قوات ذات عدد محدود تحت علم الأمم المتحدة لحماية معونات الإغاثة من المواد الغذائية والطبية.

لماذا لم يتدخل الغرب لانقاذ مسلمى البوسنة كما تدخل لتحرير الكويت رغم توفر المناخ الدولى؟ هذا سؤال نخصص للإجابة عليه عدة صفحات من الكتاب، لكننا نكتفى هنا برأى اثنين من المتخصصين البريطانيين.

(١)- يجب أن نتدخل وهذه هى الطريقة:

رأى الجنرال السير انطونى فارار هو كلى <u>(رئيس الأركان السابق للقوات المتحالفة بشمال أوربا)</u>

اختيار مرافقة سيارات الإغاثة هو اختيار ضعيف، لأنه يقتصر على عدد محدود من الجنود لاتستطيون مواجهة أى هجوم، ولايقومون بأى قتال. ف «الكوريدور» المقترح من شاطئ الادرياتيكى حتى العاصمة سيراييفو يجرى بطول مايقرب من ١٦٠ كيلو متراً. وتتطلب حماية هذا الطريق ثلاث فرق على الأقل وغطاءاً جويا ومساندة بطائرات الهليكوبتر. وإلااستطاعت الميلشيات الصربية المحلية ضرب المهمة. وبالإضافة هناك التزام بحماية اللاجئين والدفاع عن سيراييفو الذى يتضمن احتلال التلال المحيطة بها وأى مهام دفاعية أخرى، إضافة إلى قوات مقاتلة، وتسهيلات للاتصالات والادارة؛ إن قوة بهذه الامكانيات الضئيلة لن تنفذ إلا مطالب الصرب. فإذا تم الدفاع عن منطقة سينتقلون إلى أخرى. هذه هى الخبرة التى استقيناها عند القيام بمثل هذه المهمات الصغيرة.

البديل الثانى : والمطلوب هو إظهار القوة والقدرة القتالية للميليشيات الصربية باستخدام القوة الجوية. ويمكن توجيه إنذار - على سبيل المثال - للذين يحاصرون العاصمة سيراييفو بسحب مدفعيتهم، واذا لم يستجيبوا تضرب مواقعهم من الجو. واذا لم يكن هذا كافيا فلابد من إنزال قوات محمولة جواً بأعداد كافية لمواجهة الميليشيات الصربية فى البوسنة - الهرسك، وأى قوات أخرى تحاول القيام بعمليات خلف الحدود الاقليمية المتفق عليها. والهدف من ذلك التدخل هو فرض السلام حتى يمكن تسوية الخلافات بالتفاوض.

ولاشك أن التهديد، ثم استخدام القوة عند الضرورة فكرة ستثير اعتراضات عديدة. فأولاً هى مهمة مكلفة ككل العمليات العسكرية الحديثة. ثم ماذا عن الخسائر الناتجة عن

مثل هذه العمليات : الخسائر بين المدنيين الذين قد يصابون بالخطأ عند القيام بغارات جوية مهما كانت محسوبة، الأسرى من الجنود والضباط والخسائر فى أرواحهم، والقتلى والجرحى من العسكريين؟ إن كل عملية عسكرية لها خسائرها. وإذا ما ترك الأمر كماهو عليه فسيستمر تدفق اللاجئين وقتل النسوة والأطفال والشيوخ، ومعسكرات الاعتقال.

من هنا نقول انه إذا كان يجب أن يكون هناك تدخل عسكرى فى البوسنة، فينبغى أن يكون شاملاً وكاملا. حينئذ يكون للتدخل العسكرى نصيبه من النجاح، وسيكون أرخص علي المدى البعيد.

(٢) التدخل المطلوب ومصاعبه

رأى ادوار كـــــاوان (بالمعهد الملكى للدراسات الدولية، وكان كولونيلاً وملحقاً عسكرياً بالسفارة البريطانية ببلغراد بين عامى١٩٨٧ و ١٩٩٠)

كثر الحديث فى الأيام الأخيرة عن التدخل العسكرى دولياً لمواجهة الهجوم الصربى على سيراييفو. وحقيقة الأمر انه يمكن توجيه استخدام القوة الجوية بطريقتين:

الأولى : بالسيطرة الجوية تستطيع القوات الغربية «تنظيف الفضاء فوق «البوسنة - الهرسك». وتملك القوات الجوية اليوجوسلافية أربعين طائرة قتالية (تضم أربع مقاتلات ميج ٢٩ اس)، ومعني هذا انه يمكن مواجهة أى تهديد من هذه القوة بسهولة. إن غارة جوية واحدة على قاعدة باتيميشا فى ضواحى العاصمة بلغراد، والقواعد الجوية الأخرى التى، تربض على أراضيها طائرات فى الخدمة، قادرة على شل حركة السلاح الجوى اليوجوسلافى.

والثانية : يمكن القيام بضربات جوية ضد تجمعات المدفعية والقوات الصربية حول سيراييفو، جورازده وبيهاك ومناطق القتال الأخرى. لكن هذا الأمر لن يتم بشكل فورى ومباشر كما يعتقد بعض السياسيين. فكما رأينا فى حرب الخليج، فمن الضرورى أن يكون هناك « موجهون جويون FAC على الأرض لتوجيه الطائرات إلى أهداف العدو بالضبط. ويكاد أن يكون من المستحيل تحديد التجمعات الصغيرة من الدبابات أو المدافع أو المورتار فى المناطق الجبلية حول سيراييفو، وستكون هناك مخاطر ضرب القوات الصديقة والمدنيين.

لكن إذا وضع «موجهون جويون» فلابد وأن يكون هناك قوات أرضية مختلفة. وعلينا أن نتحرك بسرعة فائقة، ذلك أنه ليس أمامنا سوى ١١ أسبوعيا [٢] قبل أن تسقط الثلوج الأولى فى سيراييفو فإذا لم يفز الصرب، ببساطة لأن ميزان القوى العسكرية ضدهم، فسيفوز لهم «الشتاء» بالحرب.

كذلك لابد من تأمين مناطق للاجئين. كيف ؟ أفضل ماتؤسس المناطق الآمنة حول المناطق الحضرية، حيث يعيش عدد كبير من الناس وهناك عدد كبير من البيوت، مع وجود

لبناء التحتى من طرق ومجار ومياه ومواصلات واتصالات وطائرات. وربما كانت أفضل لمناطق فى «البوسنة ـ الهرسك» هى الأربع مناطق التالية: سيراييڤو ، وبيهاك ، وتوزولا ، موستار.

ولحراسة هذه المناطق ينبغى تأسيس «الدفاع الدائرى» فى كل منها. ففى سيراييڤو يعتمد هذا الدفاع على أرض مرتفعة فى دائرة قطرها ٣٠ كيلومترا. وتغطى فرقة المدفعية لبريطانية المعتادة ثلاثة كيلومترات. وبحسبة بسيطة يتبين اننا فى حاجة إلى عشر فرق تساندها:

- موجهون جويون،
- ضباط مراقبة مدفعية
- أجهزة صوت مدفعية
- رادار لتحديد مواقع المورتار.
- مدفعية مضادة للتفجيرات

أما البناء العسكرى التحتى المطلوب لتأمين منطقة سيراييڤو وما حولها فسيكون ٣٠ ألف رجل. ويمكن استخدام قوات محلية إذا كانت جيدة التسليح والتدريب. وبشكل عام، فنحن نتحدث عن قوة قوامها مائة ألف رجل.

واذا تحدثنا عن «الكوريدورات»، فيبدو لنا مرة أخرى أن هناك سوء فهم. فمثل هذه الطرق لايمكن حمايتها بغطاء جوى فقط، وبعض السيارات المصفحة التى أعلن عنها. ولقد شاهدنا خلال حملة سلوڤينيا العام الماضى (١٩٩٢) مدى فعالية الأسلحة المضادة للدبابات، قريبة المدى. وفى أرض جبلية هناك حاجة إلي حماية من مجموعات مدفعية صغيرة على المرتفعات تراقب قوافل سيارات الإغاثة من بعد وتمنع أى تدخل من العدو. وستكون هناك حاجة إلي حماية قريبة أيضا بالسيارات المصفحة والمدفعية، ومع مصاحبة المهندسين للتخلص من الألغام، هذا إلي جانب غطاء قوى من طائرات هليوكوبتر مسلحة وطائرات مقاتلة ـ مهاجمة أرضية. ويمكن أن يمر «الكوريدور» الأرضى إلى سيراييڤو بالأراضى الكرواتية والتى تسيطر عليها القوات الكرواتية فيما عدا الكيلومترات الأخيرة يجب أن تمر بالأراضي التى يتم القتال عليها.

وقد يكون «الكوريدور الأرض» إلى بيهاك اكثر صعوبة، لكن السبب الأساسى فى ضرورة هذه «الطرق البرية» (الكوريدورات) انه ليس هناك مطارات قريبة يمكن أن تصل بها مواد الإغاثة إلي السكان المحاصرين. وفى أفضل الحالات، يمكن لمطار سيراييڤو أن يوفّر خُمْس احتياجات المدينة فى أى يوم.

والاحتياج العسكرى التالى، سيكون إرسال مراقبين ليتأكدوا من ان عمليات التمشيط العرقى لا تحدث على مستوى جماعِى بالنسبة لألبان كوزوڤو (مليونان) والاقلية الإثنية

المجرية في أقليم ڤويڤودينا (وعددهم نصف مليون) وكذا الأقليات الأخرى فى نفس الاقليم. يمكن ان يكون هؤلاء المراقبون من الأمم المتحدة أو «الجماعة الأوربية». وهناك حاجة لإرسال مراقبين إلى مقدونيا، ولقوة تمنع بلغراد من الاستيلاء على مقدونيا أو أجزاء منها مما سيؤدى إلى دخول اليونان وتركيا وبلغاريا والبانيا في دوامة الصراع القومى.

والأهم بطبيعة الحال هو التدخل فى البوسنة عسكرياً وانسانياً لانقاذ حياة اكبر عدد من المسلمين حتى يأتى الحظر مفعوله، وحتى تجلس الأطراف المعنية على مائدة المفاوضات ويعنى هذا أن هناك مزيدا من المتطلبات لمراقبة المقاطعة المفروضة على البوسنة، وخاصة على نهر الدانوب بسبب التقارير الواردة التى تقول آن سفنا تجارية تصل من «كومنولث الدول المستقله» ورومانيا، وتتضمن شحنات من البترول.

ولايمكن للتدخل العسكرى وحده أن يحل المشكلة السياسية، لانها معقدة ومتشعبة. وبعد أن حددت عدداً من الأهداف العسكرية، علينا أن نقرر اذا كنا : سنحافظ على السلام، أو نفرض السلام.

هوامش الباب الثانى

(١) الهرسك بالانجليزية تكتب هرسيجوڤينا Herzegovina والكلمة الألمانية التى اشتقت منها هى Herzog

(٢) كتب هذا المقال بصحيفة الصنداى تايمز الصادرة فى ٩ أغسطس عام ١٩٩٢.

الباب الثانى

الموزايك
القومي - العرقى - الدينى

الفصل الرابع : الصرب - أكبر أمة

الفصل الخامس : الشمال الكاثوليكى

الكروات - السلوڤونيون

الفصل السادس : الأمم الجديدة

١ - المسلمون

٢ - المقدونيون

٣ - أهل الجبل الأسود (مونتنجرو)

الفصل السابع : أكبر القوميات - الألبان

أ - ألبان كوزوڤو

ب - الألبان خارج كوزوڤو

الفصل الثامن : القوميات والأقليات الأخرى

الفصل الرابع

الصرب : أكبر أمـة

يشكل الصرب أكبر مجموعة قومية يوجوسلافية، إن كانوا يعتبرون أقلية بالنسبة لمجموع الأقليات الأخرى ويبلغ عددهم في يوجوسلافيا حوالي الثمانية ملايين من بين سكانها البالغ عددهم ٢٢٫٥ مليون نسمة، أي انهم يشكلون نسبة ٣٦٫٣٪(١) ويعيش الصرب أساساً في جمهورية الصرب في الاتحاد اليوجوسلافي الفيدرالي حيث يؤلفون ٨٥٫٤٪ من سكانها، دون أن نأخذ في الاعتبار إقليمي كوزوڤو وڤويڤودنيا اللذين يتمتعان بالحكم الذاتي في إطار جمهورية الصرب. وهم يؤلفون ١٣٫٢٪ في كوزوڤو و ٥٤٫٤٪ من سكان ڤويڤودنيا. ويعيش الصرب أيضاً خارج جمهوريتهم، في جمهورية البوسنة ـ الهرسك ويؤلفون ٣٢٪ من سكانها، وفي جمهورية كرواتيا حيث يشكلون ١١٪ من سكانها.

استقر الصرب في شبه جزيرة البلقان في القرن السابع الميلادي. وبحلول القرن الثاني عشر كان الصرب قد أسسوا دولتهم التي وصلت إلى ذروة قوتها في القرن الرابع عشر. كان إقليم كوزوڤو الحالي هو مقر تلك الدولة، ورغم ان أغلبيته اليوم من الألبان، إلا انه يظل من الناحية التاريخية والعاطفية جزءًا من «وطن الصرب». واحتل العثمانيون دولة الصرب فيما بين منتصف القرن الخامس عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر، فهاجرت أعداد كبيرة من الصرب، هرباً من الهيمنة العثمانية، شمالاً إلى ڤويڤودنيا التي كانت آنذاك جزءًا من المملكة المجرية في امبراطورية الها بسبورج. كانت ڤويڤودنيا عبارة عن موزايك قومي وعرقي يصل إلى عشر مجموعات ويرجع ذلك الي رغبة الامبراطورية الهابسبورجية في توطين مجموعات قومية ـ عرقية مختلفة هناك، لبناء حائط سكاني ضد العثمانيين.

خاض الصرب سلسلة من التمردات الدموية ضد الامبراطورية العثمانية، حتى منحوا استقلالهم داخل الامبراطورية عام ١٨١٥، إلى أن أصبحت دولتهم مستقلة رسمياً عام ١٨٧٨م، على أن وضع البوسنة ـ الهرسك، بما فيها من عدد كبير من الصرب، تحت حماية الهابسبورج عام ١٨٧٨، كان يعني ان تحرم الدولة الصربية الوليدة من التوسع إلى الشمال ـ الغربي، وأن تنظر بدلاً من ذلك جنوباً. وكان تصميم القوى الكبرى، وخاصة النمسا ـ المجر على أن تحتفظ الامبراطورية العثمانية بسنجاقية نوڤيبازار لمنع توحد دولة

الصرب مع إمارة الجبل الاسود، هو عامل آخر وجّه تطلعات الصرب إلى مقدونيا.

بعد حروب البلقان فى عامى ١٩١٢ و ١٩١٣، توسعت الصرب. وبعد اغتيال الأرشيدوق النمساوى فرانز فرديناند فى سيراييڤو عام ١٩١٤، تحدت الصرب انذاراً نمساوياً، فهاجمتها قوى المحور (المانيا والنمسا ـ المجر) مما أشعل شرارة الحرب العالمية الأولى. لكن بعد خسارة كبيرة فى الأرواح، بزغت الصرب كأحد المنتصرين عندما رسمت خريطة أوربا الجديدة بعد الحرب [٢].

كانت التجربة الاستقلالية التى خاضها الصرب، بالإضافة إلى دكونهم اكبر جماعة قومية، هى التى سمحت لهم بالسيطرة على المملكة الجديدة التى أصبحت معروفة باسم يوجوسلاڤيا. وأدى ذلك إلى حدوث توترات كبيرة وخاصة مع الكروات. وبذلت جهود جديدة فى الدولة الجديدة بعد الحرب العالمية الثانية للحد من سيطرة الصرب. كان ذلك هو الوضع على وجه الخصوص بعد سقوط الكسندر رانكوڤيتش عام ١٩٦٦[٣]. فى النهاية وضع دستور عام ١٩٧٤ الذى جعل من يوجوسلاڤيا اتحاداً فيدرالياً.

ومنذ عامى ١٩٨٨ و ١٩٨٩، حدث رد فعل جبرى مضاد وقوى للوضعية الخاصة لألبان كوزوڤو الذين بدأت صحوتهم القومية عام ١٩٨١. رأي كثير من الصرب أن ألبان كوزوڤو قد منحوا وضعاً خاصة تمييزياً فى الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلاڤى، ورأى البعض منهم أن هذا قد أثّر عليهم تأثيراً سيئاً، وعلى وجه الخصوص الوضع المميز الذى منح لكل من إقليم كوزوڤو وڤويڤودنيا طبقا لدستور ١٩٧٤م إذ منح كل منهما « الاستقلال الذاتى»، رغم انهما جزء من جمهورية الصرب وفى نفس الوقت ينظر كثير من الصرب على التفرقة بين الصرب وأهل الجبل الاسود وتمييزهم بجمهورية داخل الاتحاد على انه وضع مصطنع.

استيقظت المشاعر القومية الصربية، وتبنت قيادة «عصبة الشيوعيين» في الصرب هذه الأفكار وألزمت نفسها بإعادة تأكيد سيطرة الصرب على إقليمى كوزوڤو وڤويڤودنيا بالإضافة إلى جمهورية الجبل الاسود. وفى عام ١٩٨٨ حدثت مظاهرات حاشدة فى جمهورية الصرب، ومناطق أخرى من يوجوسلاڤيا تأييداً لتلك الشعارات. ونتيجة لهذا الضغط سقطت القيادات الحزبية المعارضة لهذا عام ١٩٨٨ ـ فى الاقليمين اللذين يتمتعان بالحكم الذاتى وفى جمهورية الجبل الأسود.

كان سلوبودان ميلوسيڤيش قد وصل إلى زعامة الحزب الحاكم ـ عصبة الشيوعين ـ فى الصرب، فاستغل هذه المشاعر القومية المتطرفة. ومع توفر الجو الديموقراطى الجديد، تمكنت التطلعات القومية الألبانية فى كوزوڤو من التحرك بعيداً عن دائرة المجموعات «اللاشرعية» التى كانت تعمل وسطها، ليصبح التيار الرئيسى فى الحياة السياسية والثقافية الألبانية. أنذاك ووجهت القيادة الصربية باحتمال مستقبلى بتصويت البان كوزوڤو

على استقلال إقليمهم بل وبحصولهم على حقوق متساوية مع جمهورية الصرب نفسها، فانقضت السلطات الصربية على الإقليم يؤيدها فى ذلك الرأى العام الصربى بسبب تصاعد النغمة القومية. بل وكانت أغلبية أحزاب المعارضة الجديدة أشد عداءً لألبان كوزوفو من ميلوسيفيتش «وعصبة الشيوعيين» العرب.

وليس هناك شك فى أن كوزوفو [٤] تشغل مكاناً فى الروح القومية الصربية يتحدى العقلانية فى أحيان كثيرة وأخذت الإنتليجينسيا الصربية والكنيسة الارثوذكسية الصربية ترددان منذ منتصف الثمانينات الإدعاءات بأن الأقلية الصربية فى إقليم كوزوفو - وهى أقلية داخل أقلية - تتعرض للقمع الألبانى. بل ولقد استخدمت كلمة «الجينوسيد» أى «الإبادة الجماعية» لوصف الفظائع التى ادعى حدوثها ضد الصرب. (٥) وفى مثل هذا الجو الملتهب كان أى حادث بين القوميتين يلقى بالوقود على نيران المشاعر القومية، وخاصة حوادث اغتصاب صربيات [٦] .

ومن المؤسف حقاً أن تلعب الإنتليجلينسيا الصربية مثل ذلك الدور البارز فى إشعال التوترات العرقية والقومية، والتى جاءت على هوى سياسيين مثل سلوبودان ميلوسيقيتش استغلوها فى أغراضهم الخاصة [٧] . فمقارنة بالوضع فى بلغاريا، رفضت االإنتليجينسيا البلغارية محاولة السلطات للتمييز القسرى ضد الأقلية - العرقيه - التركية، والأتراك هم العداء التقليديون - التاريخيون للبلغار.

عريضة مثقفى بلغراد (يناير ١٩٨٦)

ليس من الانصاف أن نرسم صورة المثقفين الصرب جميعاً على شاكلة دراسكوفيتش وسيسلى. والأصح أن نقول انه تم تهميش الخصوم الفكريين والايديولوجيين للمد الصاعد للقومية الصربية. وكانت عريضة «الإبادة الجماعية» هى إحدى النقاط الهامة فى هذه العملية. فقد اذيعت العريضة فى يناير ١٩٨٦ مشيرة إلى البداية الحقيقية لتصاعد موجة القومية الصربية التى كان سلوبودان ميلوسيفبتش ناجحاً فى اقتطافها. كانت هذه هى نقطة البدء فيما حدث فى يوجوسلافيا كلها فيما بعد. وقد وقع العريضة حوالى مائتى مثقف من مثقفى بلغراد البارزين يؤلفون قطاعاً ممثلاً لأنتيلچنسيا بلغراد والطبقات الوسطى فضمت المهنيين من كل الاتجاهات حتى لقد شملت كهنة ارثوذكس وضباط جيش متقاعدين. وأرسلت. إلى كافة المجالس الشعبية اليوجوسلافية والصربية على وجه الخصوص.

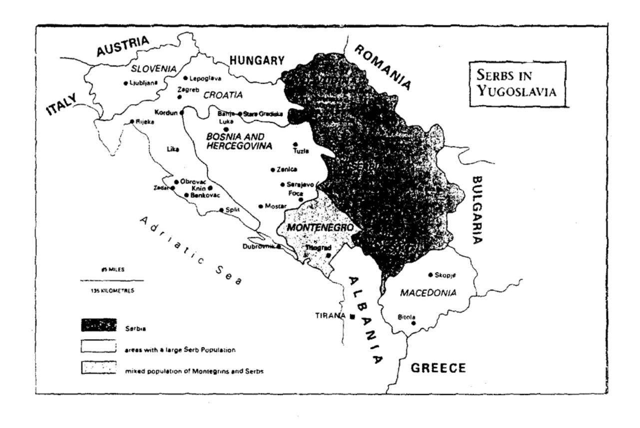
اتهمت العريضة السلطات بسماحها للخيانة «الوطنية» و «الابادة الجماعية» للأقلية الصربية فى إقليم الصربية فى إقليم كوزوفو [٨] والملفت للنظر أن من بين الموقعين زاجا جليوبوفيتش، وميها يلو ماركوفيتس، وليوبو تاديتش، وميلانى كانجرچا وكلهم رؤساء تحرير سابقين لمجلة «براكسيس» الماركسية النظرية التى كانت منبراً للمواقف التقدمية

عموما وللجرأة النظرية المعادية للجمود، وكانت تنتقد القومية المتطرفة بشدة. وفى أواخر الستينات شجب نفس رؤساء التحرير، وبشدة «الماسبوك * الكرواتى».

كانت التوقيعات على العريضة إشارة واضحة إلى سقوط المثقفين الصرب فى براثن القومية المتطرفة ضد القوميات الأخرى التى تشكل الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى، وكانت أيضاً إشارة إلى أن القومية الصربية أصبحت قوة فى السياسات اليوجوسلافية التى تقوم على توازن قومى - عرقى دقيق، وزيادة علي ذلك إشارة إلى أن هذه المشاعر القومية أصبحت تشمل الطيف السياسى الكامل للأنتيلجنسيا الصربية. وكانت العريضة نداءً واضحاً وصريحاً ليس فقط لحماية الأقلية الصربية فى إقليم كوزوڤو، ولكن أيضاً من أجل إجراء تغيير فى العلاقة بين الصرب وإقليمى كوزوڤو وڤويڤودنيا، ومن أجل الحد من «الاستقلال الذاتى» الذى منح لهما طبقاً لدستور ١٩٧٤.

ونتيجة لتصاعد المد القومى راجت أفكار تقول أن «جمهورية الجبل الاسود» وجمهورية البوسنة والهرسك» و «جمهورية مقدونيا» هى كيانات وأمم مصطنعة، وانها تعمل ضد مصلحة الأمة الصربية والنتيجة المنطقية هى تصاعد مدّ قومى مماثل بين القوميات الأخرى دفاعا عن النفس على الأقل. وأخذ المسئولون الصربيون يتصرفون بعنجهية رداً على الرأى العام العالمى. وعلى سبيل المثال اعتقل المسئولون الصربيون فى كوزوڤو واعتقلوا مراقبين دوليين لحقوق الانسان الذين جاءوا من «الفيدرالية الدولية لحقوق الانسان بهلسنكى» (٩).

وإلى جانب تصاعد القومية الصربية، والهيمنة السياسية لسلوبودان ميلوسيڤيتش، تدهورت موضوعية وسائل الاعلام الصربية والفيدرالية ببلغراد، وتحولت إلى وسائل دعاية لميلوسيڤيتش وأصبحت مسعورة فى موالاتها للصرب، حتى فى نشرات أخبار الاذاعة والتليفزيون. وكرد فعل، تحولت وسائل الاعلام فى جمهوريات الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى الأخرى إلى معاداة الصرب شيئاً فشيئاً وبالذات فى جمهوريتى سلوڤينيا وكرواتيا، لكنها لم تهبط إلى مستوى وسائل الاعلام الصربية، بما فى ذلك صحف ومجلات يوجوسلافية كانت رصينة ومعروفة بموضوعيتها وخدماتها الصحفية، مثل «بلغراد بوليتيكا» ومجلة «ين» الاسبوعية، بعد استيلاء ميلوسيڤيتش وجناحه على الجهاز السياسى الصربى فى النصف الثانى من الثمانينات. كانت المواد الإخبارية والتحليلية لوسائل الأعلام الصربية هستيرية مهيجة ساعدت على تأجيج المشاعر القومية الصربية وتوصيلها إلى حالة محمومة. ولقد اصتج صحفيو بلغراد على التلاعب الفج فى تحرير الصحف، فى ديسمبر ١٩٩٠، قبل اسبوع واحد من إعادة انتخاب سلوبودان ميلوسيفيتش رئيساً لجمهورية الصرب. فقد تظاهر صحفيون من «بوليتيكا» ومن محطات الراديو والتليفزيون الرئيسية ببلغراد احتجاجاً على طرد رؤساء التحرير.



الصرب فى يوجوسلافيا

كان الحزب الشيوعى الصربى - أي عصبة الشيوعيين - قد غيّر اسمه، وأطلق على نفسه «الحزب الاشتراكى الصربى» بقيادة ميلوسيفيتش، وحقق فوزا كبيرا فى الانتخابات العامة التى جرت فى ديسمبر ١٩٩٠، حيث حصل على ١٩٤ من ٢٥٠ مقعدا. وجاء حزب دراسكوفيتش «حركة النهضة الصربية» فى المركز الثاني وحصل على ١٩ مقعدا، وبذلك أعيد انتخاب ميلوسيفيتش رئيساً لجمهورية الصرب. هكذا ركب ميلوسيفيتش نمر القومية الصربية وأحكم سلطانه على وسائل الإعلام (١٠) . وكان فى هذا خراب يوجوسلافيا الاتحادية، بعد أن ظل هذا النمر فى قفصه منذ الحرب العالمية الثانية.

وأبدى ميلوسيفيتش موقفه بسرعة من الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى، فور إعادة انتخابه، فأصدر قراراً سرياً بإصدار غير قانونى لبنكنوت يوجوسلافيا قيمته ١٨ مليون دولار وهو مبلغ يصل إلى نصف القروض الممنوحة من بنوك الدولة. وندد «المجلس التنفيذى اليوجوسلافى» بذلك الإجراء الذى أجبر «البنك الوطنى اليوجوسلافى» على اتخاذ عدة إجراءات لمكافحته (١١) .

وفى ٣٠ يناير ١٩٩١، قامت مجموعة من شخصيات المعارضة الصربية، بتشكيل «المجلس الصربى العام للانقاذ الوطنى»الذى طالب بتوحيد يوجوسلفيا دون حدود بين جمهورياتها، وإما دولة صربية متحدة تضم الصرب، والجبل الأسود، والبوسنة - الهرسك، وأجزاء من مقدونيا (١٢). كانوا يريدون عملياً إقامة «الصرب الكبرى».

الصرب كأقليات

فى عام ١٩٨١، كان الصرب خارج جمهورية الصرب، يشكلون فى عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف نسبة أكبر من نسبتهم فى عدد السكان، تفيما عدا فى جمهورية الجبل الأسود (مونتيجرو) (١٣)، وكانت نسبة المنضمين الى الحزب فى كل جمهورية واقليم كما يلى (١٤) :

*واحد من كل أربعة من أهل الجبل الأسود.
*وواحد من كل ستة من الصرب فى جمهورية الصرب.
*وواحد من كل سبعة فى المقدونيين.
*وواحد من كل ثمانية فى البوسنة - الهرسك.
*وواحد من كل عشرة فى كرواتيا.
*وواحد من كل أحد عشر فى سلوفينيا.
*وواحد من كل اثنى عشر ممن هم من أصل - عرقى - مجرى.
*(ثم واحد من سبعة ممن يقولون عن أنفسهم أنهم يوجوسلاف وليس لهم علاقة بالقومية وغير ملتزمين عرقياً.

وكان أهل الصرب وأهل الجبل الأسود يشكلون عام ١٩٨١، أغلبية قيادة الجيش

«الوطني اليوجوسلافيJNA». وكان هذا عاملاً هاماً في الحرب الأهلية التي نشبت عام ١٩٩١. وبالمثل لايمكن إنكار نجاح «عصبة الشيوعيين» في الصرب وفي الجبل الأسود، وكان هذا عاملاً هاماً في بقائه واستمراره في السلطة في الصرب وحدها، إلى جانب استخدامه للمشاعر القومية المتطرفة وتحول قيادته بزعامة سلوبودان ميلوسيفيتش من الشيوعية إلى القومية في اللحظة الحاسمة.

صرب كوزوفو

كان لوضع الأقلية الصربية في كوزوفو تأثيره الكبير في تصاعد موجة القومية الصربية، ومع تصاعد الموجة تمت عدة تغييرات دستورية في الوضعية الاستقلالية للإقليم أدت إلى إجماله داخل جسم الجمهورية الصربية، وفرض حكم قمعي - بوليسي عليه. وأدى هذا في نفس الوقت إلى تغيّر الوضع القانوني للأقلية الصربية في كوزوفو لتصبح جزءاً من الأغلبية في الصرب.

على أن هجرة الصرب وأهالي الجبل الأسود من كوزوفو استمرت رغم هذه التغييرات، ورغم تصريحات القيادة السياسية بإعادة توطين الصرب في كوزوفو لمواجهة التواجد الألباني. وهناك مجموعة قومية صربية تطلق على نفسها اسم «بوزور» داخل كوزوفو نفسها، يقودها بوجدان كتسمان ومركزها إحدى ضواحي العاصمة بريستينا، تحاول أن تطبق هذه الأفكار، وهدفها تغيير بنية كوزوفو السكانية ليشكل الصرب ٥٠٪ منها (١٥). وتبدو هذه السياسات غير واقعية تماماً حتى مع إمكانية تطبيق اقتراح الحكومة الصربية بتوطين خمسين ألف صربي من منطقة «بانات» برومانيا في كوزوفو، وحقيقة الأمر أنها تبدو خطة خيالية للاستهلاك الداخلي. فحقيقة الأمر أن الصرب والألبان يهاجرون من كوزوفو لأسباب اقتصادية، بمثل مايهاجرون بسبب التوترات القومية - العرقية.

والحاصل أن ذلك الحكم العسكري المتشدد الذي تفرضه الأقلية الصربية على ألبان كوزوفو، هو وضع لايمكن أن يستمر إلى الأبد، كذلك فإن حل المشكلة بالشكل القديم مستحيل، ذلك أن كوزوفو تشكل جزءاً من الوجدان التاريخي للصرب. وحقيقة الأمر أن الوضع في كوزوفو هو برميل بارود قابل للتفجر في أي لحظة حيث يحمل الجميع السلاح.

صرب البوسنة - الهرسك

يشكل الصرب في جمهورية البوسنة - الهرسك مايزيد على ٣٠٪ من السكان وهم يؤلفون الأغلبية المطلقة في المناطق الشرقية من البوسنة والهرسك، وأغلبية مطلقة أو نسبية في أجزاء من غرب البوسنة (١٦). ويفسر لنا هذامسار الحرب الأهلية**

وعندما بدأت عملية التغيير في جمهوريات يوجوسلافيا، تأسس «الحزب الديمقراطي الصربي» SDS-BH بسيراييفو، وهذا الحزب فرع من القوة الحاشدة الرئيسية للصرب خارج جمهوريتهم، ألا وهو «الحزب الديمقراطي الصربي» بكرواتيا.

وهناك أيضا منظمة «البوسنة الفتاة»، وهى مجموعة أكثر راديكالية صربية فى البوسنة ـ الهرسك، وهى منظمة شبه عسكرية مسماة باسم المجموعة المسئولة عن اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند عام ١٩١٤. والمنظمة لها صلات لها بحزب «حركة النهضة الصربيةSPO بزعامج فوك دراسكوفيتش. لكن عدد أعضاء المنظمة صغير ونفوذها ضئيل.

ولقد كان موقف حرب البوسنة ـ الهرسك واضحاً من خلال مقابلة أجراها زعيم «الحزب الديمقراطى الصربى» رادوفان كارايچيتش مع مجلة «رين» الأسبوعية البلغرادية، حدد فيها أهداف حرب البوسنة ـ والهرسك، بالإدعاءات التالي(١٧).

* صرب البوسنة ـ الهرسك هم جزء لايتجزأ من الأمة الصربية.

* أجبر الصرب عموماً على تقديم تنازلات أكثر من أى أمة أخرى فى يوجوسلافيا مابعد الحرب العالمية الثانية.

* كان ذلك يعنى أن صرب البوسنة ـ الهرسك قد تنازلوا عن ثقافتهم الوطنية، وتقاليدهم، وحتى أسماءهم.

* وكان يعنى أيضاً إدارة ظهورهم لكنيستهم الأرثوذكسية الصربية التى أصبحت فى حالة خراب.

* ونتج عن ذلك «نفى» عدة مئات الألاف من صرب البوسنة ـ الهرسك.

*حدثت تقسيمات مقصودة للمناطق التى يعيش فيها لإضعافها [وأعطى مثالا على ذلك بتقسيم منطقة «أوجرن ـ الصربية المتكاملة المحددة جيدا، بين خمس بلديات].

وأعلن عن تشكيل «المجلس الوطنى الصربى» «للحزب الديمقراطى الصربى» بالبوسنة ـ الهرسك، وذكر المتحدث باسم الحزب أن هذا المجلس يضم كل الصرب فى يوجوسلافيا، وأنه سيجتمع ببابينالوكا يوم ١٣ أكتوبر. وأعلن الحزب عن قلقه من عدم كفاية «الدفاع الذاتى» للصرب فى حالة قيام حرب أهلية فى المستقبل.

وظهر تأييد صرب ا لبوسنة ـ والهرسك للحزب الديمقراطى وأفكاره التى أعلن عنها، عندما أعلن عن نتائج الانتخابات العامة التى جرت فى ديسمبر ١٩٩٠. فقد فاز الحزب بـ ٧٢ مقعدا من ٨٥ مقعدا فاز فيها صرب البوسنة ـ الهرسك فى مجلس البرلمان اللذين يحتويان على ٢٤٠ مقعدا(١٨) .

كانت هناك بعض العلامات المشجعة على التقارب بين القوميات الثلاث فى جمهورية البوسنة ـ الهرسك (المسلمون والصرب والكروات) بعد إجراء الانتخابات. فتحدث الزعيمان المسلمان علي عزت بجوفيتش ومحمد فيلبوفيتش فى اجتماع تأسيس «الحزب الديمقراطى الصربى» فرحبا به. لكن كل هذا راح، وجاءت تقارير تقول أن الصرب بدأوا فى الخروج من البوسنة والهرسك بعد مضايقات من الكروات القاطنين فى المناطق الغربية من الجمهورية(١٩) .

صرب كرواتيا

يؤلف الصرب حوالى ١٢٪ من سكان كرواتيا، طبقاً لإحصاء عام ١٩٨١. ويتركزون فى مناطق على حدود جمهورية البوسنة ـ الهرسك، وكانوا قد هاجروا من البوسنة ـ الهرسك إلى هذه المناطق فى القرن السابع عشر الميلادى هروباً من الغزو العثمانى. وساعدت عقيدتهم الأرثوذكسية على أن يبقوا متمايزين عن جيرانهم الكروات الكاثوليك. ويتولى صرب كرواتيا عددا من المناصب الهامة أكبر من نسبتهم العامة، وخاصة بعد نهاية «الماسبوك الكرواتى». وذكر فرانچو تودچمان رئيس جمهورية كرواتيا أنه «قبل انتخابات ابريل ١٩٩٠ مباشرة كان صرب كرواتيا يشكلون ٤٠٪ من فرع الحزب الشيوعى ـ عصبة الشيوعيين ـ فى كرواتيا، وثمانية رؤساء تحرير براديو زغرب من بين كل إثنى عشر، كما يشكلون ٦٠٪ من قوة بوليس كرواتيا(٢٠).

وعندما وصل التغيير السياسى إلي كرواتيا فى أواخر عام ١٩٨٩ وأوائل عام ١٩٩٠، رأى صرب كرواتيا أنهم مواجهون بقومية كرواتية متيقظة، بدا أن الحزب الحاكم ـ عصبة الشيوعيين عاجز عن مقاومتها. عندئذ بدأوا ينظمون أنفسهم، خاصة بعد أن بدأت الأحزاب الكرواتية تتشكل، واعتقدوا أن هناك حركة تطهير صربية فى المستويات العليا للحزب الشيوعى الكرواتى الحاكم.

ومرة أخرى استخدمت كوزوڤو كرمز «للصربنة» فحيث أصبحت القيادة الكرواتية غير مستعدة باضطراد ـ لتأييد السياسات الصربية القمعية فى كوزوڤو، بدأ توزيع «رسائل الحقيقة من أبناء كوردون»، وهؤلاء كانوا مستوطنين صربا انتقلوا من اقليم «كوردون» بكوزوڤو إلى ڤويڤودنيا: وجهت الدعوة إلى هؤلاء للتجمع يوم ٤ فبراير ١٩٩٠ لكى تروى لهم «حقيقة مايحدث فى كوزوڤو». وفى الاجتماع تكونت جمعية «زورا» الثقافية الصربية، وتكونت جمعية شبيهة فى توبوشك أطلق عليها اسم «شافل ماركالى»، وفى اجتماع آخر حضره رئيس جمعية «زورا» إيوڤان أوباتسيتس ولد حزب جديد، روحه المحركة هو زعيم صرب كرواتيا بغير منازع الدكتور ايوڤان راسكوڤيتش الطبيب النفسى. وفى فبراير ١٩٩٠ تأسس «الحزب الديمقراطى الصربى»SDS فى كنين أحد معاقل صرب كرواتيا، واختير لزعامته ايوڤان راسكوڤيتش، كذلك اختير أوباتسيتس نائبا للرئيس.

وأثناء الحملة الانتخابية تعهد تودچمان الذى فاز وأصبح رئيساً لجمهورية كرواتيا، بأن يمنح صرب كرواتيا «استقلالية ثقافية وليس استقلالية سياسية». وبعد فوزه عرض على راشكوڤيتش منصب نائب رئيس البرلمان الكرواتى، فرفض وذهب المنصب إلى صربى آخر هو شيموراينش وهو صربى كان فى قيادة الحزب. لكن ذلك لم يخفف من مخاوف الصرب، وقد فشل الرئيس الكرواتى تودجمان في أن ينظر إليه كرئيس لكرواتيا بدلاً من النظر إليه كرئيس للكروات. وفشل فى زيارة مناطق الصرب فى كرواتيا بعد الانتخابات. ومما زاد من

مخاوف الصرب اتخاذ جمهورية كرواتيا لعلم جديد ورموز قومية أخرى. وترك كثير من الصرب قوة البوليس، ليحل محلهم كروات بنبرات جديدة (٢١)، وأحيا كل ذلك عند الصرب ذكريات الحرب العالميةالثانية *** وسرعان مازادت التوترات فى صيف ١٩٩٠ وتفجر الوضع فى كنين.

التوتر فى كنين

ظلت كنين لبضع سنوات مركزا للتوترات القومية - العرقية بين الصرب والكروات، ويستمع صرب كرواتيا عموماً، وصرب كنين على وجه الخصوص، إلى وسائل إعلام بلغراد. ومع صعود سلوبودان ميلوسيفيتش وبداية إسفاف وسائل الإعلام انحطت إلى مستوى الأكاذيب لبث النعرات الطائفية والعرقية. وكانت إحدي النقاط الجوهرية فى حملة إدعاءات بلغراد القول بأن الرئيس الكرواتى من «الاوستاشا» وانه يخطط لإبادة صرب كرواتيا «إبادة جماعية». صحيح أن صحافة كرواتيا لم تكن موضوعية تماما، لكنها كانت دائمة الهجوم والانتقاد لجمهورية الصرب وقيادتها ولصرب كرواتيا.

وفى أواخر يوليو ١٩٩٠، قام «المجلس الوطنى الصربى» وهو برلمان غير رسمى لصرب كرواتيا، بالإعلان عن «الاستقلال الذاتى» لصرب كرواتيا. وفى أول أغسطس دعا السياسيون الصرب إلى إجراء استفتاء على «الاستقلال الذاتى» لصرب كرواتيا، على أن يكون فى المناطق ذات الكثافة السكانية الصربية. وفى الثالث من أغسطس منعت السلطات الكرواتية إجراء هذا الإستفتاء، على أن الصرب أصروا عليه. استفز هذا السلطات الكرواتية فأمرت بإزالة كل اللافتات المكتوبة بالحروف السيريلية التى يستخدمها الصرب. وارتفعت حرارة المشاعر القومية فأخذت جماعات من المدنيين الصرب المسلحين تجول شوارع كنين - بتكوفاتس يومى ١٦ - ١٨ أغسطس، بتواطؤ مع ضباط فيلق للجيش اليوجوسلافى يهيمن عليه الصرب، كان متواجداً بالمنطقة. ولفترة قصيرة انتقلت السيطرة على تلك المناطق إلى قوات صربية - غير نظامية - ميليشيات. وبدا أن الحرب الأهلية آتية لاريب فيها. لكن الحقيقة انها كانت مجرد «بروفة» لما هو آت فقد كانت الجوانب كلها تتسلح علناً. فقال چيلينبابا نائب كنين فى اجتماع عام فى أوائل أغسطس ١٩٩٠ : «ان صرب كرواتيا يتسلحون، وسيشكلون قريباً «فيلق صربى دينارى» لقلب حكومة « «الأوستاشا»(٢٢).

وصمم صرب كرواتيا على إجراء استفتائهم، بين ١٩ أغسطس والثاني من سبتمبر، فوزعت بطاقات تقول: «الاستقلال الذاتى لصرب كرواتيا: نعم أم لا»، وأدعى الصرب ان المقصود بهذه الصيغة المبهمة هو «الاستقلال الثقافى» فقط، على أساس أن تستخدم المدارس الصربية الحروف السيريلية وتدرس تاريخ الصرب، وان تقوم محطة تليفزيون بخدمة خاصة لمنطقة كينين - بنكوفاتس، وليكا وكوردون، وبانيا، وسلافونيا. أما إذا تحولت

يوجوسلافيا نفسها إلى كونفيدرالية، فإن هذا الاستفتاء يكون حول «الاستقلال الذاتى» الاقليمى.

رفضت السلطات الكرواتية ذلك الاستفتاء منذ البداية وأمرت بتخفيض تسليح وحدات احتياطى البوليس بنسبة ٦٠٪ فى المناطق ذات الكثافة السكانية الصربية. كان ذلك هو الشرارة التى أطلقت حوادث شغب صربية يومى ٨و٩ سبتمبر ١٩٩٠ شارك فيها عدة مئات من الصرب فى بيترينيا، وفى دفورنا أوقى، وبونى لاباتس، بالقرب من كنين. استولى الذين شاركوا فى الحوادث على كميات من الأسلحة وقطعوا الخطوط التليفونية. وفى يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٩٠، ذهبت مجموعة من صرب بيترينيا إلى الثكنات مطالبة بحماية «الجيش الوطنى اليوجوسلافى». وأعلن وزير داخلية كرواتيا أن هذه المجموعة أطلقت النار على البوليس.

ومرة أخرى حام شبح الحرب الأهلية، وأذيعت بيانات من راديو كنين على تشكيل «مجلس المقاومة القومى»، وذكرت تلك البيانات أن «الأمة الصربية لاتهب ضد الأمة الكرواتية، لكنها ستقاوم «الأوستاشا» حتى آخر قطرة دم. ومرة أخرى أثارت وسائل إعلام بلغراد الخواطر بإعلانها أن السلطات فى منطقة شيشاك قد ألقت القبض على ٣٦٠ من الصرب الأبرياء، ثم ظهر أن السلطات قد ألقت القبض على ٢٢ شخصاً فقط، وأفرج عن ١٩ منهم على الفور[٢٣] .

وأعلن صرب كرواتيا عن نتيجة الاستفتاء فى أول أكتوبر ١٩٩٠، اشترك فيه ٥٦٧٣١٧ صربيا صوت منهم ٥٦٧١٢٧ مع «الاستقلال الذاتى» و ١٤٤ ضده. وكان هناك ٤٦ صوتا باطلة. ومنع البوليس الكرواتى الاستفتاء فى عدة مناطق فلم يستطع ١٥٠ ألفاً التصويت. وأعلن عمدة كنين ميلان بابيتش «الاستقلال الذاتى» لصرب كرواتيا فى الأراضى العرقية - والتاريخية التى يقطنونها داخل حدود جمهورية كرواتيا بصفتها وحدة فيدرالية فى اتحاد الجمهوريات الفيدرالية اليوجوسلافية الاشتراكية SFRJ.

وأعلنت المجالس البلدية ذات الأغلبية الصربية فى كرواتيا، يوم ١٢ ديسمبر ١٩٩٠ اتفاقها على مشروع قانون أعلن أن مجموعة بلديات دلماسيا الشمالية وليكا «هى منطقة صربية مستقلة» أى أنها تشكل «محافظة»[٢٤] . وكما هو متوقع ألغت المحكمة الدستورية الكرواتية هذا القرار، ومع ذلك لم يرتدع صرب كرواتيا وأصروا على قرارهم. وفى ٤ يناير ١٩٩١ أعلنت المناطق الصربية فى كرواتيا عن تشكيل سكرتارية للشئون الداخلية[٢٥] وفى ٢٦ يناير أعلن راشكوفيتش عن نية تأسيس «المجلس الصربى فى كرواتيا» يضم مندوباً عن كل خمسة آلاف صربى يضاف إليهم ممثلون عن الكنيسة الأرثوذكسية الصربية[٢٦]. ورغم إصدار سلطات بلغراد الفيدرالية قرارا بمنع تشكيل مجموعات مسلحة خارج الجيش، إلا أن صرب كرواتيا لم ينفذوه. هكذا كان الصرب يسيرون فى اتجاه الحرب

الأهلية. فصرب كرواتيا طالبوا - ونفذوا - ما أنكرته سلطات جمهورية الصرب ألبان كوزوفو، رغم أنهم أكثر عدداً بكثير.

يبقى سؤال هام: ماهى العلاقة بين السلطات الحاكمة فى جمهورية الصرب، وصرب كرواتيا ؟ ماهى العلاقة بين ميلوسيفيتش وراشكوفيتش ؟ المؤكد أن هناك علاقة قوية والمؤكد أنه يجرى تنسيق، فكل الدلائل والأحداث تشير إلى ذلك. ويبدو هذا فى تصريحات صادرة عن الجانبين بين حين وآخر فراشكوفيتش يعتبر ان «ميلوشيعيش مقال لكل ماهو صربى صميم» وميلوفيتش يصرح بانه إذا تحولت يوجوسلافيا الي كونفدرالية فإنه ينبغي «إعادة النظر فى الحدود» (٢٨) والإشارة هنا واضحة وصريحة «الصرب العظمى» . تلك المناطق من كرواتيا، والبوسنة - الهرسك التى يشكل الصرب أغلبية سكانها، وإن كان يسكنها اعداد كبيرة أيضاً من المسلمين والكروات. وهذا هو فى الحقيقة الهدف الحقيقى للصرب من وراء الحرب الأهلية. فعندما تسكت المدافع تكون قد وضعت يدها على الأراضى التى ستطالب بأن تضم عليها، وهذا غير واضح فى غبار المعارك الطاحنة الدائرة.

وفي ٥ يناير ١٩٩١، قدم سيمو راچيتش» استقالته، وكان الصربى الوحيد الباقى فى منصب عالٍ فى جمهورية كرواتيا، مشتكياً من الهيمنة الكرواتية (٢٩) . كان كل فريق يقف الآن مستعداً فى خندقه.

هوامش الفصل الرابع:

(١) الاحصائيات السكانية الواردة فى هذا الفصل والفصول الأخرى نقلا عن الإحصاء العام الرسمى للسكان لعام ١٩٨١.

(٢) Fred Singlteton: A Short Historey of the Yogoslav Peoples - P.105.

(٣) كان ألكسندر رانكوفيتش - وهو صربى - نائبا لرئيس يوجوسلافيا ومديراً لبوليس أمن الدولة، أى الرجل القوى فى الدولة.

(٤) يبلغ عدد سكان كوزوفو المليونين. وقد أعاد الصرب تسميته عام ١٩٩٠، فأطلقوا عليه اسم «كوزوفو ميتوهيا»، لتأكيد الإدعاءات الصربية على ذلك الإقليم.

(٥) كانت أكثر تلك القصص ذيوعا، هى قضية چورچى مارتينوفيتش الذى إدعى فى مايو ١٩٨٥ أن مهاجميه ألبان دفعوا بزجاجة بيرة فى إسته.

(٦) أعد أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية - الصربية فى ١٤ سبتمبر ١٩٨٨ (الفاييننشيال تايمز اليومية البريطانية فى ١٩٨٨/٩/١٥).

(٧) كان هذا هو الاتجاه العام للمثقفين الصرب. وهناك مثلان واضحان: الروائى المشهو فوك دراسكوفيتش زعيم «حركة النهضة الصربية»، وقد وصل فى تطرفه القومى ليس فقط ضد الألبان فى كوزوفو، ولكن أيضاً ضد جمهورية مقدونيا إحدى جمهوريات الأتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى التى يصفها بأنها «جنوب الصرب» وهو بذلك يضرب علي وتيرة «الصرب الكبرى» التى يحلم بها القوميون الصرب بعودتها إلي ماكانت عليه قبل الحرب العالمية الثانية. أما المثل الثانى فهو فواسلاف سيسكى، وهو

منشق صربي حكم عليه بالسجن عام ١٩٨٤ في سيراييفو لمدة سبع سنوات لموقفه الشجاع ضد السلطات الشمولية المحلية. على انه منذ الإفراج عنه كشف عن نفسه كقومي متطرف، وكزعيم «لحركة الشيتنيك الصربية» التي لها آراء مثل آراء دراسكوفيتش فيما يخص القومية الصربية والصرب الكبرى.

(٨) MICHELLE LEE - THE END OF ANERA (LABOUR FOCUS ON EASTERN EUROPE) VOL.8 No-3, LONDON, NOV.86

(٩) النشرة الإخبارية اليومية للإذاعة البريطانيةSWB EE/0864 B8 الصادرة يوم ١٩٩٠/٩/٨ نقلا عن Vienna Hume Service الصادرة يوم ١٩٩٠/٩/٦.

(١٠) الانترناشيونال هيرالد تريبيون - الصحيفة اليومية الأمريكية - الطبعة الدولية - ١٩٩٠/١٢/٢٨.

(١١) النشرة الإخبارية للاذاعة البريطانية SWB EE/0965 B12 الصادرة في ١٩٩١/٢/٢ نقلا عن تانيوج اليوجوسلافية في ١٩٩١/١/٧.

(١٢) نشرة الإذاعة البريطانية SWB EE/0986 B12 الصادرة في ١٩٩١/١/٩ نقلاً عن تانيوج اليوجوسلافية الصادرة في ١٩٩١/١/٧.

(١٣) الأرقام المأخوذة عن Balkan: Minorities and states in conflict «قلم Hugh Ponlton صفحة ٢١ نقلاً عن: NATIONALITES IN THE LCY; ETHMC COMPOSITION OF THE MEMBER SHIP MYBUARACOM COMMUNISTS IN MAJOR CITIES AND RCEVSLICS AND PROVINCES,VVSKOVIC BORIS, NASE TEME, NO.3-4 MARCH-APRIL 1986 ZAGREB.

(١٤) نفس المصدر السابق.

(١٥) صحيفة الجارديان اليومية البريطانية في ١٩٩٠/٨/٥.

(١٦) مناطق الصرب التي يشكلون فيها الأغلبية المطلقة تقع في المنطقة الشرقية من جمهورية البوسنة - الهرسك: بيليستا، جاتسكو، ليوبنچي، نيفيشنى، تريبينى. وفي غرب البوسنة أغلبية مطلقة أو نسبية كما يلي:

بوشانشكايا جراهوڤو	٨٥,٧ ٪
تيتوف درڤار	٨٨٫٤ ٪
بوشانشكا بتروڤاتس	٦٨ ٪
بانيا ليوكا	٥٠٫٩ ٪
بوشانسكا دوبتسا	٦٦٫٣ ٪
بوشانشكا جرادتسكا	٥٦٫٥ ٪
بوشانشكا نوڤي	٥٩٫٦ ٪
تسبليناتس	٨٦,٣ ٪
جلاموتس	٧٨٫٧ ٪
كليوتس	٥١٫٩ ٪
لاكتايشى	٧٨٫٢ ٪
مركونيتش جراد	٧٨٫٧ ٪
برنيا ڤور	٧٠٫٩ ٪
سكندر ڤاكوف	٦٩٫٥ ٪
شربانص	٨٥٫٨ ٪

شيبوڤو ٧٩ر٥ ٪

لكن هذه المناطق التى يغلب عليها الصرب، تقسّم بينها مناطق يسكنها أغلبية مسلمة كالتالى:

ڤيليكا كلادوشا ٨٨ر٤ ٪ مسلمون بيهاتس ٦١ ٪ مسلمون

كاجين ٩٧ ٪ مسلمون بوشانشكا كروپا ٦٧ر٧ ٪ مسلمون

(١٧) Nevrletter - EEN Vol.4 No European Eastarn – ٦/٨/١٩٩٠ نقــــلا عن مجلة NIJ اليوجوسلاڤية ـ البلغرادية فى ١٩٩٠/٧/٢٠.

(١٨) الجارديان اليومية البريطانية فى ١٩٩٠/١٢/١٤.

(١٩) النشرة اليومية الإخبارية للإذاعة البريطانيةSWB EE/0982 B/11 نقلاً عن Bel- rad grade Hineservice فى ١٩٩١/١/٢٦.

(٢٠) فى حديث صحفى The Independent ١٨/٤/١٩٩٠ بريطانية.

(٢١) Goldsmith Serbs in Croatia: East Euopean - vol 4 No3-Ealdsmit 3 - autunn autumn - winter 1990.

(٢٢) Politica Weakly International N-21 vol.1-11-17 August 1990.

(٢٣) النشرة اليومية الإخبارية للإذاعة البريطانيه SWB EE/0866 B/16 نقـلا عن تانيـوج اليوجوسلاڤية فى ٢٠ اكتوبر ١٩٩٠.

(٢٤) نشرة الإذاعة البريطانية SWB EE/ 0885 B/8 نقلاً عن وكالة تانيوج اليوجوسلاڤية فى ٢٣ ديسمبر ١٩٩٠.

(٢٥) نشرة الاذاعة البريطانية يوم ١٥ /١ /١٩٩١ أو SWB EE / ٩٤٨. نقلاً عن وكالة تانيوج يوم ١٣ / ١ / ١٩٩١ .

(٢٦) نشـرة الاذاعـة البـريطانيـة يوم ٢٧ / ١ /١٩٩١ SWB EE/ 0982 B/8 نقـلاً عن وكـالة تانيوج يوم ٢٦ / ١ / ١٩٩١ .

(٢٧) نشرة الإذاعة البريطانية فى ١٩٩١/١/٢٨ SWB EE/0982 B/8 نقلا عن وكالة تانيوج فى ١٩٩١/١/٢٦.

(٢٨) صحيفة الجارديان اليومية البريطانية فى ٥ / ١ /١٩٩١.

(٢٩) صحيفة الانديبندانت اليومية البريطانية فى ٦ / ١ / ١٩٩١ .

* إقرأ الفصل التالى عن القومية الكرواتية

** أوردت فى الهامش أسماء بعض المناطق ونسبة الصرب بها، وهى أسماء جاء معظمها فى الوكالات والصحف وبالاستعانة بخريطة يمكن للقارىء تتبع مسار الحرب بها

*** أنظر الفصل الخاص بتاريخ يوجوسلاڤيا أثناء الحرب العالمية الثانية وكذلك الفصل الخاص بالكروات.

الفصل الخامس

الشمال الكاثوليكى
الكروات والسولوڤينيون

أولا : الكروات

الكروات ثانى اكبر مجموعة قومية فى يوجوسلاڤيا وكان عددهم طبقاً لإحصاء ١٩٨١، حوالى ٤٢٨ر٤,٠٠٠ شخص، وهو رقم يقل بقدر ضئيل جداً عن ٢٠٪ من مجموع السكان.

ويعيش الكروات أساساً فى جمهورية كرواتيا، وجمهورية البوسنة والهرسك. فهم يؤلفون ٧٠٪ من سكان جمهورية كرواتيا والصرب ١١٪ ومن يسمون أنفسهم «اليوجوسلاڤ» حوالى ٨٪. كذلك يشكل الكروات حوالى ١٨٪ من سكان البوسنة والهرسك.

ومثل الصرب، استقر الكروات فى يوجوسلاڤيا فى القرن السابع الميلادى، لكن دولة كرواتية مستقلة لم تستمر إلا لعام ١١٠٢م . ومنذ ذلك الحين أصبح الكروات تحت سيطرة مملكة المجر أولاً ثم امبراطورية الهابسبورج.

والأغلبية الساحقة للكروات كاثوليك، وهم يستخدمون الأبجدية اللاتينية بينما الصرب أرثوذكس ويستخدمون الأبجدية السيريلية، رغم استخدام لغة واحدة هى الصربو-كرواتية *

توترت العلاقات بين الصرب والكروات منذ نشأة الدولة عام ١٩١٨. وتأسست «الاوستاشاه وهى حركة فاشستية انفصالية كرواتية، فى أوائل الثلاثينات. وأثناء الحرب العالمية الثانية تأسست «دولة كرواتيا المستقلة» أومجت فيها البوسنة - والهرسك، تحت حمايه دول المحور. وتولى «الأوستاشا» السلطة فى هذه الدولة بزعامة أنتى پاڤيليتش وقامت تلك الدولة باطهاد وقتل الصرب والرومان (الغجر) واليهود والمعارضين الكروات. وكان «الأنصار» الذين حاربوا القوات النازية يقومون فى نفس الوقت بحملات تأديبية ضد الدولة الفاشستية - الكرواتية، ومازالت ذكريات ذلك التاريخ ماثلة.

وكانت جمهورية كرواتيا ـ التى تشمل معظم الساحل الدلماسى ـ هى أكبر «رابح» للعملات الأجنبية ليوجوسلافيا، وهى التى تقوم بحوالى ٥٠٪ من تجارتها الخارجية. وكان ذلك مصدراً للتوتر الدائم لأن الكروات ممتعضون لاضطرارهم لمشاركة جمهوريات الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى فى هذا الدخل، فى نفس الوقت الذى يقعون فيه تحت الهيمنة الصربية. لذا فليس غريباً أن الكروات كانوا يطالبون على الدوام بتأسيس كرواتيا المستقلة، وبالمقابل كانت «الدولة الفيدرالية» تنظر نظرة «عدائية متشككة» للقومية الكرواتية.

على أن أواخر الستينات شهدت نمو المشاعر القومية الكرواتية نمواً مضطرداً فى كرواتيا، يؤيدها أعضاء فى «عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف»، الحزب الشيوعى الحاكم، وأصبحت تعرف باسم «الحركة الجماهيرية - الماسپوك ـ وقد نمت نمواً كبيراً مع تكوين منظمات مثل «ماتيكا هرڤاتسكا» الثقافية فى الظاهر، والتى أخذت تتحدى حكم الحزب الشيوعى.

على أن «المسپوك الكرواتى» قمعت فى ديسمبر عام ١٩٧١ بإلقاء القبض على أعضائها القياديين، وبتطهير «عصبة الشيوعيين» فى كرواتيا بقرار من رئاسة العصبة فى دورتها الواحدة والعشرين وكان من بين من أبعدوا الثلاثى القائد لعصبة الشيوعيين فى كرواتيا. ميكو تريبالو، وشافكا دابشيڤيتش كوسار، وبيرو بيركر، ويقال انه قد ألقى القبض آنذاك على ٥٥٠ شخصاً فى عاصمة كرواتيا، زغرب، وحدها، وإن كان قد أفرج عنهم بعدها مباشرة. وحوكم متهمون بتهمة «ارتكاب جرائم ضد الشعب والدولة» وقالت المصادر الرسمية أن ٤٢٧ شخصاً فى كرواتيا قد أدينوا عام ١٩٧٢ بهذه الجرائم، حكم على بعضهم بعقوبة وصلت إلى سبع سنوات سجن[1] وكان من بينهم : فرانچيو تود جمان (رئيس كرواتيا الآن)، وڤلادو چوتوڤاتش، ودكتور ماركو ڤيشيليتشا. وأفرج عن الثلاثة فى نهاية عام ١٩٧٧، لكنهم سجنوا مرة أخرى .

نتج عن حركة التطهير التى قامت بها القيادة الفيدرالية لعصبة الشيوعيين اليوجوسلاف لقيادة الحزب وأعضائه فى كرواتيا، تطهير الاصلاحيين فى جهاز الحزب الصربى، لأن القيادة أرادت أن تتجنب وصمة الاتهام باضطهاد أي مجموعة قومية، وبطبيعة الحال لتأكيد سيطرتها الكاملة على الأوضاع. أما منظمة « ماتيكا هرڤاتسيكا» التى نظرت إليها السلطات على انها ذات توجه قومى ـ انفصالى، فيصدر قرار بإلغائها عام ١٩٧١، فتظل كذلك حتى ديسمبر ١٩٩٠ وهكذا أدى «الماسپوك الكرواتى» إلى طرد إصلاحيين أكفاء ووضع دستور عام ١٩٧٤.

بعد الانقضاض على «الحركة الجماهيرية» كان أى إظهار للقومية الكرواتية يتعرض لعقاب صارم. وقد أشارت صحيفة «بوربا» اليومية اليوجوسلافية[2] إلى أن رئيس «مجلس الشعب الكرواتى» يوربيليتش ذكر وجود نشاط سرى غير قانونى لقوميين معروفين من

أمثال تودچمان، وجوتوڤاتس، وڤيتشليكا. وقد أعلن عن محاكمة تودچمان وڤيتشيليكا. وفى يوم ١٢ فبراير ١٩٨١، أعلنت جريدة فيشنك فى زغرب أن يور بيليتش قد صرح بأنه «نظراً للوضع القائم فى بلدنا، علينا أن نكشف المجموعة التى تلتف حول ڤيتشيليكا وجوتوڤاتس وغيرهما، بغض النظر عما شغلوه من مناصب قبل ذلك، لأنه بسبب تصرفاتهم فانهم يتوجهون موضوعياً نمو الفاشية.

كانت هذه التحريضات واضحة تمام الوضوح، وستتكرر في محاكمات سياسية لاحصر لها ضد الكروات. ذلك أن القومية الكرواتية كانت مرصودة رسمياً بسبب «الاوستاشا» أثناء الحرب العالمية الثانية. كانت مرتبطة ارتباطاً لافكاك منه بالفاشية.



وفي يوم ٢٠ فبراير ١٩٨١، حكم على أستاذ التاريخ الدكتور تودجمان، وهو أيضاً جنرال متقاعد من الأنصار الذين حاربوا النازية فى الحرب العالمية الثانية - بالسجن ثلاث سنوات بسبب مقابلات صحفية أجراها مع مراسلين أجانب عبّر فيها عن وجهة نظره بأن هناك مبالغة فى الأرقام الرسمية عن عدد الضحايا من الصرب فى الحرب العالمية الثانية، وتستخدم هذه المبالغة كسلاح ضد الكروات حيث أن نظام «الاوستاشا» كان مسئولاً عن عدد كبير من أولئك الضحايا. وعلى النقيض من ذلك، صرح واحد من الأنصار الصرب المتقاعدين بأرقام مبالغ فيها، وأكثر بكثير من الأرقام الرسمية، ومع ذلك لم يقدم للمحاكمة.

وفي يوم ٥ يونية ١٩٨١، حكم على ڤلادو جوتوڤاتس بالسجن سنتين، وفى ٩ سبتمبر حكم على الدكتور ماركو ڤيشيليكا - المسئول السابق بالعصبة واستاذ العلوم الاقتصادية - بالسجن أحد عشر عاماً لإجرائه حديثا صحفياً مع مراسل أجنبى قال فيه أن وضع كرواتيا داخل الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلاڤى، غير عادل. وقد اتهم أيضاً أنه أرسل للخارج وثائق حول انتهاكات حقوق الانسان في يوجوسلاڤيا. وإلي جانب هذه الشخصيات الكرواتية الهامة سجن كروات كثيرون آخرون بسبب نشاطاتهم القومية، ومن بين هؤلاء عمال مهاجرون كانت لهم اتصالات فى الخارج بمجموعات من المهاجرين الكروات المعادية لعصبة الشيوعيين اليوجوسلاڤ.

ظلت كرواتيا تحكم حكماً متشدداً من «عصبة الشيوعيين الكروات»، وكان بالعصبة نسبة عالية للغاية من الصرب فى القيادة والقاعدة أكبر بكثير من نسبة الصرب فى كرواتيا. ففى عام ١٩٨١، كان ٤٣ر٤٧٪ من صرب زغرب أعضاء فى الحزب، بينما كانت نسبة كروات زغرب لاتزيد علي ٤٣ر١١٪ فقط[٣]. وأعطى ذلك إحساسا بأن الدولة اليوغسلاڤية هى دولة يسيطر عليها الصرب على حساب الكروات، وانها مجرد استمرار ليوجوسلاڤيا ماقبل الحرب العالمية الثانية.

وعندما جاء الانفراج السياسى عام ١٩٨٩، كانت القومية الكرواتية قد أصبحت مرة أخرى قوة ذات بأس. واستفاد من الانفتاح السياسى هؤلاء الذين ناضلوا فى «السنوات السوداء» وأثبتوا «ولاءهم» للأمة الكرواتية. فأصبح ماركو ڤيشيليكا شخصية بارزة فى الحزب الديمقراطى الكرواتى، أما ڤلادو جوتوڤاتس فقد انتخب رئيسا لمنظمة «ماتيكا هرڤاتسكا» عندما عادت إلى الحياة يوم ٨ ديسمبر ١٩٨٠ [٤]. أما الرابع الحقيقى فكان فرانچو وتودرچمان الذى شكل «الجماعة الديمقراطية الكرواتية HDZ» التى نمت بسرعة لتصبح حزباً جماهيرياً.

أما الحزب الحاكم - الشيوعى - فعلي غرار ماحدث فى جمهوريات الاتحاد الأخرى، غيّر اسمه إلى «عصبة الشيوعيين الكروات - حزب التغيير الديمقراطى LCC-SPD - وأدخل نظاماً داخلياًجديداً للانتخابات فى ابريل عام ١٩٩٠، معتقدا أن ذلك كله سيمكن الحزب

من الحفاظ على هيمنته على الدولة والمجتمع.

وقد لعب تودجمان أثناء الحملة الانتخابية على وتر القومية الكرواتية دون مواراة، فأبرز مفهوم «كرواتيا الكبرى» وحدودها الطبيعية حتى البوسنة. ونظم حزبه استعراضات في المدن ذات الغالبية الصربية في كرواتيا، كانت شعاراته التي تقول في الملصقات «الله في السموات، وتودجمان في أرض الوطن» تشدد على تلك الأفكار.

وأثارت تلك الشعارات صرب كرواتيا، وأثناء مظاهرة حاشدة يوم ٢٤ مارس ١٩٩٠ قام بها خمسون ألف صربي بمونت بتروفاجورا بكرواتيا ارتفعت نداءات قتل تودجمان. وحدثت بالفعل محاولة لاغتياله في ١٨ مارس ١٩٩٠ أثناء الاجتماع التأسيسي لفرع حزبه HDZ بمدينة بنكوفاتس [٥]. وأثارت المحاولة مخاوفا الكروات من «لعبة صربية» جديدة. وظهر في الأسواق كاسيت يسجل محاولة الاغتيال باسم «اطلاق النار على كرواتيا». ويبدو أن هذا كله جعل حزبه المستفيد الرئيسي من أصوات الناخبين رغم امتناع كثيرين عن التصويت. لكن الحزب لم يحصل في أي من الجولات الانتخابية الثلاث، على الأغلبية المطلقة، إذ لم يحصل إلا على ٤٢٪ من أصوات الناخبين ولكنه فاز بـ ٦٧ر٥٪ من مقاعد «مجلس الشعب» الكرواتي، و٥١ر٨٪ من مقاعد «مجلس العمل المشترك». وأصبح تودجمان رئيساً للجمهورية، وخفف المخاوف إلي حد ما بتعيينه صربياً، نائبا لرئيس «مجلس الشعب». وفي حقيقة الأمر أنه كان قد تعهد أثناء الحملة الانتخابية بمنح صرب كرواتيا استقلالية ثقافية وليس هناك أساس لاتهامات الصرب له بأنه يعيد بعث «الأوستاشا» . على أن السلطات الكرواتية الجديدة ووجهت بسرعة بتحدٍ خطير من صرب كرواتيا بمنطقة كنين شرق كرواتيا، ومناطق أخرى، وأصبحت البلاد علي شفا حرب أهلية. وتحرش صرب كرواتيا في مناطقهم بالأقلية الكرواتية، وذكرت تقارير بأنه حدث تمييز ضدهم [٦] .

كان من الواضح من تتابع الأحداث في كرواتيا، أنها تتحو لأن تتخذ نفس مسار الأحداث في سلوفينيا حيث هناك تحالف طبيعي بين الجمهوريتين الكاثوليكيتين اللتين كانتا في السابق جزءا من امبراطورية الهابسبورج، فهما تواجهان صرب سلوبودان ميلوسيفيتش وأطماع «الصرب الكبرى».

***

هنا أعلنت كرواتيا سيادتها، ففي ٢٥ يولية ١٩٩٠أدخل «المجلس الوطني» - السابور Sabor- تعديلاً دستورياً بسيادة كرواتيا. (٧) وفي نوفمبر أعلنت القيادة الكرواتية أنها ستتولى مهام الدفاع عن أراضيها، حيث نشبت مشاكل مع «الجيش الوطني اليوجوسلافي» Jna. أي الفيدرالي - تماماً كتلك التي نشبت بين الجيش وسلوفينيا(٨).

نظم حزب تودجمان نفسه بسرعة أيضاً في البوسنة - والهرسك HDZ - BH ليصبح حزب كروات البوسنة الرئيسي . على انه كانت هناك بعض التناقضات بين قيادة الحزب

فى زغرب ـ عاصمة كرواتيا، وقيادته فى سيراييڤو عاصمة البوسنة ـ والهرسك. فبعد اجتماع لقيادة الحزب بزغرب يوم ٧ سبتمبر ١٩٩٠ تقرر طرد رئيس الحزب بالبوسنة ـ الهرسك، داڤور بيرينوڤتش، وقيل أنذاك أن تودچمان اكتشف من شهادة ميلاد بيرينوفتش أنه أرثوذكسي. وتحدت قيادة فرع الحزب بالبوسنة قرار الطرد يوم ٩ سبتمبر، لكن القرار ظل سارياً، وتولى ستيبان كليويتش منصبه. (٩) وتأكد وضع الحزب على انه حزب كروات البوسنة ـ الهرسك، عندما جرت الانتخابات فى ديسمبر ١٩٩٠فى البوسنة ـ والهرسك وفاز الحزب ب ٤٤ من بين ٢٤٠ مقعداً فى «مجلس الشعب» للبوسنة ـ الهرسك، وقد حصلت كل أحزاب كروات البوسنة ـ على ٤٩ مقعداً. بينما حصل المسلمون على ٩٩ مقعداً، وصرب البوسنة ـ الهرسك على ٨٥ مقعداً، مما يعكس البنية القومية فى جمهورية البوسنة ـ الهرسك. (١٠) .

ويؤلف الكروات ٥٪ من سكان إقليم ڤويڤودنيا الذى يتمتع بالحكم الذاتى داخل جمهورية الصرب وفى الانتخابات العامة التى جرت فى الصرب فى ديسمبر ١٩٩٠، فاز «التحالف الديموقراطى» أحد أحزاب كروات ڤويڤودنيا بمقعد واحد فى «مجلس الشعب» الذى يضم ٢٥٠ مقعداً لكل جمهورية الصرب (١١)

والناظر لتاريخ يوجوسلاڤيا منذ نشأتها وحتى تفككها يلاحظ قوة القومية الكرواتية وعنفوانها والتوتر الصربي الكرواتى الذى استمر طوال فترة وجود يوجوسلاڤيا كدولة منذ عام ١٩١٨، ولقد كانت التجربة الكرواتية فى التفاوض مع «المركز» القوى داخل امبراطورية الهابسبورج للحصول على حقوق داخلها، تختلف اختلافا بيناً عن تجربة الصرب فى الاستقلال خلال نفس الفترة وانعكس هذا الاختلاف فى الدولة اليوجوسلاڤية الجديدة. كانت عريضة للغاية من الجماعة السكانية الكرواتية معادية عداءً شديداً وثابتاً لفكرة يوجوسلاڤيا الموحّدة. وكان ذلك العداء يأخذ فى أحيان كثيرة شكل العداء الكاثوليكى للصرب الارثوذكس ومن قبيل مفارقات التاريخ ان أسقفاً كاثوليكياً هو الأسقف ستروس ماير هو الذى قاد وضع حجر الأساس للدولة اليوجوسلاڤية الموحّدة .

وفى أوائل عام ١٩٩١هدّد التوتر بين كرواتيا والجيش الذى يهيمن الصرب على قيادته، بحدوث أزمة كبيرة كانت الرئاسة الفيدرالية قد أمرت بنزع سلاح كل الوحدات المسلّحة خارج الجيش فى أوائل يناير ١٩٩١، وطالبت كرواتيا تطبيق هذا القرار على الميليشيات الصربية المسلحة فى كنين ومناطق صربية أخرى وليس علي «قواتها الوطنية» التى أسستها. وفي ٢١ يناير ١٩٩١ آمرت وزارة الدفاع الكرواتية، احتياطى الجيش اليوجوسلاڤى من الكروات ألايلبوا أوامر الاستدعاء إذا لم يتلقوا أمراً كتابياً بذلك من المجلس البلدى الذى يتبعونه(١٢).

واتهمت بلغراد كرواتيا بأنها اشترت صفقة سلاح من المجر، وقالت أن وزير الدفاع

الكرواتى الجنرال المتقاعد مارتن سبيجلى يشترك فى مؤامرة على الدولة اليوجوسلافية، ويقوم بتنظيم وتدريب «جماعات إرهابية مسلحة». فى البداية أنكرت المجر صفقه السلاح، ثم عادت وأكدت انها تمت بالفعل، ورفضت كرواتيا طلب تسليم الجنرال سبيجلى للمدعى العسكرى للجيش اليوجوسلافى واستمر الوضع متوترا. وتؤكد بعض التقارير أن الجيش اليوجوسلافي قد توقف عن توفير السلاح لقوى الأمن الكرواتية والسلوفينية بعد فوز القوميين فى الانتخابات فى الجمهوريتين.

ثانيا: السلوفينيون

يؤلف السلوفينيون حوالى ٨٪ من سكان يوجوسلافيا ويقطنون أساساً فى جمهورية سلوفينيا شمال - غرب يوجوسلافيا، حيث يشكلون ٩٠٪ من سكانها، وبذلك تكون اكثر الجمهوريات تجانساً.

كانت سلوفينيا مع كرواتيا تتبعان امبراطورية الهابسبورج حتى عام ١٩١٨، وينظر السلوفونيون إلى أوربا الغربية من الناحية الثقافيه اكثر من بقية اليوجوسلاف . ورغم أن اللغة السلوفينية سلافية إلا انها تختلف اختلافاً كبيراً عن اللغة الصرب - كرواتية. وتضرب الكنيسة الكاثوليكية بجنورها العميقة بين شعب سلوفينيا.

وسلوفينيا هى اكثر مناطق يوجوسلافيا تطوراً ودخلها السنوى بالنسبة للفرد هو اكبر دخل فى جمهوريات يوجوسلافيا هذا فى نفس الوقت الذى تتسع فيه الفجوة الاقتصادية بينها وبين المناطق الجنوبية الأكثر تخلفاً، وعلى وجه الخصوص إقليم كوزوفو فى الصرب وجمهورية مقدونيا وجمهورية الجبل الأسود. وأمست سلوفينيا تعتمد على العمالة المهاجرة من الجمهوريات اليوجوسلافية الأخرى. ونتج عن ذلك حدوث توترات عرقية بين السلوفينيين وبين العمال «الضيوف». ورغم أن جمهوريات الاتحاد اليوجوسلافي هي سوق البضائع السلوفينية إلا أن هناك شعوراً سائداً بأن سلوفينيا تدفع اكثر من اللازم للميزانية الفيدرالية، للمساعدة على تطوير المناطق الجنوبية الأفقر.

كانت سلوفينيا لسنوات عديدة، اكثر جمهوريات الاتحاد ليبرالية، والى حد كبير لها سجل جيد من حيث حقوق الانسان يتناقض مع مناطق أخرى من يوجوسلافيا. ولقد أدت المشاعر القومية الصربية المتأججة بزعامة ميلوسيفيش للحزب الحاكم فى جمهورية الصرب وكذا الأزمة السياسية والاقتصادية المستمرة التى أخذت تمسك بخناق يوجوسلافيا خلال الأعوام السابقة على ١٩٨٩، أدت إلى تغذية الميول الانفصالية للسلوفينيين.

وفي ٢٧ سبتمبر ١٩٨٩، صدق «مجلس الشعب السلوفينى» بأغلبية ساحقة على إجراء تعديلات على دستور الجمهورية تسمح لها بالانفصال عن الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى.

استفز هذا التعديل القيادة الصربية، وقيادة الجيش الوطنى اليوجوسلافى الذى يعتبر نفسه حامى حمى الاتحاد ونظامه الشمولى. ومنذ ذلك الحين تدهورت العلاقة بين

الجمهوريتين وسارت نحو المزيد من التدهور عندما بدا أن سلوفينيا تتحرك فى اتجاه الاستقلال دون رجعة

كان هناك أيضاً تعاطف شديد من السلوفينيين مع ألبان كوزوفو وما يعانونه من قمع صربي. وعلى سبيل المثال لا الحصر، نشر اتحاد الشباب السلوفيني في نوفمبر ١٩٨٩ كتيبا يدافع عن عظيم فلامى الزعيم الألبانى من كوزوفو الذي قبض عليه بتهمة قيامه بثورة مضادة، وأدى هذا إلي إثارة عداء الصرب أكثر، فقرروا القيام بحشد يماثل ذلك الذى عقدوه عام ١٩٨٨ فى إقليم فوفودنيا وجمهورية الجبل الأسود، والذى كانت نتيجته لإطاحة بالقيادات السياسية المحلية وتولي قيادات أخرى متعاطفة مع الصرب وموالية لسلوبو دان ميلوسيفتش. أعلن خمسة آلاف من صرب كوزوفو والجبل الأسود عن نيتهم السفر إلي لوبليانا - عاصمة سلوفينيا - لعقد اجتماع حاشد لذكر «الحقيقة» يوم أول ديسمبر ١٩٨٩، تقدم فيه وجهة نظر الجانب الصربى عن أحداث كوزوفو. وقامت السلطات السلوفينية، بمنع الاجتماع بإصدار قرار يوم ٢١ نوفمبر ١٩٨٩ بمنع اجتماع اكثر من ثلاثين شخصاً وإغلاق الحدود أمام أى أوتوبيسات أو قطارات أو سيارات تحمل متظاهرين صربا [١٤] فأجاب سلوبودان ميلوسيفيش على ذلك بأن دعا إلى مقاطعة سلوفينيا اقتصاديا. وبنهاية يناير ١٩٩٠، عندما وصلت المقاطعة الصربية إلى ذروتها، أوقفت ٢٢٩ شركة صربية تعاملاتها مع ٢٠٧ مشروع سلوفينى[١٥]. وأدى هذا كله بطبيعة الحال إلى اشتعال المشاعر القومية السلوفينية سواء داخل «عصبة الشيوعيين» - أى الحزب الشيوعى الحاكم، أو فى حزب المعارضة الذى كان قد تشكل حديثاً باسم «ديموس DEMOS والذى قدم برنامجه فى مؤتمر صحفى عقده يوم ١٣ ديسمبر ١٩٨٩، حول الاستقلال الاقتصادى لسلوفينيا، وإيقاف عمل أى تشريعات فيدرالية تصدر لعرقلة ذلك الاستقلال أو إيقافه؟. وتضمن برنامج «ديموس» كذلك التعامل بوحدة نقدية سلوفينية مؤقتة. وفى ٢٢ يناير ١٩٩٠، كانت «عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف» SKJ- الحزب الحاكم فيدرالياً - يعتد مؤتمره الرابع العشر غير العادى، فانسحب منه وفد سلوفينيا بكامله وفى فبراير انسحبت «عصبة الشيوعيين السلوفونيين» من «عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف»، وغيرت قيادتها بالاسم إلى «عصبة شيوعيى سلوفينيا - حزب التجديد الديموقراطى» LCS-PDR. وسحبت سلوفينيا أيضاً وحدات بوليسها من إقليم كوزوفو، والتى كانت متواجدة من خلال سلطات بلغراد الفيدرالية[١٦].

وجرت الانتخابات العامة الحرة لاول مرة فى سلوفينيا فى ابريل ١٩٩٠ وفازت المعارضة بأغلبية المقاعد. رغم مواقف عصبة الشيوعيين السلوفينيين، وإن كان مرشح العصبة ميلان كوستان هزم زعيم «ديموس» چوزيه بوتشنيك فى الانتخابات الرئاسية. ولم تكن لنتائج تلك الانتخابات البرلمانية والرئاسية من ناحية الموقف القومى، ذلك ان كلا

الجانبين كان يدافع عن المصالح الوطنية لسلوفينيا ضد الهيمنة الصربية. وفى الثانى من يولية ١٩٩٠ أصدرت المجالس الثلاثة للجمعية الوطنية بأغلبية ١٨٧ ضد صوتين، قرارها باعلان «سيادة دولة سلوفينيا». وبينما لم يذكر الانفصال عن يوجوسلافيا على الاطلاق، فإنه منذ ذلك الحين فصاعداً أخذت القوانين السلوفينية «الأسبقية على القوانين اليوجوسلافية الفيدرالية . وأعلنت سلطات الجمهورية الجديدة سيطرتها على وحدات الجيش اليوجوسلافى فى سلوفينيا، وأنها المسئولة عن حراسة مخافر حدود سلوفينيا. وتأكد هذا الوضع يوم ٢٧ سبتمبر حين اتخذ «المجلس الوطنى» قراراً بتعديل دستور سلوفينيا، ورفض قبول التعديلات التى أجريت على الدستور الفيدرالى لأن نواب كوزوفو من الجماعة ـ الإثنية ـ الألبانية ممثلي «المجلس الوطنى» لكوزڤو لايشتركون فى جلسات «الجمعية الوطنية الفيدرالية».[١٧]

أثارت هذه القرارات القيادة الصربية للجيش اليوجوسلافى فأمرت بنقل الأسلحة الدفاعية من مخازنها الموجودة فى سلوفينيا ورغم قرار «المجلس الوطنى السلوفينى» بضرورة إرجاع هذه الأسلحة حتي العاشر من أغسطس ١٩٩٠، لم يمتثل الجيش لهذا. وبالمثل لم يفسر قواعد عمله حتى يسمح للمجندين بين صفوفه من أبناء سلوفينيا بقضاء مدة خدمتهم في سلوفينيا. ورداً على ذلك أوقفت حكومة سلوفينيا دفع نصيبها في نفقات الدفاع الاقليمي[١٨] وفي ٤ اكتوبر أعاد الجيش اليوجوسلافي تأكيد سيطرته علي مراكز القيادة العسكرية في ليوبليانا. فاحتجت رئاسة جمهورية سلوفينيا والشعب السلوفيني.[١٩]

وفي نفس الوقت كانت التطورات في كرواتيا تعني أنها ستؤيد سلوفينيا علي الدوام في صراعها ضد الصرب. وفي الخامس من اكتوبر اقترح رئيسا كرواتيا وسلوفينيا إعادة النظر في الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي وتحويله إلي «تحالف بين دول مستقلة» لكل منها جيشها وبعثاتها الدبلوماسية. وفي المركز يكون هناك برلمان استشاري ومجلس وزراء ولجنة تنفيذية ومحكمة فيدرالية[٢٠]. وطرحت إمكانية قيام نوع من «التحالف الكاثوليكي» بين كرواتيا وسلوفينيا والنمسا وفي ٦ نوفمبر فتحت بعثة دبلوماسية سلوفينية بڤيينا، وتكونت لجان عمل نمساوية ـ سلوفينية في مجالات الاقتصاد، والطاقة، والثقافة، والتعليم.[٢١]

استمرت الصرب في الضغط علي سلوفينيا، فأصدر البرلمان الصربي يوم ٢٣ اكتوبر ١٩٩٠مجموعة قوانين اقتصادية تضع رسوم استيراد علي البضائع السلوفينية والكرواتية «لحماية الصرب من التنافس المحلي الذي لايتسم بالولاء، ومن التنافس الأجنبي» وبذلك انتهى السوق الوغوسلافي الداخلي الهش[٢٢]. وأثرت إجراءات الحصار الصربي علي الاقتصاد السلوفيني القوى نسبياً حتى قبل عام ١٩٨٩، فارتفعت البطالة ليصل عدد العاطلين إلي حوالي ٥٠ ألف سلوفيني في نوفمبر ١٩٩٠.[٢٣] وبدا أن الاقتصاد السلوفيني

يقترب من حافة الانهيار حيث وصل العجز في الميزان التجاري مع دول العملات الصعبة إلي ٦٠٠ مليون دولار، وانخفض معدل النمو بنسبة ١ر١٠٪ في الفترة من يناير إلي نوفمبر ١٩٩٠، ومايقرب من ٤٠٪ من قوة العمل موظفة في مشروعات خاسرة[٢٤].

علي هذه الخلفية أعلنت السلطات السلوفينية عن إجراء استفتاء بالاستقلال يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٩٠ رغم تهديدات الصرب والجيش. صوت ٥ر٩٣٪ من الناخبين. قال ٥ر٨٨٪ نعم للاستقلال فأعلن رسمياً أن سلوفينيا دولة مستقلة.[٢٥]

وحكمت المحكمة الدستورية اليوجوسلافية [الفيدرالية) ببطلان بنود الاستفتاء التي تعطى الهيئات السلوفينية حق تولي مهام «المركز» الفيدرالي، وينبغي إلغاؤها. وخلال الأزمة الناشبة حول صفقة الأسلحة المجرية لكرواتيا، ازدادت مخاوف تدخل الجيش المباشر في سلوفينيا. ورغم محاولات إنقاذ الاتحاد الفيدرالي من التفكك والانهيار، والانزلاق إلي حرب أهلية، من المؤمنين بالاتحاد اليوجوسلافي المعادية للقومية والعرقية، إلا أن محاولاتهم لم تنجح.

وقد عقدت اتفاقيات دفاع وأمن مشتركة بين سلوفينيا وكرواتيا في يناير ١٩٩١. وصرح رئيس وزراء سلوفينيا ألوازبيترلي ان سلوفينيا طلبت الانضمام رسمياً إلي «السوق الأوروبية المشتركة» بعد استقلالها، لكن «الجماعة الأوروبية» عارضت محاولة سلوفينيا الانفصالية[٢٦]. وسيتغير هذا الموقف فيما بعد فسلوفينيا اكثر جمهوريات يوجوسلافيا تجانساً ورخاءً، ولها حدود مشتركة مع النمسا، وروابط مع وسط أوربا. وهي التي قادت الاتجاه العام لاستقلال الجمهوريات بكل الوانها السياسية.

هوامش الفصل الخامس

(*) يدعي في بعض الأحيان أن اللغة الكرواتية تختلف عن الصربية.

(١) Yugoslavia Prisoners of consaice Amnesty International - 1972.

(٢) عدد ١٣ فبراير ١٩٨١.

(٣) الكتاب الاحصائي السنوي الرسمي لعام ١٩٧٣ لجمهورية يوجوسلافيا الفيدرالية الاتحادية الاشتراكية.

(٤) النشرة الاخبارية اليومية للإذاعة البريطانية SWB EE/0947 B/14 نقلاً عن وكالة تانيوج اليوجوسلافية في ١٩٩٠/١٢/٨.

(٦) صحيفة الاندبيندانت البريطانية في ١٨ مارس ١٩٩٠.

(٧) نشرة الاذاعة البريطانية في ١٢ اكتوبر ١٩٩٠ SWB EE/0893 B/11 نقلاً عن راديو زغرب في اكتوبر ١٩٩٠.

(٨) مجلة الايكونوميست البريطانية الاسبوعية ١٩٩٠/٧/٢٢.

(٩) النشرة اليومية للاذاعة البريطانية SWB EE/0868 B/10 الصادرة يوم ١٣ سبتمبر ١٩٩٠ نقلاً عن وكالة أنباء تاننيوج اليوجوسلافية في ١٩٩٠/٩/١٢

(١٠) النشرة اليومية للاذاعة البريطانية SWB EE\0948 B\18 الصادرة في ١٥/١٢/١٩٩٠ نقلاً عن وكالة تانيوج اليوجوسلافية في ١٢/١٢/١٩٩٠.
(١١) صحيفة الجارديان البريطانية في ٢٠/١٢/١٩٩٠.
(١٢) النشرة الإخبارية اليومية للاذاعة البريطانية في ٢٣ يناير ١٩٩١ SWB EE/0977 B/4 نقلاً عن اذاعة زغرب في ٢١/١٢/١٩٩١.
(١٣) النشرة اليومية للاذاعة البريطانية: في ٣٠ نوفمبر ١٩٩٠، SWB EE/0627 i نقلاً عن وكالة تانيوج اليوجوسلافية في ٢٩/١١/١٩٩٠.
(١٤) النشرة اليومية للاذاعة البريطانية في ٨ فبراير ١٩٩٠ SWB EE/W 0114 A110 نقلاً عن تانيوج في ٢٨/١/١٩٩٠.
(١٥) النشرة اليومية للاذاعة البريطانية في ١٨ ديسمبر ١٩٩٠ SWB EE/0642 B\6 نقلاً عن وكالة تانيوج اليوجوسلافية في ١٣/١٢/١٩٩٠.
(١٦) النشرة اليومية للاذاعة البريطانية في ٦ فبراير ١٩٩٠.. SWB EE/0882i نقلاً عن وكالة تانيوج في ٤/٢/١٩٩٠.
(١٧) مجلة الايكونوميست الأسبوعية البريطانية ٢/٧/١٩٩٠.
(١٨) النشرة اليومية للاذاعة البريطانية في ٢٩ سبتمبر ١٩٩٠ SWB EE\0882 B\10 نقلاً عن تانيوج في ٢٧/٩/١٩٩٠.
(١٩) صحيفة الجارديان البريطانية في ٨/٩/١٩٩٠.
(٢٠) صحيفة الجارديان البريطانية في ٥/١٠/١٩٩٠.
(٢١) صحيفة الجارديان البريطانية في ٨/١٠/١٩٩٠.
(٢٢) صحيفة الاندبيندانت في ٢٣/١٠/١٩٩٠.
(٢٣) صحيفة الاندبيندانت في ١٥/١١/١٩٩٠.
(٢٤) صحيفة الجارديان البريطانية في ٢٦/١١/١٩٩٠.
(٢٥) صحيفة الجارديان البريطانية في ٢٧ ديسمبر ١٩٩٠ نقلاً عن وكالة تانيوج في ٢٦/١٢/١٩٩٠.
(٢٦) صحيفة الاندبيندانت اليومية البريطانية يوم ١٦ فبراير ١٩٩١ نقلاً عن وكالة الانباء الفرنسية.

الفصل السادس

الأمم الجديدة

١ ـ المسلمون
٢ ـ وأهل الجبل الأسود
٣ ـ والمقدونيون

أولا : المسلمون

تطلق كلمة «مسلم» في يوجوسلافيا على السلاف الذين تحولوا إلي الاسلام، أثناء فترة الحكم العثماني. وقد اعترف بهم منذ عام ١٩٧١ «كأمة يوجوسلافية متمايزة» تؤلف ٩٪ من السكان ويقطن المسلمون أساساً في البوسنة ـ الهرسك حيث يشكلون اكبر مجموعة عرقية تصل نسبتها إلي ٣٩٪ من السكان، وهم يشكلون أيضاً ٤ر١٣٪ من سكان جمهورية الجبل الأسود.

ورغم أن الأغلبية الساحقة من المسلمين تتكلم اللغة الصربو ـ كرواتية، فإن هناك حوالي ٤٠ الف مسلم يتكلمون اللغة المقدونية وهؤلاء يطلق عليهم في احيان كثيرة لقب «البوماك» وهم من سلالة مقدونية، وليسوا من سلالة صربية أو كرواتية، وقد أسلموا أثناء الحكم العثماني. وعادة ما لايدرجهم المؤلفون الغربيون واليوجوسلاف في قائمة مسلمي البوسنة والهرسك، ومسلمي الجبل الأسود، وانما يصنفونهم مع المقدونيين رغم انهم مسلمون هذا في نفس الوقت الذي لايندرج فيه الالبان (المسملون) تحت كلمة «مسلم» ايضاً كذلك لا تطلق كلمة مسلم علي الأقليات التركية المسلمة.

بعد انهيار الامبراطورية العثمانية، وجد السلاف المسلمون أنفسهم مواجهين بضغوط من الصرب والكروات، فنظموا أنفسهم كقوة سياسية في «المنظمة الاسلامية الوطنية» التي تعمل من أجل حماية الحياة الدينية والثقافية لتلك الجماعة السياسية، كما تعمل لحماية مصالح الصفوة البوسنية التي أسلمت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولقد كانت تلك الصفوة في الحقيقة هي القوة الدافعة وراء *«المنظمة الاسلامية الوطنية»*. وأيام حكم الهابسبورج عليالبوسنة ـ الهرسك، لم تضطر إلي مثل هذا الإجراء لأنها لم تلق أي

اضطهاد آنذاك.[1] وبعد تأسيس الدولة اليوجوسلافية الجديدة عام ١٩١٨، كانت تلك المنظمة تنحو لأن تأخذ جانب أولئك الذين يساعدون الدفاع عن حقوقها، وتجنبت المعارضة الصريحة للسلطات، فأخذت تميل بإضطراد ناحية الكروات[2].



المسلمون والمقدونيون وأهل الجبل الأسود

بعد الحرب العالمية الثانية وانتصار الشيوعيين بقيادة الماريشال تيتو، حدثت هجرة ذات شأن للمسلمين السلاف من البوسنة، وبالذات من منطقة السنجق جنوب الصرب، واستمرت تلك الهجرة حتى عام ١٩٦٦. وترجع هذه الهجرة أساساً إلي المواقف العدائية للسلطات الجديدة، في بداية الأمر[٣].

وتنقسم الجماعة الاسلامية في يوجوسلافيا إلي أربع مناطق إدارية:

(١) **منطقة سيراييڤو**: التي تدير شئون مسلمي البوسنة ـ الهرسك، إضافة إلي الأعداد القليلة من المسلمين في كرواتيا،

(٢) **منطقة بريستينا**:

(٣) **منطقة سكوبي**.

(٤) **منطقة تيتو جراد**.

ورئيس المسلمين في يوجوسلاڤيا، وهو «رئيس العلماء» مقره عاصمة البوسنة ـ الهرسك سيراييڤو. وبعد وفاة الماريشال تيتو مباشرة، كان هناك في منطقة سيراييڤو وحدها مايزيد علي الف جامع، ومايزيد علي ٥٥٠ مسجداً (أصغر حجماً من الجامع) واربعمائة فصل لتعليم الدين الاسلامي بالاضافة إلي مدرستين دينتين. والمفلت للنظر أن عدد الجوامع لإنه قد زاد زيادة كبيرة منذ ذلك الحين، لأنه وضع برنامج للتوسع في بنائها*

وهناك عدد من المطبوعات والمنشورات الاسلامية أهمها «بريبورود» وهي مجلة نصف شهرية تصدر في سيراييڤو باللغة الصربو ـ كرواتية، لكنها تتجنب الخوض في القضايا السياسية والاجتماعية الخلافية علي عكس نظيرتيها: «براڤوسلاڤي» الارثوذكسية، و«جلاس كونسيلا» الكاثوليكية.

والأغلبية الساحقة من مسلمي البوسنة ـ الهرسك من السنة.[٤] وإن دخل مذهب «الدراويش إلي يوجوسلاڤيا عام ١٩٧٤[٥].

شهدت البوسنة ـ الهرسك كثيراً من الفظائع أثناء الحرب العالمية الثانية، إذ كانت «الخلطة» القومية ـ العرقية فيها أكثرها قابلية للتفجر، حيث التقى فيها الصرب الارثوذكس والكروات الكاثوليك والسلاف المسلمون. وتدعي كل من الصرب وكرواتيا أحقيتها في أراضيها. وبعد الحرب العالمية الثانية مباشرة تأسست «منظمة الشباب المسلم» بغرض حماية المسلمين من المعاملة السيئة التي تعرضوا لها من السلطات الجديدة. ولقد حرمت السلطات المنظمة من ممارسة نشاطها علي أساس انها منظمة إرهابية.

لقد تأسست جمهورية البوسنة ـ الهرسك خصيصاً لايجاد نوع من المجال الحيوى لتعايش المجموعات القومية الثلاث، والأديان الرئيسية الثلاثة. ففى البلقان كان الدين تاريخياً أحد العوامل التى تفرق بين الشعوب. ولقد كان الصرب والكروات على السواء

يدعون أن المسلمين السلاف في البوسنة هم جزء لايتجزأ من كل منهما. لذا فإنه عند التقسيم الفئوى ليوجوسلافيا، اعترف بـ «المسلمين» كأمة منفصلة. وقد نتج عن ذلك العقدة العرقية ـ الإثنية، أن أصبحت البوسنة ـ الهرسك منطقة تنتهك فيها حقوق الإنسان، حيث كان أفراد المجموعات الإثنية الثلاث يضطهدون عند إظهارهم أى مظاهر قومية ـ عرقية، من السلطات الشيوعية الحاكمة.

وبالرغم من الحرية الدينية المكفولة طبقا للدستور. لكن كان ينظر إلى ممارسة الطقوس الدينية رغم صلتها الوثيقة بالوضع القومى والعرقى، نظرة عدم ثقة من المسئولين، فى أحيان كثيرة. كان ينظر إلى الكاثوليكية بالذات هذه النظرة بسبب تبعيتها لبابا روما، بمعنى أن مركز سلطتها ليس وطنياً وإنما خارج البلاد. بالمثل كان هذا الوضع واضحاً فى حالة جمهورية البوسنة ـ الهرسك، وجمهورية كرواتيا. فكان أى شكل من أشكال العودة إلى «الأصولية الاسلامية»يعاقب بشدة كجزء من مؤامرة لجعل البوسنة ـ الهرسك جمهورية «اسلامية». حتي جاءت التغييرات الكبرى التى اجتاحت يوجوسلافيا فى ١٩٨٩/ ١٩٩٠.

محاكمة سيراييفو

وأهم مثال على ذلك هو محاكمة ١٣مسلماً في منتصف عام ١٩٨٣، اتهموا «بالقيام بأعمال معادية مضادة للثورة نابعة من القومية الاسلامية». كان المتهم الأول هو الدكتور علي عزت بيجوفيتش المحامي، وكان مديراً لإحدى شركات البناء أحيل علي المعاش، وقد كان عمره اثناء المحاكمة ٥٩ عاماً. وقد وجدته محكمة سيراييفو مذنباً وحكم عليه بالسجن ١٤ عاماً، خفف إلي ١١ عاماً بعد الاستئناف. كان المتهمون الأربعة الأوائل قد سبق إدانتهم في أواخر الأربعينات بتهمة الانتماء إلي منظمة «الشباب المسلم»، وهم د. على عزت بيجوفيتش وعمر بهمان وصالح بهمان وعصمت كاسوماچيك أما تهمة د.علي عزت بيجوفيتش في عريضة الاتهام بأنْ يدعي أن المسلمين قد قاسوا الأمرين علي أيدي الشيوعيين عندما دخل الأنصار قراهم في نهاية الحرب العالمية الثانية وأن منظمة «الشباب المسلم» ومنظمات أخرى مماثلة قد تأسست ـ آنذاك ـ لتقف في وجه هذه المعاناة.

تركزت التهمة الرئيسية علي أطروحة من خمسين صفحة كتبها د.علي عزت بيجوفيتش عام ١٩٧٠ معنونة باسم «الاعلان الاسلامي»(٦)، وكانت أجزاء منها قد نشرت بطريقة قانونية في يوجوسلافيا منذ نيف وعشر سنوات. وصمم الإدعاء ان الاطروحة تشير إلي رغبة المتهمين في تأسيس دولة إسلامية في جمهورية البوسنة ـ الهرسك واقليم كوزوفو ومناطق أخري يقطنها المسلمون. وتشكل تلك الاطروحة «المشروع المحدَث للمنظمة الإرهابية القديمة : «الشباب المسلم».

شددّ د.علي عزت بيجوفيتش وعمر بهمان في دفاعهما علي أن «الاعلان الاسلامي» مهتم برفعة شأن المسلمين عموماً وليس موجهاً إلي مسلمي يوجوسلافيا و البوسنة ـ

الهرسك علي وجه الخصوص. وأن المقصود تطبيقه في البلاد التي يؤلف المسلمون الأغلبية الساحقة من سكانها. وأكد د.بيجوفيتش أيضاً انه لم يتفوه علي الإطلاق بجملة «الجمهورية الاسلامية في البوسنة ـ الهرسك»، وبالمثل لم تأت تلك الجملة في نص الأطروحة. وقال انه سلّم الاطروحة لعمر بهمان وبعض الطلبة العرب ليعرف رأيهم فيها، وانه قام بترجمتها لأنه «شعر أن العالم الاسلامي يتحول إلي إحدي قوي العالم الثالث ... وان الأطروحة تقدم رؤية لنظام اجتماعي ـ ديموقراطي وانساني».

وأنكر الدكتور علي عزت بيجوفيتش وجود آية صلة بين الأطروحة وبين برنامج منظمة «الشباب المسلم». كذلك اتهم الدكتور علي عزت بيجوفيتش وعمر بهمان بأنهما كتبا مقالات تحتوى علي دعاوي زائفة بشأن وضع المسلمين في يوجوسلافيا، وأورد الادعاء مثالاً علي ماكتبه «المتهمان» مانصه :

«برز الأنصار في ظروف الحرب العالمية الثانية، وكانوا من الناحية الفعلية فصائل مسلّحة للحزب «الشيوعي اليوجوسلافي» الذي كان يفرض «النظام الشيوعي» خطوة خطوة. وبينما لم يعد البقاء الجسدي للمسلمين وارداً، إلا أن بقاءهم الروحي تهدد من وحدات «الأنصار». فقد فرضت السلطات سيطرتها علي «الجماعة الإسلامية» فعين لقيادتها مؤيدون للحزب الشيوعي، بل وأعضاء فيه في أحيان كثيرة. ولقد ألحق الشيوعيون خسائر كبيرة بالمسلمين، عندما كانت وحدات «الأنصار» تدخل القدر. فقد قتل، هكذا ببساطة وبدون إجراء أي تحقيقات وبدون إجراءات قانونية : مثقفون معروف عنهم التدين، وكل الخصوم المحتملون من شخصيات لها وضع اجتماعي عالٍ، أو حيثية في الجماعة[٧].

واتهم أعضاء المجموعة بأن لهم صلات بايران، كما اتهمت مليكة صالح بيجوفيتش بأنها كتبت خطاباً إلي آية الله الخميني في ايران، احتوي الفقرة التالية :

«عشت في وسط مسيحي في أوربا الملحدة علي مدي سبعة وثلاثين عاماً. أوربا التي يعيش فيها حفنة من المسلمين في جو من الأكاذيب والرياء. وليس من العجيب إذن، ان شبابي وشباب آلاف من مواطني ضاع في التجوال في دروب الجهل، وليس من العجيب أن نعود إلي الله. ولو كنا خائفين لكان ذلك من دواعي يأسنا»[٨].

ورغم أن نسبة المؤمنين في البوسنة ـ الهرسك ـ وفقاً لاستفتاء عام أجري عام ١٩٨٥ ـ لم تكن عالية، فهي ١٧٪ بالمقارنة بنسبة ٤٤٪ في اقليم كوزوفو، و٣٣٪ في كرواتيا، و٢٦٪ في سلوفينيا، و١٩٪ في مقدونيا، إلا أن المواقف والأراء التي عبّر عنها المتهمون المسلمون في محاكمة سيراييفو والتي عوقبوا عليها عقوبة شديدة، لاقت تأييداً قوياً من مسلمي البوسنة ـ الهرسك. فالاسلام بالنسبة لهم ليس ديناً فقط، وانما هو يميزّهم عن بقية سكان يوجوسلافيا إلي الدرجة التي اعترف بها النظام الشيوعي ـ التيتوي نفسه فميزهم كأمة.

أفرج عن علي عزت بيجوفيتش في أوائل نوفمبر ١٩٨٨ وعندما حدثت التغيرات

السياسية، أسس «حزب العمل الديموقراطي SDA » في شهر مايو ١٩٩٠. لكن كان هناك انشقاق في قيادة الحزب، بين علي عزت بيجوفيتش، وعادل ذو الفقار وهو من المهاجرين الذين عادوا، وكان أحد زعماء مسلمي البوسنة. وهو يري في بيجوفيتش «اسلامي متطرف». وسرعان ماانشق جناح عادل ذو الفقار عن «حزب العمل الديموقراطي» ليشكل «منظمة المسلمين البوشناق» في ٢١ سبتمبر ١٩٩٠. وعندما جرت أول انتخابات عامة حرة في ديسمبر ١٩٩٠، فاز «حزب العمل الديموقراطي» بـ ٨٦ من ٢٤٠ مقعدا في مجلس البرلمان، وأصبح اكبر حزب.

تم التصويت في هذه الانتخابات علي أسس قومية - عرقية. فحصل «الحزب الديموقراطي الصربي» علي ٧٢ مقعداً. «الجماعة الديموقراطية الكرواتية» علي ٤٤ مقعداً.

أما التوزيع في البرلمان الجديد فكان كما يلي :

المسلمون ٩٩ مقعداً

الصرب ٨٥ مقعداً

الكروات ٤٩ مقعداً

اليوجوسلاف ٧ مقاعد

فهناك عدد من الأحزب يمثل كل قومية وجماعة عرقية وليس حزباً واحداً. أما الذين ذكروا انهم «يوجوسلاف» فهم يميزون أنفسهم بأنهم ينتمون الي كل يوجوسلافيا وليس الي قومية بعينها. ولم تذكر أية مصادر ماهية قوميتهم[٩] التي ينتمون إليها.

هكذا تولي السجين السياسي السابق علي عزت بيجوفيتش رئاسة الجمهورية، مثله مثل فرانچو تودچمان السجين السياسي السابق التي تولي رئاسة الجمهورية في كرواتيا.

***

عند فوز «حزب العمل الديموقراطي» بأكبر عدد من المقاعد أثار كتاب وصحفيون وسياسيون أوربيون قضية تحول «جمهورية البوسنة والهرسك» إلي «جمهورية اسلامية» أو ايران اخري في قلب أوربا! وقد أثيرت هذه القضية بطبيعة الحال لتخويف الرأي العام الأوربي. واثارها كذلك سياسيون من قوميات وأديان أخري في يوجوسلافيا. وهناك نقاط هامة ينبغي مناقشتها في إطار هذه القضية حتي لاتضيع حقوق مسلمي البوسنة - الهرسك وسط افتراضات وأقوال بعيدة عن الواقع :

فأولا : لا يشكل المسلمون إلا ٤٩٪ من سكان البوسنة - الهرسك وهم لم يرفعوا أية شعارات تثبت هذه الأقوال. هناك الصرب والكروات الذين يعيشون في مناطقهم ويريدون تقطيع أوصال الجمهورية الوليدة وتقسيمها فيما بينهما.

ثانيا : قال عالم اجتماع يوجوسلافي بارز، متخصص في علم اجتماع الديانات في مقال كتبه بصحيفة «بوربا» البلغرادية ان الاحصائيات والبيانات تثبت ان هذه المخاوف

ليس لها أساس من الصحة، وأن نسبة المؤمنين في كل جمهوريات يوجوسلافيا - بما في ذلك البوسنة - الهرسك، هي نفس النسبة التي كانت عليها عام ١٩٢١.(١٠)

ثالثا : هناك فارق بين «التطرف» و«التسيّس» المتنامي للمسلمين، انه جزء من الاتجاه العام في كل أوربا الشرقية التي تخلصت من الأنظمة الشمولية، فكل شعب (وكل قومية وجماعة - عرقية - إثنية - دينية) يريد أن يتخلص من أثقال الشمولية بأي شكل والتبعية لقومية اكبر أو شعب أكبر أو أمة أكبر ليمارس ثقافته وشعائره وتقاليده وعاداته. وليس التسيّس المتنامى مقصور علي مسلمي البوسنة والهرسك، بل هو تسيّس كل أوربا الشرقية. بل لقد امتد تسيّس مسلمي البوسنة إلي «السنجق» حيث يشكلون أغلبية السكان، وقد رفعوا شعار الاستقلال أيضا. ولقد اتهم سليمان أو عليانين رئيس «حزب العمل الديموقراطي» بالسنجق، في فبراير ١٩٩١، اتهم السلطات الصربية وسلطات جمهورية الجبل الأسود بإنكار حقوق المسلمين وقد ساد التوتر المنطقة(١١).

هذه الموجة العامة للتسيّس هي إحدي سمات العصر وليس أوربا الشرقية وحدها. فمن كان يصدق أن سلوفاكيا تطلب الاستقلال والانفصال عن الاتحاد الفيدرالي التشيكوسلوفاكي؟ ومن كان يصدق أحداث «ميدان السلام السماوي» (تيينمان)؟ ومن كان يصدق التحولات في العديد من بلدان آسيا وافريقيا نحو الديموقراطية الحزبية؟

رابعاً : إن المسلمين السلاف، الاسلام هويتهم. فأمة الصرب، قوميتهم الصربية، وهم مسيحيون أرثوذكس. ولهم جمهورية ضمن جمهوريات الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي هي الصرب. ثم هم موجودون في كل الجمهوريات (الأخري داخل الاتحاد) وفي البوسنة - الهرسك علي وجه الخصوص. كذلك الكروات لهم جمهوريتهم التي استقلت، وهم يشكلون قومية قائمة بذاتها ولهم كنيستهم الكاثوليكية. وكروات البوسنة وصرب البوسنة إذن لهم ظهر يستندون إليه. أما المسلمون، فهم ليسوا موجودين إلا في البوسنة والهرسك حيث يشكلون أغلبية مع أقليات في أماكن أخري. فليس هناك غير الدين : الاسلام الذي يلجأون إليه. انه بالنسبة لهم، دينهم وهويتهم وقوميتهم وكل شيء.

خامساً : فرض التحلل الكامن ليوجوسلافيا، وتفككها بعدها، مشاكل عديدة علي جمهورية البوسنة - الهرسك. فالصرب والكروات لهم دعاوي قديمة في أراضيها ووجود الصرب والكروات في مناطق خاصة بهم يشكلون أغلبية سكانها يعطي لهذه الدعاوي سندها الديموجرافي. ولقد ظل هناك سؤال مطروح في يوجوسلافيا هو : «من هم مسلمو البوسنة؟» ونشرت إحدي دور النشر الكرواتية بزغرب، «ببلوجرافيا الكتاب الكروات» في البوسنة - الهرسك في الفترة بين الحربين العالميتين. تضمنت أسماء ٣٨ من المسلمين علي انهم كروات. هاجت صحيفة «بريبورور» بسيراييڤو وماجت علي تلك «الكروتة» التي تلغي هوية مسلمي البوسنة.

سادسا : ان الاسلام يعلو علي التقسيمات القومية. ويظهر هنا واضحاً في أحيان كثيرة. وعلي سبيل المثال، اشترك المسلمون السلاف من «الجبل الأسود» في حزب مع الجماعة ـ العرقية ـ الألبانية في الانتخابات التي أجريت هناك عام ١٩٩٠. وبالمثل أبدى «حزب العمل الديموقراطي» تعاطفاً مع أمال وطموحات ألبان كوزوڤو المسلمين. وظهرت منشورات «اسلامية» في نوڤي بازار بالسنجق تؤيد انفصال كوزوڤو وتهاجم الرئيس الصربي سلوبودان ميلو سيڤيتش(١٢). لكن كل القوميات الأخري أيدت ألبان كوزوڤو، وجماعات حقوق الانسان في العالم تؤيدهم أيضاً ضد القمع الصربي بغض النظر عن الدين والقومية والجنس.

ظهرت أولي مظاهر عداء الصرب للمسلمين السلاف في تلك الفترة في اجتماع حاشد عقده حزب «حركة التجديد الصربي» spo بزعامة فوك دراشكوڤيتش في سبتمبر ١٩٩٠ بنوڤي بازار بمنطقة السنجق بالصرب، حين خطب دراشكوفيتش في الاجتماع منددأ بالمسلمين قائلاً انهم أقرب إلي طهران من ذويهم وجيرانهم الصرب، فحدث تشابك بالأيدي بين الفريقين وقامت الميليشيات المسلحة والسيارات المصفحة باستخدام الغازات المسيلة للدموع وإطلاق الرصاص.

واعلن «حزب العمال الديموقراطي» SDA بعد فوزه في انتخابات جمهورية البوسنة ـ الهرسك انه سيركز نشاطه أيضاً في منطقة السنجق بين مسلمي مقدونيا.

ومع تفكك الاتحاد اليوجوسلافي سارت الأمور في طريق استقلال كل أمة، في طريق كان مسلمو البوسنة ـ الهرسك هم الخاسرين فيه.

هوامش المسلمون :

(*) للأسف ليس هناك مرجع واحد يدلنا علي عدد الجوامع والمنشآت الدينية والاسلامية حتى قبيل الحرب الأهلية .

(١) Pawlourich S.K. The Improbable Survior - Yugoslavia and its Problems 1918-1988-c.Hurst and co, London 1988.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) نقلاً عن The East European Neusletter-EEN Vol 4. No6 DAMAS, Zagreb, 6March 1990.

(٤) RAMET,S.P. Islam in Yugoslavia Today - in Religion in communist lands - Keston college-Vol.18-No3 August 1990

(٥) نفس المرجع السابق

(٦) النص الكامل لـ «الاعلان الاسلامي موجود في:

The South Slav journal - London - Spring 1983.

(٧) تقرير منظمة العفو الدولية المذكور سلفاً

(٨) نفس المرجع السابق.

(٩) صحيفة الجارديان البريطانية اليومية في ١٥/١٢/١٩٩٢

(١٠) الانديبندانت البريطانية فى ٥ أبريل ١٩٩٠ نقلاً عن صحيفة «بوربا» اليوجوسلافية - بلغراد فى ٤ مارس ١٩٩٠.

(١١) النشرة الاخبارية اليومية للإذاعة البريطانية فى ٨ فبراير ١٩٩١، SWB EE/0991 B/11 Belgrade Domestic service 6/2/1991.

(١٢) صحيفة التايمز اللندنية - ٦/٢/١٩٩٠.

ثانيا: أهل الجبل الأسود

تقع جمهورية الجبل الأسود جنوب يوجوسلافيا، على الحدود الشمالية لألبانيا. أراضيها جبلية وعرة ولا يزيد عدد سكانها الإجمالي على ٥٨٤ ألف نسمة. أما عدد سكان أهل الجبل الأسود أنفسهم فلا يزيد على ٥٧٩ ألف نسمة، أي أن نسبتهم لاتزيد على ٦ر٢٪ من سكان يوجوسلافيا. وهم يؤلفون ٦٨٪ من سكان «جمهورية الجبل الأسود» ويؤلف المسلمون السلاف ٤ر١٣٪ من سكانها والأقلية - العرقية - الألبانية ٥ر٦٪.

ويتحدث أهل الجبل الأسود اللغة الصربو - كرواتيه، وهم مسيحيون أرثوذكس مثلهم مثل الصرب. ولقد كانوا علي مدي التاريخ حلفاء للصرب، بل ان بعضهم يدعي في الحقيقة انهم صرب. لذا فإن الدولة النمساوية - المجرية (التي كانت تري في الدولة الصربية الصاعدة منافساً لها في الاستيلاء علي البوسنة في أواخر القرن التاسع عشر) هذه الدولة اتبعت سياسة منع دولتي الصرب والجبل الأسود المستقلتين من الاتحاد معاً.

كانت منطقة الجبل الأسود منكوبة بالحروب والغارات بطبيعتها الجبلية. فحتي أثناء الحكم العثماني، كانت هناك أجزاء من الجبل الأسود لم يكن من الممكن الوصول اليها، إذ كانت خارجة عن سيطرة الحكم العثماني، ويخرج من أهل الجبل الأسود مقاتلون وجنود أشداء، أما أراضيهم الجبلية فملائمة تمام الملاءمة لحرب العصابات. ولأهل الجبل الأسود نسبة عالية من ضباط «الجيش الوطني اليوجوسلافي»، مقارنة بنسبتهم في عدد سكان يوجوسلافيا.

ولقد كان لعودة تأجج القومية الصربية ابتداء من تسلم سلوبودان ميلوسيفيتش السلطة في بلغراد، آثار عميقة في جمهورية الجبل الأسود. فبعد مظاهرات حاشدة عام ١٩٨٨، أجبرت قيادة «عصبة الشيوعيين» الحاكمة في الجبل الأسود، علي الإستقالة، واستبدلت بقيادة أخري مماثلة للقيادة الصربية لسلوبودان ميلوسيفيتش في الصرب. كان تطور الأحداث شبيهاً الي حد كبير بتطورها في جمهورية الصرب. ففي الصرب، وصل جناح ميلوسيفيتش الي السلطة في بلغراد بإزاحة الجناح الذي كان يقود في «عصبة الشيوعيين». وتحولت العصبة من «الشيوعية» الي «القومية». وهو نفس ماحدث ايضاً في «جمهورية الجبل الأسود». أما في كرواتيا وسلوفينيا ومقدونيا والبوسنة، فقد وصلت معارضة الشيوعيين الي السلطة بعد فوزها في الانتخابات العامة الحرة التي جرت فيها لأول مرة.

وعندما أجريت الانتخابات العامة في جمهورية الجبل الأسود في ديسمبر ١٩٩٠، حصلت «عصبة شيوعيي الجبل الأسود علي ٨٣ من ١٢٥ مقعداً في «المجلس الوطني». وأتي في المرتبة الثانية حزب «تحالف القوي الاصلاحية» بقيادة أنتي ماركو فيتش، حيث حصل علي ١٧ مقعداً. وأدي انتصار «الشيوعيين» القوميين في جمهورية الجبل الأسود

الي الترابط اكثر مع الصرب، ضد الجمهوريات الأخري كلها (في الاتحاد الفيدرالي) التي فاز فيها القوميون، وهزم الشيوعيون.

لكن رغم العلاقة القوية بين الجمهوريتين والتحالف الوثيق بين الحزبين إلا أن هناك نقطة هامة ينبغي ألا ننساها : علينا ان نتذكر ان الجبل الأسود كان دولة مستقلة، وقد تم تأكيد ذلك رسمياً في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨. ولأهل الجبل الأسود المقاتلين الأشداء تاريخ بطولي في الكفاح في الجبال حتي قبل تأسيس يوجوسلافيا عام ١٩١٨. كان «الجبل الأسود» كياناً سياسياً متمايزاً منذ القرن الخامس عشر، حمته طبيعة أرضه الجبلية الوعرة من أن تتم عليه السيطرة، سيطرة كاملة من فينيسيا أولاً، ثم من العثمانيين في القرن السادس عشر. هكذا يعتز أهل الجبل الأسود بتاريخهم واستقلالهم وقوميتهم، فليس من المستبعد إذن ان يعود انبعاث هذه القومية المتميزة عن القومية الصربية.

ثم هناك مسألة أخري، هي مسألة الدين، بل والمذهب الديني، مما له أهمية قصوي في السياسات البلقانية. فأهل الجبل الأسود مسيحيون أرثوذكس، ولقد تمتعت الكنيسة الارثوذكسية للجبل الأسود باستقلالها عام ١٨٥٥، لكنها فقدته عام ١٩٢٠ بعد أن أدمج الجبل الأسود في يوجوسلافيا. وفي أغسطس ١٩٩٠ وقعت ١٥٠٠ شخصية من أهل الجبل الأسود علي عريضة قدمت «للمجلس الوطني» للجبل الأسود، تطالب باستقلال كنيسة الجبل الأسود الارثوذكسية.

ثالثا : المقدونيون

مقدونيا هي المنطقة الجغرافية المحددة **شمالا** بجبال سكوبسكا تسرنا جورا وجبال بلاننينا، **وشرقاً** بجبال ديلا وروبوب، **وجنوباً** بشواطي بحر إيجة حول سالو نيكا وبجبال الأوليمب وبندوس، **وغرباً** ببحيرة أوهريد وبحيرة بريسبا. وتصل مساحة مقدونيا الي حوالي ٦٧ ألف كيلو متر مربع، مقسمة حالياً بين يوجوسلافيا واليونان وبلغاريا.

ولقد كانت مقدونيا من أولي المناطق التي غزاها العثمانيون ومن آخر الدول التي تحررت أيضاً أثناء حروب البلقان في عامي ١٩١٢ و١٩١٣.

وطبقا لاحصاء ١٩٨١، كان عدد سكان جمهورية مقدونيا الاشتراكية ١ر٩١٢ر٢٥٧ نسمة، ينقسمون كالتالي :

١ر٢٨١ر٠٠٠	مقدوني
٣٧٨ر٠٠٠	ألباني
٤٥ر٠٠٠	صربي
٤٠ر٠٠٠	مسلم سلافي
٤٧ر٠٠٠	غجري
٨٧ر٠٠٠	تركي

٧١٩٠ فلاتشي
٢٠٠٠ بلغاري الي جانب مجموعات اخري.

أدي تأسيس الكنيسة الاكسرشية (البطريركية) - البلغارية عام ١٨٧٠ الي أن يواجه اليوناني، البلغاري، في مقدونيا. وكانت «بلغاريا الكبري» - القصيرة العمر - قد تأسست بموجب معاهدة سان ستيفانو، وألغيت بموجب معاهدة برلين. وكان أحد الملامح الأخري لمعاهدة برلين هو قيام امبراطورية الهابسبورج بإدارة البوسنة - الهرسك، ووضع حامية في سنجق نوفي بازار لإيجاد فاصل بين صوفيا والجبل الأسود. وكانت النتيجة أن أخذت الصرب تنظر في اتجاه مقدونيا آملة في التوسع المستقبلي، حيث كانت الأراضي الطبيعية للتوسع الصربي قد سقطت تحت سيطرة الامبراطورية - النمساوية المجرية (وتلك الأراضي، هي ذات الاعداد الكبيرة من السكان الصرب).

وبعد هزيمة الصرب من بلغاريا عام ١٨٨٥، اتبعوا سياسة توسعية نشطة في مقدونيا، حيث أطلقوا عليها «الصرب الجنوبية»، مدعين أن المقدونيين السلاف، هم صرب، بما في ذلك المسلمون. وأسسّ الصرب «جمعية سانت سافا» عام ١٨٨٦ للترويج للقومية الصربية، وعلي وجه الخصوص في مقدونيا وبحلول منتصف تسعينات القرن التاسع عشر، إدعت الصرب وجود مائة مدرسة صربية في مقدونيا مقابل مابين ٦٠٠ الي ٧٠٠ مدرسة بلغارية معظمها تحت إشراف الكنيسة البطريركية. وأسس اليونانيون جمعية مناظرة للجمعية الصربية، أطلقوا عليها اسم «إثنيل هيتريا» هدفها تحرير جميع اليونانيين الذين مازالوا تحت حكم الامبراطورية العثمانية، بدءاً بأولئك الموجودين في مقدونيا بمن فيهم سكانها الذين يتحدثون السلافية، والذين أطلقت عليهم هذه الجمعية : «اليونانيون المتحدثون بالسلافية». كان ثلاثة أرباع ضباط الجيش اليوناني من أنصار الجمعية، وكذلك اغنياء يونانيون كثيرون. وبحلول عام ١٨٩٠ إدعي اليونانيون وجود ١٤٠٠ مدرسة «يونانية» في مقدونيا. كانوا ينفقون علي التعليم في مقدونيا اكثر مما ينفقونه علي التعليم في اليونان نفسها - بالنسبة للفرد - كذلك فإن الرومانيين كانوا يدعمون أكثر من ٣٠ مدرسة «للفلاها» المبعثرين في مقدونيا الغربية وابيبروس وتيسلي.

وأنشئت في مقدونيا «المنظمة المقدونية الداخلية الثورية» VMRO عام ١٨٩٣ لتعارض تقسيم مقدونيا، مؤيدة فكرة إنشاء اتحاد فيدرالي للسلاف الجنوبيين من الصرب والمقدونيين والبلغار وكسبت هذه المنظمة تأييداً واسعاً، ووضعت خطة هبة مسلحة. علي ان أعداداً كبيرة من المقدونيين هربوا الي بلغاريا لفشل «بلغاريا الكبرى» الناتج عن معاهدة «سان ستيفانو». وما أن حل عام ١٩٠٣ حتي كان نصف سكان صوفيا، العاصمة البلغارية، من المقدونيين المهاجرين واللاجئين. وأدي هذا الي عدم استقرار بلغاريا لسنين طويلة، وقامت منظمة منافسة «للمنظمة المقدونية الداخلية الثورية»، هي «المنظمة الخارجية»

التي تأسست في صوفيا عام ١٨٩٥ بهدف دمج مقدونيا في بلغاريا، أي العودة مرة أخري الي «بلغاريا الكبري».

والمحصلة النهائية لهذا كله أن تعرض الفلاحون المقدونيون لغارات متكررة من شراذم المنظمة والصرب والبلغار واليونانيين وحتي من السلطات العثمانية. واستمر هذا حتي حروب البلقان وخروج العثمانيين نهائياً من مقدونيا. ومنذ ذلك الحين فإن جزء مقدونيا الموجود الآن في يوجوسلافيا والمعروف باسم «ڤاردار مقدونيا»، كان يتبع الصرب أولاً ثم «المملكة الصربية - الكرواتية - السلوفينية» التي عرفت بعد ذلك باسم يوجوسلافيا وظهرت الي الوجود عام ١٩١٨، باستثناء فترة مابين الحربين حين احتلته بلغاريا لفترة طويلة.

وتمشياً مع الادعاءات الصربية بأن المقدونيين هم في الحقيقة «صرب جنوبيون»، ضعف الكنيسة المقدونية تحت سيطرة الكنيسة البطريركية الصربية. وأصبحت اللغة الصربية هي اللغة الرسمية الإجبارية في المدارس وفي الحياة العامة علي السواء. وأدي هذا الي اغتراب سكان مقدونيا وزيادة مشاعرهم الموالية لبلغاريا.

وقد قامت بلغاريا اثناء الحرب العالمية الثانية، وكانت متحالفة مع المانيا النازية، باحتلال معظم أراضي مقدونيا اليوجوسلافية. ورغم ان هتلر لم يسمح لبلغاريا بأن تضم رسمياً الأراضي التي احتلتها في اليونان وفي يوجوسلافيا، إلا أن الحكومة البلغارية كانت تتصرف كما لو كانت هذه الأراضي «بلغارية»، فأرسلت الي مقدونيا موظفين بلغار واستبدل مدرسو المدارس بمدرسين بلغار. رحب كثير من المقدونيين في البداية بالبلغار كمحررين (في عام ١٩٤٢ أصدرت قوانين جنسية جديدة أدت الي نزوح كبير من الصرب، الي الصرب نفسها). لكن في النهاية كان البلغار يتصرفون كمحتلين وادي هذا الي خيبة أمل المقدونيين سكان «ڤاردا - مقدونيا».

لم يحقق «الأنصار» نجاحاً يذكر في بداية الأمر في مقدونيا بسبب المشاعر المؤيدة للبلغار. وتغير هذا الوضع بعد زيارة قام بها مساعد تيتو، ڤوكمانوڤيتش تمبو لسكوبي وبتغير مشاعر المقدونيين ضد البلغار. وبنهاية عام ١٩٤٣ ازدادت شعبية «الأنصار»، فقام البلغار بعمليات قمع انتقامية غربت السكان أكثر. وفي عام ١٩٤٤، بدأت القوات البلغارية تهرب وتنضم لصفوف الأنصار، وفي سبتمبر عام ١٩٤٤ غيرّت بلغاريا تحالفها مع النازي وانضمت الي الحلفاء.

أثناء الحرب العالمية الثانية قرر «الأنصار» بقيادة تيتو بعد الحرب تأسيس جمهورية مقدونيا، لتوفر جسراً بين يوجوسلافيا وبلغاريا، وعلي أساس انهما قد تشكلان اتحاداً فيدرالياً يضم أيضاً البانيا التي أصبحت بدورها تحت الحكم الشيوعي، واليونان التي كانت تدور فيها حرب أهلية بين «الشيوعيين» و«اليمينيين». رحب الزعيم البلغاري چيورچي ديمتروف بخطط تيتو لتوحيد «ڤادار مقدونيا» اليوجوسلافية مع «بيرين مقدونيا» البلغارية،

وكان والداه هو نفسه من مقدونيا. لكن عمر ذلك التعاون اليوجوسلافي - البلغاري كان قصيراً، ذلك انه سرعان ماطرد تيتو من الكومنترن عام ١٩٤٨. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً تتوتر العلاقات بين «جمهورية مقدونيا» وبلغاريا.

أخذت السلطات الشيوعية اليوجوسلافية الجديدة توطّد حكمها فاختارت لغة مكتوبة لمقدو نيا، وتقرر ذلك يوم ٣ مايو ١٩٤٥ وظهر أول كتاب مطبوع باللغة الجديدة في أوائل عام ١٩٤٦، وهو نفس العام الذي تأسس فيه قسم اللغة المقدونية في كلية الفلسفة بالعاصمة سكوبي، ثم تأسس معهد كامل للغة المقدونية عام ١٩٥٣.

وبالمثل وضعت كتب عن تاريخ مقدونيا عبر العصور. وأثار ذلك امتعاض البلغار، إن كتبت علي هوي اليوجوسلاف. فهناك بعض شخصيات تاريخية مقدونية مثل جوتسي دبليتشيف الذي كان أحد قادة هبة ١٩٠٣ وقتل أثناء القيام بها في مقدونيا. بل إن بعض الكتب المقدونية ألمحت الي مشاركة بلغارية في التآمر علي قتله علي يد العثمانيين.

وكان الدين أداة مهمة أخري - الي جانب اللغة - في يد السلطات الشيوعية الجديدة، إذ اتخذ قرار باستقلال «الكنيسة الارثوذكسية المقدونية» عن «الكنيسة الأرثوذكسية الصربية»، ثم أحيت عام ١٩٥٨ «أسقفية أوهريد» العتيقة. وكانت هذه وغيرها خطوات هامة علي طريق خلق الأمة المقدونية الجديدة. وكان ذلك مثلاً نادراً علي تعاون دولة شيوعية - شمولية مع السلطات الدينية، وهو مثال لم يحدث في كل الدول الشيوعية الأوروبية. وقد قامت «الكنيسة الأرثوذكسية الصربية» هذه الخطوات بطبيعة الحال، بمثل ما قاومت الاعلان النهائي لاستقلال الكنيسة المقدونية في ١٨يوليه ١٩٦٧. وتستمر «الكنيسة الأرثوذكسية الصربية» الي جانب الكنائس الأرثوذكسية الأخري في رفضها الاعتراف بالكنيسة المقدونية.

هكذا تمكنت السلطات الحاكمة من القضاء تدريجياً علي المشاعر المؤيدة للبلغار بين قسم كبير من السكان. وهكذا بدأ بناء «وعي قومي متميز» للمقدونيين. وبعد أن كان المقدونيون في وضعية الأقلية، انتقلوا الي وضعية شعب يعيش داخل جمهوريته مستقلين عن الصرب في إطار الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي، وتأكد ذلك بموقف يوجوسلافيا الاستقلال كدولة شيوعية منذ عام ١٩٤٨، وبقاء بلغاريا دولة متمشية مع السوفييت.

علي أن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تدهورت في يوجوسلافيا في الثمانينات أصابت أكثر ما أصابت جمهورية مقدونيا، هذا بالإضافة الي إثارة القضية القومية.

متغيرات عام ١٩٨٩

بعد التغيرات التي اجتاحت يوجوسلافيا وأوربا الشرقية، أعلنت «عصبة الشيوعيين» الحاكمة في مقدونيا السماح بالتعدد الحزبي، وأدي تفكك الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي

الي تاكيد «القومية المقدونية». وفي عام ١٩٨٩ أعيدت صياغة الدستور بحيث يصفها «دولة ـ أمة للشعب المقدوني»، بدلاً من النص السابق الذي يقول «دولة الشعب المقدوني والأقليات الألبانية والتركية». وفي أكتوبر عام ١٩٨٩ أخذ مشجعو كرة القدم يهتفون «دير سالون لنا» وهو دير علي حدود الصرب ومقدونيا، أعطي للصرب عام ١٩٥٣، وهتافات أخري «عاشت مقدونيا موحدة»[1]. وظهرت شعارات من نفس العينة في العاصمة سكوبي، وبدا ان السلطات أغمضت عينيها عن هذا كله[2]. بعد هذا بدأت تحركات «قومية» أكثر خطورة : أسس مثقفون مقدونيون في ٤ فبراير ١٩٩٠ «حركة العمل لكل مقدونيا» MAAK برئاسة رئيس اتحاد الكتاب والشاعر أنتي بوبو ڤسكي، وصدر عنها انها لاتنادي بأي مطالب اقليمية من جيران مقدونيا، وإن كانت قد انتقدت بلغاريا واليونان. وتقابل بعدها مندوبو الحركة مع مندوبي حركة ليندن البلغارية وناقشوا التعاون معا[3]. وفي نفس الشهر الذي تأسست فيه الحركة حدثت مظاهرة ضخمة يقدر الذين شاركوا فيها بحوالي ١٢٠ الف مقدوني في العاصمة سكوبي، لتاكيد هويتهم وإدانة قمع المقدونيين في بلغاريا والبانيا واليونان[4]. وكان توقيت المظاهرة مهماً في حد ذاته، إذ جاء مع زيارة رئيس الوزراء اليوناني كونستانتين ميسوتاكيس لبلغراد. فبلغراد لاتريد الاستقلال لمقدونيا وتريدها في إطار الصرب، وبالمثل لاتريدها اليونان لأن اسم جمهورية مقدونيا ـ إذا استقلت ـ سيشكل مشكلة بالنسبة لإقليم مقدونيا اليوناني المجاور، كما يشكل تعقيدات من الناحية القومية والتاريخية فمقدونيا الجمهورية الآن هي محل ميلاد الاسكندر المقدوني.

وظهر حزب اكثر راديكالية من الناحية القومية من «حركة ماك» في يونيه ١٩٩٠، وعقد مجلسه التأسيسي بسكوبي في ١٧ يونية واطلق علي الحزب اسم «المنظمة المقدونية ـ الداخلية الثورية ـ الحزب الديموقراطي للوحدة القومية المقدونية» VMRO - DPMNE وشارك في إعلانه مقدونيون من «الدياسبورا المقدونية» كان اختيار الاسم اختياراً ذا مغزي. وقد تعهد زعيم الحزب جيورجي إيڤيسكي بتنفيذ مباديء «تمرد الليندن» عام ١٩٠٣، والعمل من أجل «توحيد كل المقدونيين في دولة مقدونية»[5]. وعبر الحزب عن رغبته في تحسين العلاقات مع جمهوريتي سلوڤينيا وكرواتيا، واستعادة الأراضي الملحقة بجمهورية الصرب، واحتفاء بذكري تمرد «ليندن» في الثاني من أغسطس ١٩٩٠ عقد الحزب اجتماعاً من مائة عضو بدير بوهور بيتمشينسكي فرقه البوليس الصربي بالقوة[6].

لكن في غضون ذلك نشطت منظمة مقدونية مؤيدة للبلغار في جمهورية مقدونيا ـ وفي ٤ أغسطس ١٩٩٠ نشرت هذه المنظمة واسمها «جمعية البلغار في ڤاردار مقدونيا» نداءً الي الشعب البلغاري أنكر فيه مفهوم «الأمة المقدونية» وأكدَّ علي الطبيعة البلغارية لكل المقدونيين في يوجوسلاڤيا واليونان وبلغاريا، وناشد النداء «بلغاريا الديموقراطية الجديدة» بالتدخل لمصلحة جميع المقدونيين البلغار[7] .

وقد أحيت «القومية الصربية» المتنامية، مخاوف مقدونيا من إدعاء الصرب بتبعية مقدونيا لها. وتزايدت هذه المخاوف عندما أصدرت حكومة الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش، عدة قوانين تسمح بمنح تعويضات للمهاجرين الصرب الذين إدعوا بأنهم طردوا من كوزوفو، ذلك أن هذه القوانين يمكن تطبيقها ـ من الناحية النظرية ـ علي الصرب الذين طردوا من جمهورية مقدونيا بعد الحرب العالمية الثانية، بعد أن تغير وضع مقدونيا من كونها «الصرب الجنوبية».

وقد قام بيتار جوزيف رئيس حزب «عصبة الشيوعيين المقدونيين» الحاكم والذي أصبح اسمه «رابطة شيوعيي مقدنيا ـ حزب التجديد الديموقراطي» SKM - PDP، قام أثناء تنديده المعتاد ببلغاريا واليونان لعدم اعترافهما بحق المقدونيين في تأسيس دولتهم، بانتقاد «القومية الصربية» قائلاً أن الصرب مثلها مثل بلغاريا واليونان، لها أطماع في مقدونيا»[٨]. ولقد تحددت هذه «المطامع» بشكل صريح علي لسان زعيم حزب المعارضة الرئيسي في الصرب فوك دراسكوفيتش، المنافس الأساسي للرئيس الصربي ميلو سيفيتش، عندما صرح لصحيفة بلغارية بقوله : «إننا في حاجة إلي تحالف بلقاني جديد للدول الأرثوذكسية، يضم الصرب وبلغاريا واليونان للوقوف في وجه الاسلام الزاحف. وفي هذه الحالة لن تبقي مقدونيا جمهورية، وإنما سيعاد امتصاصها في الصرب، إذا ما أصبحت يوجوسلافيا اتحاداً كونفيدرالياً»[٩]. وفي حديث آخر دعا دراسكوفيتش إلي تقسيم مقدونيا بين الصرب وبلغاريا.

وفي نوفمبر ١٩٩٠ عقد حزب «ماك» وحزب «المنظمة الثورية المقدونية ـ حزب الوحدة الوطنية المقدونية الديموقراطي» DPMNE – VMRO (والذي سنشير اليه هكذا اختصاراً) عقدا تحالفاً أطلقوا عليه «جبهة الوحدة القومية المقدونية»، توطئة لدخول المعركة الانتخابية، وللوقوف في وجه الشيوعيين في SKM - PDP الذين كان يتوقع فوزهم. وبالفعل فشلت الجبهة في الجولة الأولي، لكن في الجولة الثانية يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٩٠، حققت نجاحاً عظيماً لدرجة أنه بعد الجولة الثالثة والأخيرة كانت في المقدمة عندما فازت بـ ٣٧ مقعداً من ١٢٠ مقعداً في البرلمان، وجاء الشيوعيون في المركز الثاني بفوزهم بـ ٣١ مقعداً ثم حزب DPD وهو حزب الأقلية الالبانية، الذي جاء ترتيبه الثالث بفوزه بـ ٢٥ مقعداً.

المقدونيون المسلمون
(الطوربيش والبوماك والبوتور)

هناك مجموعات مسلمة مختلفة في مقدونيا، ويظهر هذا بما ان الدين كان له أكبر الأثر في التمييز العرقي بالمنطقة. فهناك مجموعات يطلق عليها الطوربيش والبوماك والبوتور، أظهرت في أحيان كثيرة توحدهم في هوية اكبر مع رفاقهم المسلمين الاتراك علي سبيل

المثال. هذا رغم أن السلطات كانت قلقة من اختراق «القومية الألبانية» لتلك الجماعات الاسلامية علي يد «الخوجات» متحدثي الألبانية.

وتبين الاحصاءات التي كانت تتم كل عشر سنوات في يوجوسلافيا أن عدد السلاف المسلمين في مقدونيا متذبذب :

عدد المسلمين	عام الإحصاء
١٫٥٩١	١٩٥٣
٣٫٠٠٢	١٩٦١
١٫٢٤٨	١٩٧١
ثم ارتفاع فجائي إلي	
٣٩٫٥٥٥	١٩٨١

والتفسير المنطقي انه بسبب التشوش في هويتهم أعلن كثيرون انهم أتراك في الإحصائيات السابقة.

نظم المسلمون السلاف المقدونيون أنفسهم في «اتحاد» وعقدوا أول اجتماع «ثقافي» تاريخي لهم عام ١٩٧٠ بدير سان چوفان بيجورسكي غربي مقدونيا. ويقول المتحدث الرسمي للاتحاد انه يضم ٧٠ الف عضو، امتصتهم جماعات اسلامية أخري منذ انتهت الحرب العالمية الثانية، وخاصة الألبان المسلمين[١٠]. وإذا كان هذا هو الوضع بالفعل، فإنه يعني أن عددهم الذي ارتفع «فجأة» في إحصاء عام ١٩٨١ يعكس أن تأسيس ذلك «الاتحاد» قد لعب دوراً هاماً في تعرفهم علي هويتهم، وأن الذي يجمعهم مع المسلمين الأخرين هو «الدين» وليس «العرق».

ويتعرض السلاف المسلمين المقدونيين للامتصاص في الأغلبية الألبانية المسلمة في جمهورية مقدونيا، رغم النجاح الذي حققته الرابطة. ويشير هذا الي ان الاسلام في البلقان يلعب دوراً دينياً توحيدياً اكثر من الدور العرقي التوحيدي. وقد أرسل الدكتور رضا محمد وڤسكي رئيس «الجماعة الجمهورية لمسلمي مقدونيا من أجل الشئون الثقافية والعلمية»، خطاباً مفتوحاً الي حزب الرخاء الاقتصادي لمقدونيا PDP وهو حزب يغلب عليه الجماعة الإثنية الألبانية في تيتوڤو يوم ١٣ أغسطس ١٩٩٠، يناقش فيه مسألة هذا «الامتصاص الصامت» للمسلمين اليوجوسلاف، متهماً فيه «حزب الرخاء الاقتصادي» بإساءة استخدام الدين من أجل اغراض سياسيةبألبنة ** وكوزوڤنة *** مقدونيا الغربية[١١]. وعبّر مجلس كبار الجماعة الاسلامية بمقدونيا، عن نفس القلق يوم ٦ نوفمبر ١٩٩٠[١٢].

ويشدّد من هذا الميل لمسلمي مقدونيا السلاف ناحية الجماعة ـ العرقية الألبانية، تأييد المسلمين السلاف لحزب PDP. وقد اشتكي هذا الحزب في الجولة الثانية للانتخابات

العامة المقدونية التي جرت في ٢٥ نوفمبر ١٩٩٠، من ان سكان قري السلاف المسلمين في مقدونيا الغربية قد منعوا من التصويت للحزب بواسطة اعضاء أحزاب «جبهة الوحدة القومية المقدونية»، ومن الميليشيات واعضاء لجان الانتخابات[١٣].

هوامش

(١) صحيفة الجارديان البريطانية في ٢٨ اكتوبر ١٩٨٩ نقلاً عن تانيوج اليوجوسلافية في ٢٧ اكتوبر ١٩٨٩.

(٢) صحيفة الجارديان البريطانية فى ٦ نوفمبر ١٩٨٩، نقلا عن بوربا اليوغوسلافية فى ٤ و ٥ نوفمبر ١٩٨٩.

(٣) صحيفة الجارديان البريطانية في ٦ نوفمبر ١٩٨٩، نقلاً عن بوربا اليوجوسلافية في ١٦ يولية ١٩٩٠.

(٤) صحيفة الجارديان البريطانية في ٢١ فبراير ١٩٩٠ نقلاً عن تانيوج اليوجوسلافية في ٢٠ فبراير ١٩٩٠.

(٥) اوسلوبوديني بسيرايفو في ٢٣ يونية ١٩٩٠ نقلاً عن - Eastern Europe Newsletter EEL vol.4 No14 in 11/7/1990

(٦) تانيوج اليوجوسلافية في ٢ اغسطس نقلاً عن صحيفة الايندابندانت اليومية البريطانية في ٤ اغسطس ١٩٩٠.

(٧) النشرة الإخبارية اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٩٠/٨/٨ SWB EE /0837 A2 / 3 Sofia Home Service 4/8/1990.

(٨) صحيفة الجارديان اليومية البريطانية في ٢ يونية ١٩٩٠.

(٩) مجلة الايكونوميست الاسبوعية البريطانية في ١٠ نوفمبر ١٩٩٠ وكان التصريح يوم ٣ نوفمبر ١٩٩٠.

(١٠) صحيفة الجارديان في ٢٨ مايو ١٩٩٢ نقلاً عن دوجا ـ بلجراد في ٨ مايو ١٩٩٢.

(١١) نشرة الأخبار اليومية للاذاعة البريطانية في ١٥ اغسطس ١٩٩٠ SWB EE/ 0843 B/10 نقلاً عن وكالة انباء تانيوج اليوجوسلافية في ١٣ اغسطس ١٩٩٠.

(١٢) نشرة الاخبار اليومية للاذاعة البريطانية في ٨ نوفمبر ١٩٩٠، SWB EE/0916 B/7 نقلاً عن وكالة انباء تانيوج اليوجوسلافية في 6 نوفمبر ١٩٩٠.

(١٣) النشرة الإخبارية اليومية للإذاعة البريطانية فى ٢٩ نوفمبر ١٩٩٠، SWB EE/0934 B/ 15 نقلاً عن وكالة أنباء تانيوج ا ليوجوسلافية فى ٢٧ نوفمبر ١٩٩٠.

(*) للأسف ليس هناك مرجع واحد يدلنا علي عدد الجوامع والمنشآت الدينية الاسلامية حتي قبيل الحرب الأهلية.

(**) في بداية الأمر اختيار لهجة أهل مقدونيا الشمالية كأساس للغة المقدونية الجديدة، لكن اعتبرت هذه اللهجة قريبة من اللغة الصربية اكثر من اللازم. ومن ثم اختيرت لهجات منطقة بيتولا ـ فيليس كأساس.

وكانت هذه اللهجات أقرب الي اللغة البلغارية الأدبية. ولكن لأن اللغة البلغارية كانت مبنية علي اللهجات البلغارية الشرقية، فقد سمح ذلك لليوجوسلاف بالقول بأن اللغة المقدونية لغة متميزة عن البلغارية، وكانت هذه النقطة موضع رفض بين بلغاريا فيه ذلك الوقت وحتي الآن. والحقيقة انه بمضي

الوقت أخذت الفوارق تختفي بين مختلف اللهجات المقدونية من ناحية وكذلك بين مختلف اللهجات البلغارية.

وسواء أكانت اللغة المقدونية التي تشترك مع اللغة البلغارية في كل الصفات التي تفرقهما عن اللغات السلافية الأخري، هي لغة منفصلة ام هي لهجة من اللهجات البلغارية، فمازالت هذه قضية تثير الجدل بين علماء اللغة حتي الان.

(***) رددت بعض تقارير صحفية وجود فئة صغيرة داخل «الكنيسة الارثوذكسية المقدونية تحبذ استمرارها تابعة للكنيسة الارثوذكسية الصربية» كما كان الوضع في السابق.

ومن الواضح أن هذا الجناح يلتف حول الاسقف بيتار أسقف بريسبا وبيتولي. فقد نقلت التايمز البريطانية في ٣ مايو ١٩٩٠ ان مائتي كاهن مقدوني ارثوذوكسي قد وقعوا علي عريضة يطالبون فيها باستقالة ذلك الاسقف بسبب «إهماله واختلاساته» لكن يبدو أن السبب الحقيقي هو الدور الذي لعبه في تبعية الكنيسة المقدونية للكنيسة الصربية.

(x) من ألبانيا وكوزوفو

الفصل السابع

الألبان : أكبر قومية

(أ) ألبان كوزوڤو والانفجار القادم بعد البوسنة

يشكل الألبان أكبر قومية في يوجوسلاڤيا خارج الجمهوريات التي تشكل الاتحاد الفيدرالي. فطبقاً لدستور ١٩٧٤، فإن الوطن القومي للألبان في البانيا الدولة المجاورة لذا لم تمنح كوزوڤو وضعية «الجمهورية»، وإنما منحوا «الاستقلال الذاتي» داخل جمهورية الصرب، أكبر أمة في يوجوسلاڤيا. وطبقا لإحصاء عام ١٩٨١ يصل عدد ألبان كوزوڤو ١ر٧ مليون نسمة أي انهم يشكلون نسبة ٧ر٧٪ من سكان يوجوسلاڤيا والمؤكد أن عددهم تعدي المليونين. وهناك ألبان أيضاً خارج اقليم كوزوڤو. لكننا سنقصر حديثنا الآن في هذا الفصل علي ألبان كوزوڤو، ثم في الفصل التالي سنتناول الألبان في الجمهوريات الاخري.

يشكل الألبان ٨٥٪ من عدد سكان إقليم كوزوڤو ذي «الاستقلال الذاتي». وهم يعيشون أيضاً في جماعات مندمجة في مقدونيا الغربية (علي حدود البانيا) حيث يؤلفون ٨ر١٩٪ من سكانها. ويقول المؤرخون الألبان ان اصولهم ترجع الي الأليريين. وكوزوڤو نفسها كانت موطناً لجماعات مختلفة من السكان وهي تشغل حيزاً كبيراً في الوعي القومي للصرب والألبان علي السواء، وأصبحت بؤرة لمطالب متناقضة ولصراعات عرقية.

فكوزوڤو بالنسبة للصرب هي بمثابة «القلب» من «المملكة الصربية» في القرون الوسطي، حيث يوجد حتي الآن كثير من المباني الأثرية «للكنيسة الارثوذكسية الصربية».

وكوزوڤو بالنسبة لأغلبية سكانها من الجماعة العرقية الألبانية كانت هي المكان الذي استيقظت فيه «القومية الألبانية» بتأسيس «رابطة بريزرن» عام ١٨٧٨. والأغلبية العظمي من الألبان مسلمون باستثناء أقلية من الكاثوليك ـ الرومانيين علي أن «القومية الألبانية» قادم متأخر الي المسرح البلقاني. فقد كان أغلبية الألبان من المسلمين، لذا لم يواجهوا العقبات في طريق تقدم اثناء وجود الامبراطورية العثمانية في البلقان. فقد نجح ألبان كثيرون في الوصول الي أعلي المناصب آنذاك. لذا لم يكن ذلك الحافز لتأسيس دولة قومية ألبانية موجوداً بنفس القوة لدي القوميات المجاورة، تلك القوميات التي كان تعتمد علي

تأييد قوي عظمي خارجية مسيحية لأسباب دينية - مذهبية ولمصلحتها الخاصة بطبيعة الحال.

ويمكن أن يقال أن اليقظة القومية الألبانية، كانت، من نواحٍ عديدة، رد فعل للإدعاءات اليونانية والصربية علي الامبراطورية العثمانية التي كانت في ذلك الوقت أخذة في التحلل والتفكك. ولو لم ينظم الألبان أنفسهم، لكانوا قد خسروا دولتهم، آنذاك كانت الأراضي التي يقطنونها ستقسم بين الصرب في الشمال واليونان في الجنوب. فقد خلقت الدولة الألبانية الحديثة عام ١٩١٢، أثناء التفكك النهائي للامبراطورية العثمانية في البلقان، وكانت الدول العظمي - آنذاك - هي المهندس الذي رسم الخريطة، وعلي وجه الخصوص الامبراطورية النمساوية المجرية التي كانت تنظر بانزعاج شديد الي توسع دول البلقان الجديدة وبالذات الصرب. لكن وصول الألبان متأخرين الي مسرح الاحداث، أدي الي وجود أقليات ألبانية كبيرة في مناطق علي حدودها يشكل الألبان فيها أغلبيات محلية، واكبرها هي كوزوفو. وبعد فوضي سنوات الحرب العالمية الأولي، حاولت يوجوسلافيا التي كانت قد تأسست آنذاك كدولة، أن تعيد «استعمار» المنطقة بمستوطنين صرب وبالذات من قدامي المحاربين. وقد دار قتال عنيف شتاء عام ١٩١٥ بين القبائل الألبانية وبين الجيش الصربي المتقهقر الذي كان يشق طريقه عبر الجبال الألبانية ليدخل كوزوفو. هكذا تركت المصاعب الفادحة لسنوات الحرب العالمية الأولي ندوباً عميقة، فارتكبت أعمال انتقامية علي يد «الشيتنيك» المنتصرين. وكانت فرق «الشيتنيك» - القوات الصربية غير النظامية - قد أنشئت للتأكد من الهيمنة الصربية في المناطق التي استولوا عليها مؤخراً. هكذا أصبحت اللغة الصربو - كرواتية إلزامية في المدارس وفي الهيئات الرسمية. ثم ان عدم الاستقرار في البانيا ذاتها أدي الي استمرار النزاع علي الحدود حتي عام ١٩٢٦.

ولقد انتقل الي كوزوفو في سنوات مابين الحربين العالميتين مايقدر بحوالي أربعين ألفاً من الفلاحين السلاف الارثوذكس معظمهم من الصرب وأهل الجبل الأسود، وأجبر علي الهجرة مايقدر بحوالي نصف مليون الباني. ومنح المستوطنون الجدد أرضاً خصبة ومزايا أخري تسببت في خلق جماعتين منفصلتين في كوزوفو : جماعة صغيرة من المستوطنين الصرب وأهل الجبل الأسود، واكثرية ألبانية في وضع أقل بكثير[1]. وليس من المدهش إذن أن تنظر الأقلية - الإثنية - الالبانية، في الدولة اليوجوسلافية المعلنة عام ١٩١٨ أن ينظر الألبان الي الدولة الجديدة التي يهيمن عليها الصرب علي انها دولة قمعية. ولذا كان هناك تأييد محلي لمملكة البانيا التي كانت ألعوبة في يد ايطاليا، وأدي الي قيام مملكة البانيا، بضم عدة أقاليم من تلك التي كان يقطنها أغلبية البانية في الدولة اليوجوسلافية، بعد تفككها اثناء الحرب العالمية الثانية. علي أن تلك الأقاليم عادت الي الدولة اليوجوسلافية مرة أخري بعد الحرب العالمية الثانية.


ALBANIANS
SERBIA
BULGARIA
MONTENEGRO
Mitrovica
Podujevo
Pristina
Pec
Gnjilane
Titograd
KOSOVO
Prizren
Kumanovo
Skopje
Adriatic Sea
ALBANIA
MACEDONIA
Gostivar
Debar
Ohrid
85 MILES
135 KILOMETRES
GREECE
Albanians in Kosovo
Albanians outside Kosovo

وشهدت فترة مابعد الحرب العالمية الثانية تحسناً أساسياً ملموساً في الأوضاع الرسمية للأقلية الإثنية - الألبانية في يوجوسلافيا، حيث كوزوفو اكثر مناطقها تخلفاً، رغم أن عدداً كبيراً منهم سجل نفسه علي انه تركي وهاجر الي تركيا مستفيداً من اتفاقات الهجرة، ويقول بعض الكتاب انهم فعلوا ذلك هرباً من النظام الشيوعي وليس حباً في النظام التركي. فللمرة الأولي يعترف بالألبان كجماعة عرقية متمايزة، وبلغتهم كواحدة من لغات يوجوسلافيا الرسمية، وكسبوا بالمثل حق التعليم بهذه اللغة إلا أن السياسات القمعية التي اتبعتها السلطات الشيوعية الجديدة قضت علي تلك المكاسب. وكان رئيس بوليس أمن الدولة الكسندر رانكوفيتش، وهو صربي، هو اليد القوية المنفذة لهذه السياسات. وتزايد السخط، وتزايدت بالمثل المقاومة المنظمة لألبان كوزوفو عندما تم إبقاء القبض علي المنظمين «لقيامهم بنشاط قومي». وكان الكاتب الشاب آدم ديماقي من بين الذين القي القبض عليهم عام ١٩٥٨، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات(٢).

بعد سقوط رانكوفيتش عام ١٩٦٦، فقد الصرب وأهل الجبل الأسود هيمنتهم علي الجهاز السياسي والاداري في كوزوفو، وسمح للسخط الألباني بأن ينفس عن نفسه بمظاهرات كبيرة في نوفمبر عام ١٩٦٨ دعت لمنح كوزوفو وضعية الجمهورية. كان ينظر الي هذا الحق في إنشاء جمهورية في كوزوفو أسوة بالقوميات الكبيرة الأخري في يوجوسلافيا ، علي انه الخطوة الأولي لتوحيد إقليم كوزوفو والمناطق الأخري التي تسكنها الجماعة - العرقية الألبانية وبالذات في مقدونيا - مع دولة البانيا المجاورة، وهو هدف محدد بطريقة قاطعة بواسطة عدد من ذوي المشاعر الألبانية - القومية - المتطرفة. ولقد منحت التعديلات الدستورية لعام ١٩٦٨ لإقليمي كوزوفو وفويفودنيا - بجمهورية الصرب - بعض الاختصاصات الجمهورية، بل ولقد سمح لكوزوفو أيضاً برفع العلم الألباني(٣).

ثم تم التأكيد علي هذا في دستور ١٩٧٤، حيث أصبحت كوزوفو إقليماً يتمتع «بالاستقلال الذاتي» داخل جمهورية الصرب. وحقيقة الأمر أنها تمتعت بكثير من السلطات الجمهورية داخل الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى بحكم الأمر الواقع أن لم يكن بحكم الدستور والقانون. ومرت كوزوفو كذلك بتغييرات ديموجرافية ذات مغزى نتيجة لمعدلات الولادة العالية جداً لدى الألبان من ناحية، ونتيجة أيضاً لهجرة الصرب وأهل الجبل الأسود من ناحية أخري، إذ تقول الاحصاءات ان مايقرب من ٣٠ ألفاً منهم قد تركوا الأقليم بين عامي ١٩٧١ و١٩٨١(٤).

وكوزوفو من أكثر مناطق يوجوسلافيا تخلفاً، رغم غناها بالمصادر الطبيعية، وأدت المشاكل الأقتصادية الي إثارة المشاعر القومية. كانت هناك أزمة بطالة، وساعد إقامة جامعة ألبانية في برتستينا عاصمة كوزوفو علي خلق انتليجنسيا ألبانية ضخمة لم يكن أمامها إلا القليل من فرص العمل المتاحة. كما هو الحال في مصر وجامعات الأعداد

الضخمة. فالمشكلة تؤجل الي مابعد التخرج من الجامعة لعدم وجود وظائف حقيقية بعد سن الثامنة عشرة والانتهاء من التعليم الثانوي. والاحصائيات تؤيد هذا. ففي عام ١٩٨٤ كانت نسبة البطالة في كوزوفو ١ر٢٩٪ مقارنة بنسبة ٧ر١٢٪ علي المستوي الفيدرالي اليوجوسلافي، ومقارنة بنسبة ٨ر١٪ فقط في جمهورية سلوفينيا في الاتحاد. وفي حالة كوزوفو فإن ٧٠٪ من العاطلين كانوا في الخامسة والعشرين أو أقل (٥) . لذا فليس من المدهش أن تصبح جامعة بريستينا هي مصنع تفريخ القوميين.

استمر السخط القومي بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦. وفي فبراير ١٩٧٦ حكم بالسجن لثالث مرة علي آدم ديمافي مع ١٨ آخرين في عاصمة كوزوفو بريستينا، بعد أن اتهموا بتكوين تنظيم يعمل ضد الشعب والدولة، واتهموا كذلك بإثارة «دعاية معادية» وبجرائم تعرض وحدة تراب يوجوسلافيا واستقلالها للخطر واتهم آدم ديمافي بتشكيل «حركة كوزوفو للتحرر الوطني» بهدف توحيد كوزوفو مع البانيا. كما اتهم هو ورفاقه بتوزيع منشورات تهاجم سياسة «عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف» والقيادة اليوجوسلافية. وقد وزعت هذه المنشورات بمدينة طلبة جامعة بريستينا وفي أماكن أخري في كوزوفو ومقدونيا. وحكم علي آدم ديما في هذه المرة بالسجن ١٥ عاماً(٦).

***

أحداث ١٩٨١

حدثت قلاقل قومية مرة أخري في أواخر عام ١٩٧٩، وقدم حوال عشرين شخصاً للمحاكمة.

لكن الوضع كله تفجّر في كوزوفو، في شهري مارس وابريل عام ١٩٨١. وكل المصادر في هذا المجال هي الجهات اليوجوسلافية الرسمية. اشتعلت شرارة الأحداث يوم ١١ مارس عندما قام طلبة جامعة بريستينا بالاحتجاج علي ظروفهم المعيشية. ثم في ابريل حدثت مظاهرات في العاصمة وفي مدن أخري بكوزوفو، وكان المطلب الرئيسي للمتظاهرين هو منح كوزوفو وضع «جمهورية» داخل الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي، وطالبت مجموعة بالوحدة مع البانيا.

بدأت المظاهرات بداية سلمية، لكن عندما تدخلت قوات الأمن، حدثت مصادمات قتل فيها تسعة وجرح مئات، لكن مصادر غير رسمية تقدم تقديرات أعلي من هذه بكثير، إذ ذكر تقرير لمنظمة العفو الدولية ان بياناً قد القي في اللجنة المركزية «لعصبة الشيوعيين الصرب» ذكر أن مايربو علي ٣٠٠ قتيل قد سقطوا في هذه المصادمات(٧).

أعلنت حالة الطواريء، ووصلت الي كوزوفو تعزيزات قوية من قوات الأمن ووحدات الجيش. والقي القبض علي ألفي ألباني علي الأقل. وفي يونية ١٩٨١، أعلنت السلطات انه قد صدرت أحكام علي ٥٠٦ من التظاهرين طبقاً لقانون «الجرائم الصغيرة» الذي يحكم

بالسجن حتي ٦٠ يوماً وبالغرامة. وجاءت تقارير في ٣١ أغسطس ١٩٨١ تقول ان أحكاماً بالسجن تتراوح بين عام وخمسة عشر عاماً علي ٢٤٥ شخصاً، طبقاً للقانون الفيدرالي(٨). ثم حوكم مايربو علي ٦٠ شخصاً آخرين في شهر سبتمبر. ووصل عدد الأحكام فيما بين أحداث مارس وحتى نهاية عام ١٩٨٣ الي ٦٥٨ بالسجن، و٢٠٠٠ شخص بالسجن لمدة تصل الي ٦٠ يوماً وبالغرامة(٩).

وفي يوم ١٠ مارس ١٩٨٤، أعلنت وكالة تاينوج اليوجوسلافية للأنباء انه تم الكشف عن ٧٢ «منظمة غير قانونية» تضم حوالي الف عضو. ويشير هذا الي عنفوان المشاعر القومية في كوزوڤو، والي أنها لم تجد طريقها الي التعبير إلا بمنظمات سرية صغيرة العدد وفعالة في نفس الوقت. وكانت هناك خمس مجموعات رئيسية في تلك المنظمات من المهم إلقاء نظرة سريعة علي تشكيلها لمعرفة التيارات التي كانت تشكّل الحركة القومية في بدايتها :

١ـ «الحركة من أجل التحرر الوطني لكوزوڤو MNLK كان زعيماها الأخوان يوسف وبرجوش چيوڤالا يعيشان في المنفي، وقد أطلق عليهما الرصاص في المانيا الغربية (آنذاك)، علي يد عملاء الأجهزة اليوجوسلافية علي الأغلب. وتدعو المنظمة الي توحيد جميع المناطق التي يعيش فيها أغلبية ألبانية، مع جمهورية البانيا.

٢ـ الماركسيون ـ اللينيون لكوزوڤو : GMKL وقد أطلق على زعيمها قدري زيكا الرصاص فى نفس الحادث الذى أطلق فيه على الأخوين چيوڤالا. أهداف المنظمة شبيهة بأهداف MNLK . ويبدا أنهما تخططان للوحدة عند أغتيال زعمائهما.

٣ـ الجبهة الحمراء : وهدفها وحدة المناطق ذات الأغلبية الإثنية مع جمهورية البانيا.

٤ـ الحزب الشيوعي الماركسي ـ اللينيني ليوجوسلافيا : PKMLSHJ وهدفه منح كوزوڤو وضعية «جمهورية» داخل الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي. ويبدو أن مقر الحزب كان كوزوڤو، وانه كان يضم أساساً أعضاءً في الحزب الحاكم (الشيوعي).

٥ـ الحركة من أجل جمهورية البانية في يوجوسلافيا : LRSHJ

٦ـ جريدة «زيري إيي كوزوڤو» ـ صوت كوزوڤو، التي كانت تصدر في سويسرا. وقد أطلق الرصاص علي أحد مؤسيسها نوحي بريشة وقتل في حادثة تبادل إطلاق الرصاص بعاصمة إقليم كوزوڤو بريستينا، في يناير عام ١٩٨٤.

وقد تألفت منظمة LRSHJ (الخامسة في الترتيب) في أوائل عام ١٩٨٢ بتوحيد المنظمات الثلاث المذكورة أعلاه PKMLSHJ, GMLK, MNLK. واستمرت حملات الاعتقال والمحاكمات وكان معظم المقبوض عليهم من شباب المدرسين وطلبة الجامعة والمعاهد العليا، وسن معظمهم أقل من ٢٥ عاماً، وكانت حالة نظمي خوجة نمطية، فهو مدرس عمره ٣٣ عاماً اتهم مع خمسة عشر متهما آخرين معظمهم طلبة، وقدموا لمحكمة منطقة چنيلان يومي ١٠ و١٢ يولية ١٩٨٢. كان الاتهام هو عضوية منظمة GMLK. وطبقا

لما ذكرته وكالة أنباء تانيوج[١٠] آنذاك، فقد تأسست هذه المنظمة عام ١٩٧٦ ببريستينا علي يد هدايت حسيني الذي حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً في ١٧ نوفمبر ١٩٨٢، لقيامه «بنشاط قومي» أما مجموعة چيلاني، فهي فرع المنظمة، وقد تأسست عام ١٩٧٨ علي يد نظمي خوجة الذي كان يعرف هدايت حسيني منذ عام ١٩٧٥، بالمشاركة مع بيت الله ظاهري وهو مدرس في الثلاثين من عمره وجاء في المحاكمة أن أعضاء المجموعة استخدموا أسماءً مستعارة، ودفعوا اشتراكات عضوية للانفاق علي سفريات الأعضاء وعلي نشر مطبوعات، وأقسموا بأن يدافعوا عن «حرية الألبان في يوجوسلافيا والبلقان». ويوصي دستور المنظمة الذي نشر بصحيفتهم السرية «پاروپا» ـ الطليعة ـ بتجنيد المتعلمين لأنهم اكثر قدرة علي الإقناع بمنح كوزوڤو وضع «الجمهورية». ووجه الي المتهمين اتهام بأنهم كتبوا وأصدروا ووزعوا منشورات تدعوا الجماعة ـ الإثنية الألبانية الي المشاركة في الإضرابات والمقاطعة، «تلك الأعمال المعادية للدولة اليوجوسلافية». وقد وزعوا هذه المنشورات في كوزوڤو والمدن ذات الكثافة السكانية الألبانية في جمهورية مقدونيا المجاورة. ووجهت الي بعض المتهمين تهمة «حيازة» وتوزيع أدبيات معادية مصدرها جمهورية البانيا وحلقات المهاجرين الألبان في الخارج، وانهم كتبوا علي الحيطان في مناطق عديدة شعارات عدائية مثل : «كوزوڤو جمهورية» و«تحيا جمهورية كوزوڤو الاشتراكية» و «يسقط الخونة» و «لن نخاف الإرهاب» و «لا أخوة ولا وحدة مع الشوفينيين».

وقال المتهمون في المحكمة ان منظمتهم تقوم علي المباديء الماركسية ـ اللينينية ـ الستالينية، وانه لا يمكن توجيه تهمة القيام بنشاط قومي وحدوي إليهم، ولم ينكروا أن منظمتهم تدعو الي منح كوزوڤو وضعية «جمهورية»، وانهم يأملون في النهاية ان تتوحد مع البانيا. وذكرت وكالة تانيوج التي تابعت المحاكمة إنه رغم إدعاء المجموعة بأن منظمتهم ماركسية ـ لينينية ـ ستالينية، إلا أن الأعضاء لم يستطيعوا الأقتطاف من ماركس، ولم يهتموا إلا بأعمال قادة البانيا، ولم تضبط في حيازة المتهمين اية اعمال لماركس او انجلز أو لينين. وحكم علي نظمي خوجة بالسجن خمسة عشر عاماً وعلي زملائه بأحكام تصل الي ١٣ عاماً.

كانت هذه القضية نمطية لأحكام أخري عديدة. وهي تصور كثيراً من الملامح الأساسية للمنظمات القومية ـ الألبانية في كوزوڤو في أوائل الثمانينات. فهي كلها سرية تضم شباب المدرسين والطلبة أساساً، ولكل منها فروع منتشرة داخل الأقليم كله، وايديولوجيتها ماركسية «ظاهرياً»، أما «في التطبيق» فهي قومية ـ البانية ليس لها علاقة بالماركسية المدعاة عادة. وكان هدف معظم هذه المنظمات ـ إن لم تكن كلها ـ منح وضع الجمهورية لكوزوڤو والمناطق الأخري المأهولة بالألبان في يوجوسلافيا مثل مقدونيا الغربية، علي أن يتبع ذلك وحدة محتملة مع جمهورية البانيا المجاورة. اتبعت هذه التنظيمات اسلوب الدعاية

والترويج سلمياً لأفكارها، وكان هذا ينعكس أساساً في كتابة شعار «كوزوڤو جمهورية» الذي اعتبرته السلطات تهمة تستحق عقوبة السجن. وهناك شك في أن أغلبية ألبان كوزوڤو كانت غير مؤيدة لهذا المطلب، في البداية.

كانت أحكام السجن قاسية، هدفها الردع. علي أن القضاء كان يفرق بين الشباب المتحمس، وأولئك الذين ينتمون لمنظمات. فالنوع الأول كانت محاكم الاستئناف تخفض الأحكام الصادرة عليهم. أما اعضاء التنظيمات فكانت أحكامهم أشد قسوة ولاتغيِّرها الاستئنافات. وكانت هناك في نفس الوقت شكاوي كثيرة عن سوء معاملة المساجين السياسيين الألبان. ومات مسجونان سياسيان ألبانيان بأحد سجون مقدونيا، وحكم علي مأمور السجن وعدد من حراسه بالسجن لمدد متفاوته[١١]. كان المسجونون يضربون ويعذبون، وينقلون من سجن الي آخر عدة مرات خلال فترة قضاء مدة الحكم. وكانوا يضربون في كل مرة يستقبلون فيها في سجن جديد*. وكانت ردهات هذه السجن ملطخة بالدماء وتحمل آثار التعذيب[١٢].

علي أن هدف الوصول الي وضع «جمهورية» لكوزوڤو بدا بعيداً. فبدأت بعض المنظمات السياسية تتحول من السياسات السلمية ورفع الشعارات فقط، الي العنف باستخدام المظاهرات والصدام مع البوليس، وقامت منظمات بإطلاق النار علي قوات الأمن، واختطفت منظمة أخري سيارة بوليس كان بها سلاح. وفي مايو ١٩٨٤، أتهم ستة من البان كوزوڤو بتهريب أسلحة وذخائر ومتفجرات من الخارج الي يوجوسلافيا لاستخدامها في كوزوڤو. وفي مارس ١٩٨٤ القي القبض علي مجموعة أخري بتهمة القيام بتسعة تفجيرات في بريستينا فيما بين اكتوبر ١٩٨٢ ومارس ١٩٨٤. واتهمت مجموعات أخري بإصدار منشورات تحض علي القيام بهبة مسلحة إذا لم تمنح كوزوڤو وضع «الجمهورية» بوسائل سلمية.

واتبعت سياسة «الترغيب» الي جانب سياسة «الترهيب». فمنح كوادر الحزب من الجماعة الإثنية - الألبانية وبالذات بجامعة بريستينا، مميزات. أما الذين لا يستنكرون ويدينون هذه المنظمات التي تطالب «بكوزوڤو جمهورية» فسيطهرون، وكانت الصحف بالفعل تظهر وبها قوائم من طردوا من مناصبهم.

وفي عام ١٩٨٣، نشرت مجموعة من المهاجرين الألبان في الولايات المتحدة الامريكية خطاباً مفتوحاً موجهاً الي السكرتير العام للأمم المتحدة، يحتوي علي أسماء ٥٧ عضواً بهيئة التدريس بجامعة بريستينا طردوا وألقي القبض علي بعضهم ووجه إليهم لوم علني[١٣]. وبالإضافة إلي ذلك نقل كثيرون من الألبان من المناصب العليا في الدولة، وطرد المئات من مدرسي الابتدائي والثانوي، وخفض عدد الطلبة المقبولين بجامعة بريستينا[١٤].

واستمر القمع. وفي تقرير «لمنظمة العفو الدولية» صدر عام ١٩٨٩، يذكرأنه منذ عام

١٩٨١ سجن والقي القبض علي حوالي سبعة آلاف ألباني من شباب المدرسين وطلبة الجامعات، بل وأطفال تلامذة مدارس في كوزوڤو لقيامهم بنشاط قومي. وقد حكم علي كثير من هؤلاء الشباب بأحكام سجن تصل الي ست سنوات أو اكثر[١٥].

كان هناك فارق في المواقف بين أغلبية الألبان والحكام الألبان في السلطة في كوزوڤو وأعضاء رابطة الشيوعيين. هؤلاء أطلق عليهم المتظاهرون «الخونة» وربما كان رحمن مورينا زعيم رابطة شيوعيي كوزوڤو الذي توفي عام ١٩٩٠. هؤلاء كانوا يدافعون عن الوضع القائم، عن النظام الشيوعي اليوجوسلاڤي، وعن دستور ١٩٧٤. بينما كان هدف المتظاهرين توسيع استقلالية كوزوڤو وحقها في الحصول علي وضع الجمهورية السابعة في الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلاڤي.

العلاقات مع جمهورية البانيا

وجهت السلطات اليوجوسلاڤية اللوم في أحداث كوزوڤو الي تأثير الكتب المدرسية الألبانية المستوردة من جمهورية البانيا الاشتراكية الشعبية ـ آنذاك. فقد كان مسموحاً للجماعة العرقية ـ الألبانية باستخدام اللغة الألبانية في المدارس، وكان هناك تليفزيون باللغة الألبانية وإذاعة وصحف ألبانية. كما كان الألبان في قيادة كوزوڤو ويعملون بالبوليس والمحاكم.

اتهمت بلجراد جمهورية البانيا بالتدخل في شئونها الداخلية. والحقيقة أن جمهورية البانيا بقيادة أنور خوجة، نددت بالقمع الشديد في كوزوڤو في بداية عام ١٩٨١، إلا أنها لم تتابع بنشاط قضية كوزوڤو. ولعب تطرف القيادة الألبانية دوراً في عدم شعبية مطلب الانضمام الي الدولة الألبانية. وبعد وفاة أنور خوجة وتولي رامز علي المسئولية، بدأت القيادة التخفف التدريجي للسياسات المتطرفة : فاهتمت بالوضع في كوزوڤو. وفي الثاني من شهر فبراير ١٩٩٠، وجه وزير خارجية البانيا رئيس ماليلي، نداءً الي الأمم المتحدة حول الوضع في كوزوڤو[١٦]. وفي ديسمبر ١٩٩٠ ذهب رامز علي لمقابلة زكريا كانانا سكرتير «مجلس حماية حقوق الانسان والحريات في كوزوڤو» وعبر عن تضامن جمهورية البانيا مع البان كوزوڤو [١٧].

ومن المرجح أن يزداد تدخل جمهورية البانيا في قضية كوزوڤو. فزعيم الحزب الديموقراطي الألباني، وهو أول حزب معارضة رئيسي منذ تولي الشيوعيين الألبان السلطة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، صالح بريشة والرئيس الحالي، صرح أثناء مقابلة صحفية له في جريدة يوجوسلاڤية في ديسمبر ١٩٩٠ بأن «حزبه» يعترف بكوزوڤو كجمهورية، ويعترف بحق جميع الألبان الذين يعيشون في مناطق أخري بيوجوسلاڤيا، في تقرير مصيرهم». ورغم ان هذا اعتراف بضرورة تأسيس جمهورية كوزوڤو داخل الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلاڤي، إلا انه عاد يقول : «لكن هذا لا يمنع إمكانية توحيد الأمة الألبانية

في إطار أوربا موحدة في المستقبل» [١٨].

الهجوم الصربي المضاد

عكرت هذه الأحداث المستمرة، العلاقات العرقية لمدي أبعد. فاستمر الصرب وأهل الجبل الأسود في الهجرة بأعداد كبيرة منذ عام ١٩٨١، مشتكين «من هجمات وإرهاب علي يد الألبان» الذين بدأوا في أن تكون لهم الغلبة من الناحية السكانية في بعض مناطق جنوب الصرب ذاتها. ومن الصعب تقييم هذه التقارير عن الهجمات العرقية، فالمرجح انه اثناء هذا الوضع المتردي، حدثت توترات قومية ـ عرقية أدت في بعض الحالات الي حدوث بعض الوقائع ضد السكان الصرب في المناطق ذات الأغلبية السكانية الألبانية إلا أنها لا تصل الي درجة حدوث «إبادة جماعية» كما يدعي الصرب، فحتي الإحصاءات الرسمية لاتؤيد هذه الإدعاءات التي أخذوا يرددونها في وسائل الإعلام الرسمية.

علي انه ابتداء من أواخر عام ١٩٨٥، بدأ وضع الصرب في كوزوڤو يدخل أكثر وأكثر الي الدائرة الرئيسية لاهتمام الرأي العام الصربي. قدم مائتان من مثقفي بلجراد عريضة الي «المجلس الوطني» اليوجوسلافي و«المجلس الوطني الصربي». وما أن حل عام ١٩٨٧ حتي كانت المشاعر القومية الصربية قد تصاعدت، وكانت كوزوڤو هي القضية الحرجة. وقام ٦٠ ألفاً من صرب كوزوڤو بتوقيع عريضة إدعوا فيها حدوث «إبادة جماعية» في كوزوڤو ضدهم.

كانت قيادة «عصبة الشيوعيين الصرب» تتغير، وأدي صعود سلوبودان ميلو سيڤيتش الي حدوث تغير أساسي في الموقف من كوزوڤو والأقلية الإثنية الألبانية، بعد أن ركب الحصان القومي. كان مفاد الخط السياسي الجديد أن الاستقلالية الممنوحة لإقليمي كوزوڤو وڤويڤودنيا، والمنصوص عليها في دستور ١٩٧٤، قد سارت في اتجاه ضد مصلحة الصرب، إذ تحول كل إقليم في واقع الحال الي جمهورية داخل جمهورية الصرب. وبدأت القيادة الصربية الجديدة للحزب والدولة تغير هذا الوضع بتحجيم استقلالية الإقليمين.

كانت قيادة عصبة الشيوعيين الألبان في كوزوڤو مستعدة للدفاع عن الوضع القائم في الإقليم، لكنها لم تكن مستعدة للذهاب في ذلك الي المدي الذي يدفع فيه ألبان كوزوڤو الثمن. وهكذا كان لابد من إبعادهم. وأخذت القيادة الصربية تضغط في هذا الاتجاه، حتي اضطر عظيم ڤلاسي للاستقالة من المكتب السياسي للحزب في كوزوڤو، وعظيم ڤلاسي زعيم سابق للحزب في كوزوڤو وكان مشمولاً برعاية الماريشال تيتو في السابق.

أشعلت تلك الاستقالة شرارة مظاهرات ضخمة قام بها ألبان كوزوڤو، ثم اضراب عام شمل كل الأقليم احتجاجاً أيضا علي التغيرات الدستورية التي تحجمٌ من استقلالية الأقليم والتي ضغطت القيادة الصربية لإجرائها.

أرسلت القوات إلى كوزوڤو فى فبراير ١٩٨٩، واستطاع البرلمان الصربى تمرير قوانين

دستوردية فى شهر مارس ١٩٨٩ لتحجيم استقلالية الأقليم، فقامت مظاهرات ضخمة، واصطدم المتظاهرون بقوات الأمن، وقتل ٢٤ شخصا وألقى القبض على المئات. وأضرب العمال الألبان، فألقى القبض على ألفين منهم وسجنوا لمدد تصل إلى ٦٠ يوماً، وتم فصل كثيرين وتغريمهم، وسحبت جوازات سفر مائتين. وطرد صحفيون ومدرسون وأعضاء فى الحزب الحاكم، كما طرد عدد من طلبة المدارس [١٩] .

والقي القبض في مارس ١٩٨٩ علي عظيم فلاسي، واتهم مع ١٤ آخرين بالقيام بنشاط معادٍ للثورة تعرض النظام الاجتماعي للخطر، وهي تهمة تصل عقوبتها في القانون اليوجوسلافي الي الإعدام. وبدأت المحاكمة يوم ٣٠ اكتوبر، فحدث إضراب يوم ٢٧ اكتوبر قام به ٦٠ عاملاً من عمال منجم ستاري ترج احتجاجاً علي المحاكمة المزمعة، فقامت قوات الأمن بحصار المنجم، واقتحموا المنجم يوم المحاكمة - ٣٠ اكتوبر - واعتقل منظمو الإضراب. وحدثت مظاهرات احتجاجاً علي المحاكمة في العاصمة وعدة مدن أخري في كوزوفو، تم تفريقها بالسيارات المصفّحة والغازات المسيلة للدموع.

تدهور الوضع عام ١٩٩٠

بدأت موجة أخري من المظاهرات والصدامات مع البوليس في كوزوفو في ٢٣ يناير ١٩٩٠، أدت الي مقتل ١٨ شخصاً علي الأقل - حتي نهاية يناير، وتقول بعض التقارير الصحفية أن عدد القتلي الحقيقي يصل الي اكثر من ٢٢ شخصاً. طالب المتظاهرون بإجراء انتخابات حرة، وبالإفراج عن المسجونين السياسيين، وبإنهاء حالة الطواريء. ووصلت التوترات بين الباب كوزوفو والصرب الذين يعيشون فيها الي الذري : الي حد مطالبة الطلبة الصرب ببلجراد بتوزيع السلاح عليهم للتوجه الي كوزوفو لحماية إخوانهم. وبنهاية شهر فبراير وصل عدد القتلي في كوزوفو وكلهم من الألبان الي ٣٢ قتيلاً علي الأقل. فأرسلت القوات الفيدرالية وأعلن حظر التجول في كوزوفو [٢٠].

وبدأت مناقشات في الدوائر الحاكمة والمعارضة علي السواء في جمهورية الصرب «لطرد الألبان غير المخلصين» و«إرجاعهم» الي البانيا، ودار الحديث حول ٣٠٠ الف ألباني من الذين يقومون «بنشاط هدام». وأعطي هؤلاء مهلة ٣٠ يوماً لمغادرة يوجوسلافيا، وبعضهم عاش فيها منذ عام ١٩٤٨. لكن أصبح الرقم الواقعي ٧٣٢ ألبانياً.

ثم وقعت حوادث تسمم غريبة لتلاميذ مدارس كوزوفو من الألبان وحدهم، استمرت من مارس وحتي نهاية سبتمبر ١٩٩٠، ولم تقدم لها السلطات تفسيراً حتي الآن [٢١]. وأدي هذا الي مظاهرات صاخبة قام بها الألبان وهاجموا صرب كوزوفو متهمين أياهم بتسميم الأطفال الألبان. هنا قامت الصرب بفرض النظام في كوزوفو من بلجراد مباشرة، وأوقفت مائتين من ضباط وعساكر البوليس الألبان المحليين، في نفس الوقت الذي أصدرت فيه أمراً بنقل ٢٥٠٠ ضابط وجندي بوليس صربي الي كوزوفو [٢٢]. فاستقال مدير بوليس

كوزوفو، ثم رئيس كوزوفو وستة وزراء آخرين. فعين نائب رئيس وزراء من جمهورية الصرب، مقره كوزوفو.

أخذت الصرب تسيطر باضطراد علي المفاتيح الرئيسية للسلطة في كوزوفو، سيطرة مباشرة، مستولية عليها من الألبان. ويصور انسحاب الفصيلة السلوفينية والفصيلة الكرواتية من قوات الميليشيا الفيدرالية في كوزوفو يومي ٤ فبراير والثاني من ابريل ١٩٩٠ علي التوالي، يصور السمات الصربية للتكتيكات. بل ولقد طلب انسحاب الفصيلة المقدونية من كوزوفو[٢٣]، وكرر وزير داخلية مقدونيا چوفان ترتبيشكي الطلب في أوائل عام ١٩٩١[٢٤]. وفي حركة نادرة ما كانت تحدث في ذلك الوقت، أعلن أيضاً يوم ١٨ ابريل، في محاولة للتهدئة أن الصرب قد وافقت علي اقتراح مجلس الرئاسة اليوجوسلافي الفيدرالي، برفع إجراءات الطوارىء في كوزوفو، وأفرج عن كثير من المسجونين السياسيين معظمهم من الجماعة الاثنية - الألبانية[٢٥]. وأفرج عن عظيم فلاسي والأربعة عشر متهماً معه يوم ٢٤ ابريل ١٩٩٠، كما أفرج أيضاً عن آدم ديمافي الذي قضي في السجن ٢٨ عاماً لنشاطه القومي وكان متبقياً عليه من الحكم خمسة أشهر. علي ان كل هذه الإجراءات التي اتخذت للتهدئة، كانت لا تغير كثيراً من صورة الاتجاه العام الطاغي. وما أن حلت نهاية شهر مايو ١٩٩٠ حتي كان كل الأعضاء الألبان في حكومة كوزوفو قد استقالوا احتجاجاً علي التدخل الصربي المباشر. وتوقف العمل تقريباً في «المجلس الشعبي» لكوزوفو، حيث كان الأعضاء من الصرب وأهل الجبل الأسود في المجلس يخرجون من القاعة عند التصويت، لأن الألبان يتفوقون عليهم عدداً : وتناطحت الجماعتان السكانيتان في كل مجالات الحياة : في الأقتصاد وفي الثقافة وفي التعليم الخ. وبدا كما لو أن حكومة كوزوفو التي لم يعد يهمها سوي الصرب وأهل الجبل الأسود عاجزة عن العمل.

وحاول ٦١ عضواً (البانياً) بمجلس كوزوفو الشعبي إيقاف الدستور الصربي الجديد الذي فرضته الصرب وهدفه إلغاء ماتبقي من استقلالية لكوزوفو، فاقترحوا كبديل دستوراً إقليميا جديداً يجعل كوزوفو مستقلة - أي بمعني أصح تأسيس جمهورية. ورفع رئيس المجلس چيورچي بوزوفيتش - وهو صربي! - الجلسة، علي أن تعود للانعقاد في اليوم الثاني من يولية. علي انه أجلّ الجلسة بعد ذلك حتي يوم الخامس من يولية، وكان مقدراً أن يجري الاستفتاء علي الدستور الصربي الجديد يومي الأول والثاني من يولية. علي أن ١١٤ عضواً ألبانيا بالمجلس (من ١٢٣ عضواً البانيا من أصل ١٨٣ هم كل اعضاء المجلس) اجتمعوا خارج قاعات المجلس الذي كان رئيسه قد أمر بإغلاقها. أصدر النواب الألبان إعلاناً بحق كوزوفو في تقرير مصيرها، فردت السلطات الصربية علي ذلك بحل «المجلس الشعبي» لكوزوفو وحل حكومتها أيضاً يوم الخامس من يولية. فاستقال «مجلس رئاسة» كوزوفو احتجاجاً، واتخذ «مجلس الشعب» الصربي قراراً بفرض «إجراءات

خاصة» علي كوزوفو وتولي مهام الحكم هناك[٢٦].

وبحلول سبتمبر ١٩٩٠، كان ١٥ الف موظف الباني قد طردوا منذ إغلاق «المجلس الشعبي» في ٢ يولية ١٩٩٠. وكدس طلبة صرب بجامعة بريستينا رغم وجود أماكن خالية بالجامعات الأخري في الصرب، بل وذهب البعض الي حد المطالبة بإغلاق تلك الجامعة[٢٧].

وصرح رئيس «المجلس الشعبي» لكوزوفو فوكاسين چوكانوفيتش وهو صربي، في فبراير ١٩٩١، بأن تدريس اللغة الصربية في مدارس كوزوفو سينخفض بشكل كبير، حتي يتساوي عدد الألبان المسموح لهم بتلقي الدراسة الثانوية مع عدد الصرب وأهل الجبل الأسود[٢٨].

دستور كانساناك

وفي ٧ سبتمبر ١٩٩٠، اجتمع ثلثا نواب كوزوفو سراً بمدينة كانساناك جنوب الأقليم بالقرب من جمهورية مقدونيا، وأعلنوا كوزوفو جمهورية، وأعلنوا دستورها الذي يقرر أن جمهورية كوزوفو دولة ديموقراطية لكل الشعب الألباني والقوميات والأقليات الأخري من مواطنيها، وهؤلاء هم : الصرب والمسلمون وأهل الجبل الأسود والكروات والأتراك والروماني (الغجر) وأقليات أخري تعيش علي أرضها[٢٩].

وشجبت السلطات الصربية هذا الإعلان بسرعة، وأعلن مدعي عام بريستينا انه «عمل إجرامي» وانه سيتخذ الإجراءات لتوجيه الاتهام للمشاركين فيه. وهرب كثير من المشاركين من كوزوفو وقبض بالفعل علي أربعة من المشاركين، وأعلن كذلك انه مطلوب القبض علي هاربين منهم الرئيس السابق للمجلس التنفيذي يوسف زينللهو، ورئيس ميليشيا كوزوفو السابق يوسف قراقوشي. واعتبرت كتابة أية تقارير صحفية عن الحديث جريمة يعاقب عليها القانون واحتجز صحفي كبير بجريدة «ريليندیا» هو زينون تسيلاج، وهو أيضاً سكرتير لجنة حماية حقوق الانسان ببريستينا، لمدة شهر لحضور ذلك الاجتماع وكتابة تقرير صحفي عنه[٣٠].

واستمرت المجابهة السياسية في كوزوفو، فضغطت القيادة الصربية علي وسائل الإعلام الكوزوفية الألبانية، وتم إيقاف ثلاثين صحفيا من «ريليندیا» الصحيفة الرئيسية التي تصدر باللغة الألبانية في بريستينا، لأنهم كتبوا مقالات عن إضراب سياسي قام به الالبان في فبراير ١٩٨٩. وخلال عام كان قد تغير خمسة رؤساء تحرير للصحيفة[٣١]. وتم إيقاف البث التليفزيوني والإذاعي الناطق بالالبانية من بريستينا وفي أغسطس ١٩٩٠ أوقفت «ريليندیا» عن الصدور.

طرد ١٥٠٠ ضابط وعسكري شرطة ـ الباني، وآلاف الموظفين الذين رفضوا الاعتراف بسلطة الصرب، وحل صرب محل كل هؤلاء وفي سبتمبر ١٩٩٠ تم تحرير الدستور الصربي الجديد، وانتهي ـ من الناحية الفعلية ـ الاستقلال الذاتي لإقليمي كوزوفو

وڤوڤودنيا، وأعيد تسمية كوزوڤو باسم «كوزوڤو ـ ميتوهيا»
حل محل المنظمات السرية غير القانونية التي كان لها شكل تنظيمي لينيني، تنظيمات جماهيرية :

* التحالف الديموقراطي لكوزوڤو،
* الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي لكوزوڤو،
* حزب الفلاحين الديموقراطي لكوزوڤو،
* برلمان شباب كوزوڤو،
* ولجنة الحقيقة حول كوزوڤو.

وتأسست منظمة أخري في فبراير ١٩٩٠، هي «مجلس مبادرة بيك»، لإرجاع الألبان الذين سبق وان هاجروا من كوزوڤو لمجابهة مايقوم به الصرب من توطين. ولقد أسست المنظمة فروعاً لها في سالزبورج بالنمسا ونيويورك والنرويج والسويد. وادعت ان في تركيا وحدها ٣٥ الف الباني أبدوا استعدادهم للعودة(٣٢). وجاء في تقارير صحفية في أواخر عام ١٩٩٠ عن تأسيس «الحزب المسيحي الديموقراطي الألباني» الذي أعلن أن عضويته وصلت الي ٧٠ ألفا وأن له فروعاً في بريستينا وزغرب وتيرانا عاصمة جمهورية البانية وشكودر.

والتحالف الديموقراطي لكوزوڤو KDA هو أهمّ هذه المنظمات الجديدة، وزعيمه الكاتب الألباني المنشق ابراهيم ريوجوفا. وقد نجح الحزب في تحويل فروع «التحالف الاشتراكي للشعب العامل» في كوزوڤو لتصبح فروعه هو، وأصبح بحق الحزب الجماهيري لألبان كوزوڤو ووصلت عضويته الي مئات الالاف. وكانت إحدى العلامات المميزة لتضامن الألبان، الاتفاقات التي عقدت بين ١٤ مارس وأول مايو ١٩٩٠ بين عشرات العائلات الألبانية المتناحرة التي بينها «ثأر» وهي إحدي السمات المميزة للمجتمع الألباني[٣٣].

قاطع «التحالف الديموقراطي» والأحزاب والمنظمات الألبانية في كوزوڤو، الاستفتاء الذي جري في جمهورية الصرب في أول يوليه ١٩٩٠ حول تعطيل الانتخابات الحرة حتي يتم إقرار الدستور الجديد الذي يحجّم بشدة من استقلالية كوزوڤو وڤويڤودنيا. فلم يزد عدد الذين أدلوا بأصواتهم في كوزوڤو علي ٢٥٪. ذلك أن نجاح الاستفتاء يعني انه خلال الانتخابات التالية ستعامل كوزوڤو كمجرد جزء من جمهورية الصرب، وسيتوقف البان كوزوڤو عن كونهم أغلبية في بلدهم، لها قدرة سياسية علي الحركة في البنية الفيدرالية اليوجوسلاڤية، ليتحولوا الي أقلية محضية في الصرب. كان من الحتمي مقاطعة هذه الانتخابات التي جرت في ديسمبر ١٩٩٠ وشهدت انتصار سلوبودان ميلو سيڤيتش.

الاسلام في كوزوڤو

ألبان كوزوڤو مسلمون في أغلبيتهم، ليس فيهم غير ٥٠ الف ألباني يتبعون كنيسة روما

الكاثوليكية. يعيشون أساساً في منطقة ڤيتنتينيا أو بوستينيا وحول مدينة بريزرن. ويقول بعض الدارسين أن الباني يوجوسلاڤيا ليسوا متدينين، وأن معظم «الخوجات» يعارضون نمو «القومية الألبانية»(٣٤). وتقول التقارير الرسمية ان أحداً من أئمة ومدرسي وطلبة «المدارس الدينية» لم يشارك في مظاهرات عام ١٩٨١، بل علي العكس من ذلك، شاركوا في محاولات لحل «الوضع المعقد»(٣٥). لكن هذا الوضع ليس قائماً في مقدونيا، حيث حاولت السلطات أن تحمي المسلمين السلاڤ مما يرونه كاختراق من القومية الألبانية باستخدام الدين الاسلامي.

علي أن القمع المستمر في كوزوڤو دفع قيادة الجماعة الاسلامية في يوجوسلاڤيا لرفع لواء المسألة الكوزوڤية. وفي مارس ١٩٩٠ أشارت تلك القيادة الي أن جميع الذين قتلتهم الميليشيات في كوزوڤو كانوا من المسلمين، وقدمت القيادة احتجاجاً حول حالة الطوارىء هناك الي الحكومة الفيدرالية، والي «مجلس الرئاسة اليوجوسلاڤي»(٣٦).

ومثلما حدث تغير سياسي في كوزوڤو حيث انتقلت المعارضة من حلقات سرية صغيرة الي أحزاب جماهيرية تشمل كل قطاعات المجتمع، كذلك بدأت الجماعة الإسلامية أيضاً تنحاز في مشكلة كوزوڤو، إلي جانب الجماعة العرقية الألبانية.

وقد ذكرنا استطلاع الرأي العام الذي ذكر أن في إقليم كوزوڤو اكبر نسبة من المؤمنين في كل الجمهوريات اليوجوسلاڤية، ونضيف هنا انه لاتوجد صلات رسمية بين حزب SDA وهو الحزب الاسلامي السلاڤي الرئيسي في البوسنة والهرسك، وبين KDA الحزب الرئيسي في كوزوڤو، غير انه يبدو هناك بعض التعاطف بينهما. أما في جمهورية الجبل الأسود، فقد خاض المسلمون السلاڤ، والألبان، المعركة الانتخابية في ديسمبر ١٩٩٠ علي قائمة مشتركة(٣٧).

ويظل الدين عاملاً هاماً في البلقان، علي عكس بقية دول أوربا، وأوربا الغربية علي وجه الخصوص. والمرجح أنه يتم تعاون في المستقبل بين الجماعة ـ العرقية الألبانية، وبين المسلمين السلاڤ في البوسنة والهرسك، بل والمسلمين في السنجق جنوب الصرب، وفي مقدونيا.

وهناك حوالي عشرة ألاف كرواتي كاثوليكي يعيشون في كوزوڤو، هذا غير الألبان الكاثوليك الذين ذكرناهم. وقد اتهمت السلطات الصربية ووسائل إعلامها، الكنيسة الكاثوليكية بتأييد مطالب الألبان بتأسيس «البانيا الكبري»، وبالقيام بنشاط تبشيري بين الألبان لتحقيق هذا الهدف. وعلي سبيل المثال اتهمت مجلة «روجا»، وهي مجلة نصف شهرية تصدر في بلجراد، في عددها الصادر في ٢٨ سبتمبر ـ اكتوبر عام ١٩٩٠ «الڤاتيكان بالتآمر مع الأمريكان ووكالة المخابرات الأمريكية بالتخطيط لإدخال كوزوڤو في «البانيا الكبري»، وتقليص جمهورية الصرب لتصبح دولة ارثوذكسية صغيرة تعتمد علي

أوربا الكاثوليكية»[٣٨].

ويوضح هذا المقال، استمرار العداء التقليدي القديم جداً بين الصرب الارثوذكس والكروات الكاثوليك، حيث تصور الصرب في هذا المقال وجود تحالف معادٍ لهم بين الكروات والسلوفينيين الكاثوليك والألبان المسلمين لتفتيت يوجوسلافيا علي حساب تحجيم الصرب. ووصلت تلك الادعاءات الي ذروتها يوم ٤ أغسطس ١٩٩٠، عندما قامت الميليشيات الصربية في كوزوفو بغارة علي كنيسة كاثوليكية وعلي دير كاثوليكي، وصادروا كمية أدوية!

هكذا انتهت تركة تيتو بالنسبة للألبان، وانتهي دستور ١٩٧٤. وأصبحت الأغلبية الساحقة للألبان في كوزوفو، أقلية في جمهورية الصرب، وتحول إقليم كوزوفو صراحة وبلا مواربة ليصبح تحت الاحتلال العسكري الصربي.

كان قمع كوزوفو الذي تحدثنا عنه : من عمليات القتل والسجن والتعذيب والمحاكمات وإسكات وسائل الاعلام، وطرد الموظفين والمدرسين الألبان ليحل محلهم صرب، كان كل هذا يحدث في ذات الوقت الذي كانت فيه كل جمهوريات يوجوسلافيا تخوض فيه تجربة الانتخابات العامة الحرة، وتأسيس الأحزاب السياسية، لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية، بعد نهاية احتكار «رابطة الشيوعيين» للعمل السياسي.

وانه لمن المؤسف رغم الحريات الديموقراطية أن تكون المعارضة الرئيسية للرئيس سلوبودان ميلوسيفيتش في الصرب نفسها، تحمل نفس القدر من التعصب القومي الأعمي والشوفينية فيما يخص ألبان كوزوفو من القوميات الأخري.

علي أن الصرب لا يمكن أن تحكم كوزوفو بالقوة، فليس هناك شعب - أي شعب - يقبل الاستعباد. وألبان كوزوفو يملكون الظروف التي يستطيعون فيها التحرر. لذا فكوزوفو هي الحرب القادمة بعد البوسنة - والهرسك.

ب- الألبان خارج كوزوفو

ألبان الجبل الأسود وجنوب الصرب

يعيش أربعون الف ألباني في جمهورية الجبل الأسود ويشكلون ٥ر٦٪ من سكانها، ويقطن معظمهم علي حدود إقليم كوزوفو وجمهورية البانيا المجاورة.

وكما هو الحال في جمهوريات الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي الأخري، فالألبان لهم مدارسهم ووسائل إعلامهم باللغة الألبانية. وفي المناطق الثلاث التي يسود فيها الألبان (أولتسيني، وتوزي، وبلاف) كان هناك - في عام ١٩٨٣ - خمسة آلاف طالب ابتدائي و١٢٣٠ طالبا ثانويا. ويذيع راديو تيتوجراد برنامجاً باللغة الألبانية، وكانت هناك بالمثل خطة لقناة تليفزيونية بالألبانية. وفي عام ١٩٧٨، صدرت مجلة «كوها» (الزمن) باللغة الألبانية تصدر من تيتوجراد وتوزع ألفي نسخة يباع نصفها في منطقة أولتسيني. وإلي

جانب هذا، كانت هناك جمعيات ثقافية وفنية ألبانية[٣٩].

علي ان أحداث كوزوڤو كان لها وقعها في الجبل الأسود. فطرد عام ١٩٨١ عدد من الألبان العاملين في مجال التعليم من «رابطة الشيوعيين»، لقيامهم بنشاط قومي، بعد أن عقدت ندوة في شهر سبتمبر هاجم فيها الألبان المشاركين السياسات التعليمية للألبان.

كانت السلطات تخشي جمهورية البانيا المجاورة وتأثيرها، بسبب وصول إذاعتها وبثها التليفزيوني. وحدثت نشاطات «وحدوية» في پلاڤي، ومرة أخري كانت المدارس هي ساحة هذا النشاط. وحدث نفس ماحدث في كوزوڤو وجمهورية مقدونيا، إذ قالت سلطات الجبل الأسود أن الكتب المدرسية المستخدمة في المدارس المحلية والمستوردة من جمهورية البانيا، كانت هي وسائل نقل المشاعر القومية الألبانية. وكثيرا مايتحدث الألبان القوميون في كوزوڤو عن المناطق المأهولة بالسكان الألبان في الجبل الأسود، علي أنها جزء لا يتجزأ من جمهورية كوزوڤو المقترحة، أو من مشروع دولة الوحدة المقترحة مع جمهورية البانيا. ويتابع ألبان الجبل الأسود أحداث كوزوڤو عن كثب، إلا ان عددهم ليس كبيراً بحيث يأخذون زمام المبادرة. علي أنهم تحالفوا مع المسلمين السلاڤ الأكثر عدداً والذين يؤلفون ٤ر١٣٪ من سكان الجبل الأسود. في الانتخابات العامة التي جرت في الجبل الأسود في ديسمبر ١٩٩٠. وكانت النتيجة شبيهة بما حدث في الصرب عندما فاز الشيوعيون ليصبح الحزب الشيوعي علي رأس الأحزاب التي فازت، اذ فاز بـ ٨٣ مقعداً من ١٢٥، ثم جاء الثاني: الحزب اليوجوسلاڤي بقيادة أنتي ماركوڤيتش واسمه «تحالف القوي الإصلاحية» وفاز بـ ١٧ مقعداً. ثم أتي في المكانة الثالثة «التحالف الديموقراطيّ» للمسلمين والألبان الذي فاز بـ ١٣ مقعداً[٤٠].

ويعيش الألبان بأعداد كبيرة الي حد ما جنوب جمهورية الصرب نفسها. (وأساساً في نواحي بوچانوڤاتس وميد ڤيديا وبريسيڤو) وكان يعيش في جنوب الصرب عام ١٩٨٢ ما يقرب من نصف مليون نسمة، ٨٠٪ صرب، ١٠٪ ألبان. علي أن الألبان كانوا يؤلفون ٥٣٪ من سكان ناحية بوچانوڤيتش و٣٠٪ من سكان ناحية ميدڤيديا، و٨٥٪ من سكان ناحية بريسيڤو[٤١].

وادعي الصرب ـ الأقلية ـ الذين يعيشون في هذه النواحي الثلاث أن الألبان وجهوا ضغوطاً عليهم بمحاولات اغتصاب بناتهن وبالايذاء البدني ونبش القبور، وانه نتج عن ذلك هجرة الصرب وجماعات سكانية أخري، منها الغجر بالذات، مما أدي الي أن أصبحت هناك مناطق البانية خالصة في قلب هذه المناطق. ومرة أخري، يدعي الصرب بأن الألبان ينفذون سياسة غير عادلة لشراء منازل الصرب[٤٢]. وحقيقة الأمر انه لايمكن تقييم هذه الادعاءات علي الوجه الصحيح إذ تختلط الحقائق بالأكاذيب. فهجرة الصرب وسكان آخرين من هذه المناطق الثلاث حقيقة. لكن الدوافع الاقتصادية ومعدل المواليد المرتفع

للألبان، هي أيضاً عوامل لابد من وضعها في الاعتبار(٤٣).

ألبان مقدونيا

يشكل الألبان اكبر أقلية في جمهورية مقدونيا ويعيشون معاً في «مستوطنات» في غرب الجمهورية علي حدود جمهورية البانيا. وأيضاً في شمالها الغربي علي حدود إقليم كوزوفو، وفي العاصمة سكوبي حيث يشكلون ١٤٪ من سكانها.

وهم يشكلون الأغلبية الساحقة في نواحٍ كثيرة في الغرب، ففي ناحية تيتوفو هناك ١١٣ الف الباني، مقابل ٣٨ الف مقدوني. وفي ناحية جوستيڤار هناك ٦٣ الف الباني مقابل ١٨ الف مقدوني، وفي كيتسيڤو هناك ٢٣ الف الباني مقابل ٢١ الف مقدوني. وفي ديبار هناك ١٠ آلاف الباني مقابل ٢٥٠٠ مقدوني. أما في المدن فليس هناك ذلك الفارق الملحوظ. ففي مدينة تيتوفو هناك ٢٢ الف ألباني، و١٨ الف مقدوني، وألفا تركي(٤٤). وطبقاً لإحصاء ١٩٨١، كان في مقدونيا ٣٧٧٫٧٠٠ الباني يؤلفون ١٩٫٨٪ من السكان. وكان عددهم عام ١٩٧١ حوالي ٢٨٠ الفاً. ولقد قدم وفد من تيتوفو الي مؤتمر «عصبة الشيوعيين المقدونيين» يوم ٢٦ ابريل ١٩٨٨ تقريراً ذكر فيه أن معدل المواليد فى تيتوفو حيث يتركز الألبان ضعف المعدل العام لكل يوجوسلاڤيا ثلاث مرات.

الأقلية الألبانية فى مقدونيا إذن هى أقلية كبيرة لها معدل مواليد مرتفع، تتحدث لغة مختلفة، وتتركز في مناطق بعينها وخاصة فى الريف، وهم مسلمون وسط أغلبية مسيحية أرثوذكسية.

الثقافة والتعليم

تعهدت السلطات اليوجوسلاڤية بعد الحرب العالمية الثانية بحل المشاكل القومية تحت شعار «الأخوة والوحدة» فاعترفت بالمقدونيين لأول مرة كأمة مفضلة مع حقهم فى جمهورية داخل «الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلاڤى». واعترف بالألبان كقومية، وليس كأمة، حيث أن وطنهم القومى يوجد فى جمهورية ألبانيا خارج يوجوسلاڤيا. وطبقاً لذلك منح الألبان حقوقاً تعليمية وثقافية. وفى عام ١٩٥١ كان فى مقدونيا ٢٠٠ مدرسة ألبانية توظف ٦٠٠ مدرس تخدم ٢٦ ألف تلميذ. وفى عام ١٩٧٣، وصل العدد إلى ٢٤٨ مدرسة يعمل بها ٢١٥٠ مدرساً، وتخدم مايربو على ٦٠ ألف تلميذ. وازداد هذا الرقم عام ١٩٨١، إلى ٢٨٧ مدرسة ابتدائية يعمل بها ثلاثة آلاف مدرس وتخدم ٧٤ ألف تلميذ وأن عدد طلبة المدارس الثانوية يصل إلى ٨٢٠٠ طالب (٤٥).

وتمتع ألبان مقدونيا إلى جانب ذلك بصحيفة يومية تصدر بلغتهم وبرامج راديو وتليفزيون. هذا إلي جانب كثير من الجمعيات الثقافية والأدبية وفرق مسرحية ونوادٍ رياضية.

نمو القومية الألبانية

من الملاحظ أن نسبة عدد الأعضاء في «عصبة الشيوعيين» ـ الحزب الحاكم في يوجوسلافيا ـ من القوميات والأقليات أقل من نسبتهم السكانية. وإذا اخذنا ارقام العضوية عام ١٩٨١ بمدينة سكوبي نجد أن نسبة المقدونيين أعلى بكثير في عضوية العصبة من نسبتهم السكانية، وكذلك الأقلية الصربية[٤٦].

المجموعة القومية / العرقية	نسبتها لعدد السكان	نسبتها في الحزب الحاكم
المقدونيون	٦٧٪	٨٢٫٩٪
الألبان	١٤٫٤٪	٥٫٤ ٪
الصرب	٤٫٩ ٪	٥٫٦ ٪
الغجر	٣٫٦ ٪	٠٫٦٣ ٪
الاتراك	٣٫٤ ٪	١٫١ ٪
المسلمون البوماك	٣٫٤ ٪	٠٫٩ ٪

هكذا فإن كان للمقدونيين تمثيلا أعلي في «عصبة الشيوعيين» الحاكمة من نسبتهم في السكان، بينما كان العكس صحيحاً بالنسبة للأقليات الأخري عدا الصرب. وكان ذلك الوضع نموذجاً للوضع في كل الجمهوريات ككل. ومعني ذلك أن الأقليات لم تكن معنية بالانضمام للحزب الشيوعي الحاكم، وقد يكون أحساسهم بالظلم أيضاً، هو الذي دفعهم الي هذا. وليس تحت أيدينا من المصادر مايجعلنا نعرف مدي تمثيل الأقليات في المناصب العليا في «عصبة الشيوعيين».

وعندما سقط رانكوفيتش عام ١٩٦٦، وكما حدث في كوزوفو عندما قام الألبان آنذاك بمظاهرات صاخبة في نوفمبر عام ١٩٦٨ مطالبين بمنح كوزوفو وضعية الجمهورية، حدثت مظاهرات أيضاً في تيتوفو وطالب الألبان بأن تنضم المناطق ذات الكثافة السكانية الألبانية في مقدونيا الي كوزوفو لتأسيس جمهورية سابعة في الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي.

ويعتقد أن تأسيس مثل هذه الجمهورية، ليس إلا المرحلة الأولي في «مؤامرة ألبانية» لفصل المناطق المطلوب ضمها الي كوزوفو وانفصالها عن مقدونيا وتنضم الي دولة البانيا المجاورة.

تحرك الألبان في مقدونيا بصورة شبيهة لما حدث في كوزوفو عام ١٩٨١. بل إن السلطات في مقدونيا عاملتهم بشكل أكثر قسوة مما حدث في كوزوفو. ذلك انه لو حدث

وأن انفصلت المناطق ذات الكثافة السكانية الألبانية، في غرب مقدونيا، فستقزّم جمهورية مقدونيا بشدة، ولاشك أن ذلك سيجدد المطالب البلغارية والصربية واليونانية علي الجزء المتبقي. فنمو المطالب الألبانية القومية في مقدونيا لايعني القضاء علي تكامل هذه الجمهورية فحسب، لكنه يقضي علي الأمة المقدونية ذاتها.

وفي يولية ١٩٨١، أيدت «لجنة العلاقات بين القوميات» «بالمجلس الشعبي المقدوني»، مطالبة لجنة الشئون السياسية والاجتماعية - بالمجلس أيضاً - لإعادة النظر في المناهج والكتب الدراسية كمحاولة للوقوف في وجه المد القومي بين «الجماعة الألبانية». ودعت اللجنة الي زيادة ساعات تدريس اللغة المقدونية في المدارس الألبانية، واتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع تلك المدارس من تجاهلها تدريس اللغة المقدونية. وفي أغسطس ١٩٨١ لاحظ «مجلس التربية» بمقدونيا «أن هناك مصادر ضعف في مناهج وبرامج التدريس، وفي الكتب والمراجع الدراسية التي يستخدمها ألبان مقدونيا، وذكر «ان الناشرين لم يكونوا حريصين بما فيه الكفاية في منع «اختراق الميول القومية الألبانية الوحدوية المعادية للثورة، للكتب المدرسية وأدبيات أخري»[٤٧].

وبدأت الاتهامات توجه الي الألبان.

في ٧ مايو ١٩٨٤، ذكر وزير الداخلية المقدوني في تقرير له ان نشاطات «العدو الداخلي» من مواقع القومية والوحدوية الألبانية أصبحت اكثر كثافة، وانه خلال عام ٨٣ وحده، تم الكشف عن ثلاث منظمات غير قانونية تضم ١١ قيادياً عضواً وستة يوزعون منشورات عدائية، و١٥ يكتبونها، وتحتوي تلك المنشورات علي مواد تحرض علي القومية والوحدوية الألبانية. وتم الكشف عن ١٦٠ شخصا يعلقون تعليقات عدائية![٤٨].

وفي ١٠ ديسمبر ١٩٨٦ نشرت صحيفة «عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف - بوربا، عن العقوبات المتكررة التي يلقيها الحزب علي المسئولين الألبان الذين يشاركون في حفلات زفاف واحتفالات عامة بمدينة تيتوفو ويتم فيها التعبير عن مشاعر بهيجة قومية فياضة».

ونشرت الصحيفة أيضا ان رئيس تحرير بالاذاعة الألبانية بسكوبي «يمتلك مكتبة تسجيلات للموسيقي والأغاني الشعبية الألبانية وصلت الي حوالي الف شريط منها ٢٦٥ شريطا مضمونها قومي. وكثير منها أتي من دولتي البانيا وبلغاريا».

وأشار المقال كذلك الي مخاطر الفرق الفنية غير المسجلة التي تستخدم نصوصاً لم توافق عليها الرقابة، وذات محتوي قومي، وهي موجودة أيضاً في محطات إذاعة البانية محلية في ست مدن.

قامت السلطات المقدونية بحملة لتغيير الأسماء الألبانية مشابهة لتلك الحملة التي قامت بها السلطات في بلغاريا لتغيير أسماء الأقلية التركية هناك. فذكرت وكالة تانيوج اليوجوسلافية للأنباء في ١٩٨٦/١٢/١٧، تم طرد أحد مسجلي المجلس المحلي لمنطقة

تيتوفو من عضوية عصبة الشيوعيين لأنه سجل اسماء تستثير المشاعر القومية، وتشير الي الارتباط بجمهورية البانيا الشعبية الاشتراكية.

وكان ضمن الأسماء الألبانية المثيرة للاهتمام : ألبان، والبانيا، وشكيب فليامور (العلم الألباني)، وكوستريم (النداء)، وليبر يدوام (نريد الحرية) و«النسر الأحمر». وطالبت الصحيفة بضرورة استخدام الأسماء المقدونية للمدن والنواحي، وليس الأسماء الألبانية المقابلة.

أدي منع الاسماء والموسيقي والأغاني الشعبية الألبانية، الي موجة احتجاج من كتاب كوزوفو الألبان.

وقد قامت السلطات المقدونية باتخاذ إجراءات قمعية ضد الألبان أشد وأنكي من الاجراءات التي اتخذها الصرب ضد البان كوزوفو. فقامت باتخاذ إجراءات إدارية ضد العائلات الألبانية الكبيرة خوفاً من معدل المواليد المرتفع عند الألبان. وقد اتهمت وكالة أنباء آتا ATA يوم ١٩٨٨/١/٢٨، وهي وكالة الأنباء الرسمية لجمهورية البانيا الاشتراكية، اتهمت السلطات المقدونية استناداً الي مقتطفات من صحف يوجوسلافية، بأنها «تطبق سياسات «نيو مالتوسية» لكبح زيادة المواليد الألبان، من بينها أن تدفع العائلات نفقات الرعاية الطبية لأي عدد من أطفالها يزيد علي اثنين، وانه لن تمنح كذلك علاوات الأطفال لأكثر من طفلين في العائلة الواحدة، بل وقد تفكر الدولة في فرض عقوبات مالية علي الأطفال الزائدين. وطرد عدد من الموظفين الألبان وتعرض آخرون للاضطهاد، وطرد أيضاً ٣٠٠ ضابط الباني من القوات المقدونية لأنهم حضروا حفلات زفاف، استمعوا فيها الي أغانٍ وطنية وشعبية البانية، وبالمثل أغلقت نواد ثقافية البانية ومُنِعَ بقرار بيع العقارات في نواحي غرب مقدونيا، بغرض منع الألبان من شرائها من المقدونيين حتي لا تتحول الي مناطق مغلقة عليهم. كذلك منع قرار آخر الشباب حتي سن الخامسة عشرة من حضور دروس الدين المنظمة.

واتخذت إجراءات في مقدونيا في مجال التعليم كان من جرائها انخفاض عدد التلاميذ الألبان الذين يدرسون بلغتهم، فانخفض عددهم عام ١٩٨١ من ٨٢٠٠ طالب ثانوي الي ٤٢٢١ طالباً في يناير ١٩٨٩. وقد أثار تدريس الأطفال والطلبة الألبان باللغة المقدونية أجبارياً ثائرة الطلبة وقام عدد منهم بعمليات مقاطعة وإضراب.

وقامت موجة من المظاهرات عام ١٩٨٨، في عدد من المدن المقدونية ضد الإجراءات، تطالب بحقوقها التي يضمنها دستور ١٩٧٤. وقامت السلطات بعمليات قمع مضادة، احتجاز المئات، لمدد تصل الي ستين يوماً، وتقديم منظمي هذه المظاهرات للمحاكمة، وحكم علي عدد منهم بالسجن لمدد تتراوح بين ست وإحدي عشرة سنة، وبينهم فتيان وفتيات في السادسة عشرة.

والبان مقدونيا مسلمون باستثناء عدد صغير من الارثوذكس والكاثوليك. وقد جاء معظم ألبان مقدونيا من منطقة بريزن بكوزوفو.

وتنظر السلطات المقدونية الي الاسلام علي انه أحد العوامل الهامة وراء اشتعال القومية الألبانية، وهي تعتقد أن الألبان يستخدمون الدين الاسلامي لامتصاص أقليات إسلامية أخري مثل الاتراك والبوماك وبعض الغجر المسلمين. وقد علقت مجلة «نين» البلجرادية في ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ علي عدد من البان مقدونيا الذين يتلقون تعليمهم في دول عربية، وانه تم بناء ١١٠ مساجد في السنوات العشر الأخيرة في مقدونيا الغربية. وذكر المقال ان التعليم الديني لمسلمي البانيا في مقدونيا يتوسع اكثر من اللازم، وأن المجتمع الاسلامي في مقدونيا يتخطي بذلك القواعد القانونية وبالذات فيما يخص تعليم الدين للفتيات القاصرات.

لكن كل هذه الدلائل تشير ليس فقط الي صحوة قومية البانية بين ألبان مقدونيا، ولكن أيضاً الي صحوة إسلامية. ويشير أيضاً الي ان الاسلام جزء من القومية الألبانية، وانه يشكل عاملاً هاماً في هويتهم. حتي لو لم يكونوا مؤمنين ولو لم يكونوا متدينين.

جماعات منفصلة

وحقيقة الوضع الاجتماعي في مقدونيا، انه ليس هناك إلا اختلاط قليل جداً بين الجماعات العرقية المختلفة. ويظهر هذا جلياً في دراسة نشرها عام ١٩٧٤ عالم الاجتماع الدكتور إليا چوزيڤوسكي(٤٩) عن الجماعات المقدونية والألبانية والتركية في قري ناحية تولوج وهي تشمل مناطق حول تيتوڤو وچو ستيڤار. تقول الدراسة أن ٩٥٪ من الأسر الألبانية والمقدونية و٨٤٪ من الأسر التركية لا تسمح لأبنائها بالزواج من فتيات من قومية مختلفة، والنسبة اكبر في الفتيات. ويظهر هذا جلياً في ان البان مقدونيا يفضلون إرسال بناتهن للدراسة بجامعة بريستينا بكوزوڤو حيث سيقابلن ألباناً فقط. ولم تلاحظ الدراسة وجود أي زواج مختلط بين المقدونيين من ناحية والألبان والاتراك من جانب آخر، رغم هيمنة النظام الشيوعي. وهنا تظهر الأهمية القصوي للدين.

وقد حدث انتقال من الريف الي المدينة خلال فترة التصنيع فيما بعد الحرب العالمية الثانية، لكن هذا الانتقال يختلف من جماعة الي اخري، فهذه النسبة عند المقدونيين تصل الي ٤٢٪، بينما لاتزيد علي ١١٪ بين الألبان في نفس الفترة. وهناك كثير من القري المقدونية لا يسكنها الآن غير المسنين، رغم أن السلطات المقدونية حاولت التغلب علي هذه المسألة بتقديم جوائز مالية للشباب المقدوني الذي يظل في الريف أو يعود الي قريته. وهناك أيضاً ظاهرة وجود قري جديدة يطلق عليها اسم «الويكإنديكا - (أي قري عطلة نهاية الأسبوع)، التي تظل خالية طوال الأسبوع ثم تزدحم بسكانها وأصحابها من أغنياء المقدونيين، وهي مماثلة «للداتشا» في الاتحاد السوڤييتي السابق ودول أوربا الشرقية.

فظاهرة اندثار قري بأكملها لهجرة قاطنيها وظهور قري الاثرياء، تتناقض تناقضاً واضحاً مع القرى الألبانيةوقرى الغجر، الذين تظهر الأعداد الكبيرة من فتيانهم وأطفالهم فى شوارعها.

وهكذا رغم شعار «الإخاء والوحدة»، تظهر صورة عدم الثقة واغتراب الألبان والأقليات الأخرى عن المقدونيين. وينعكس هذا فى العلاقات اليومية بمواقف متشددة يزداد تطرفها من يوم لآخر.

وفى عام ١٩٨٨ أدخلت مقدونيا تعديلاً على دستورها ينص على انها «الدولة ـ الأمة للشعب المقدونى» بدلاً من «دولة للشعب المقدونى والأقليات الألبانية والتركية». ويعكس هذا القلق المقدونى المتزايد من نمو القومية الألبانية، والتفكك الممكن للاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافى، الذي حدث بعد ذلك بالفعل. وفى مواجهة مطالب صربية ويونانية وبلغارية مقبلة بعد انفصال كل جمهورية من جمهوريات الاتحاد.

أحداث عام ١٩٩٠

يراقب ألبان مقدونيا الوضع فى كوزوفو عن كثب فهو مؤشر هام لما يحدث داخلياً فى مقدونيا. ولقد تدهورت الأحداث في كوزوفو بشدة خلال عام ١٩٩٠. ففى أول فبراير ١٩٩٠ قام ألفا ألبانى ـ مقدونى بالمطالبة بمنح المناطق التى تسكنها أغلبية ألبانية استقلالها. وأوقف المتظاهرون المرور وسط مدينة تيتوفو، ورفعوا شعار «نريد ألبانيا الكبرى». على أن االبوليس فرقهم بسرعة [٥٠] . على أن الوضع فى مقدونيا ظل هادئاً نسبياً خلال معظم ١٩٩٠، لأن أحداث كوزوفو أصبحت فى مسرح الأحداث.

على أن قضية اللغة فى التدريس وفى الهيئات الرسمية ظلت حية بالنسبة لألبان كوزوفو، فهى متعلقة بالهوية والمصير. ففى ١٩ يونية ١٩٩٠، وقع ١١ ألف ألبانى من مدينة ستروجا عريضة قدموها إلى كل من «مجلس الشعب» المقدونى وبلدية ستروجا، و «مجلس الشعب» الفيدرالى اليوجوسلافى، يطالبون فيها بتعليم ألبانى «خالص» بمدرسة ستروجا. على أن السلطات المقدونية ظلت على موقفها من مثل هذه المطالب والعرائض [٥١] . وفى يوم ٢٨ أغسطس رفضت الحكومة المقدونية عرائض مماثلة من جماعات ألبانية، تطالب بالإضافة إلى موضوع اللغة، بعودة المدرسين الألبان من الموقوفين عن العمل لأسباب سياسية، وأيضا بمراجعة المناهج. ورفضت الحكومة المقدونية كل هذه المطالب والعرائض، لأنها «لا تتمشى مع الدستور ومواده الجديدة والتى تقرر أن مقدونيا *دولة للشعب المقدونى*»[٥٢] .

ولم يكن سبب *الهدوء* الذى ساد هو تراجع السلطات المقدونية أو تراجع الألبان، إنما التغيرات السياسية التى سمحت لألبان مقدونيا بتنظيم أنفسهم علناً. وأصبح حزب «من أجل الرخاء والديمقراطية لمقدونياPDP»، هو حزب ألبان مقدونيا *الرئيسى*، وانتخب نيفزات

خليلي مؤسسه، رئيساً له في ١٥ أغسطس ١٩٩٠، وخليلي مدرس لغة انجليزية من تيتوفو. ونادى الحزب بمقاطعة اللغة المقدونية واللغة التركية والتأكيد على اللغة الألبانية (٥٣) . وكان هذا خطأ بطبيعة الحال من قيادة الحزب. فاللغة التركية لاتشكل خطورة للألبان ولن تطمس هويتهم، خاصة وأن المسلمين عموماً في مقدونيا يعتبرون من أنصاره (٥٤) . ويتهم المقدونيون هذا الحزب بأنه مجرد امتداد «للتحالف الديمقراطي» الألباني في كوزوفو، الذي يقوده ابراهيم روجوفا، وأن هدفه في النهاية تقطيع أوصال مقدونيا ويوجوسلافيا. ونفى خليلي - زعيم الحزب - ذلك قطعياً واعترف اعترافاً قاطعاً بوحدة التراب المقدوني وتكامل الأراضي المقدونية وبالسيادة المقدونية، وإيمان الحزب بالترتيبات الفيدرالية اليوجوسلافية(٥٥).

وعلينا أن ننظر إلى هذه التصريحات في ضوء وضع ألبان مقدونيا وفي وقت إلقائها، وعدم إصدار حكم عام عليها. فألبان مقدونيا أقلية مقهورة - مضطهدة تعمل بالسياسة في الضوء لأول مرة وتتحسس طريقها وسط اتحاد فيدرالي يتحلل، وهذه الأقلية تعمل بدورها وسط بيئة قومية - معادية، تنظر هي نفسها إلى المستقبل بقلق وانزعاج لأن أراضيها تتنازع عليها عدة دول خارجية. وفي رأى القيادة المقدونية ان برنامج الحزب - الألباني نفسه ليس «انفصالياً» وإن كان الأعضاء يعبرون في الاجتماعات عن آراء انفصالية ووحدوية مع كوزوفو وجمهورية ألبانيا (٥٦). وزيادة على ذلك يتلقى الحزب مساعدات مالية خارجية من الألبان المهاجرين (٥٧) في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

وقد ادعى وزير داخلية مقدونيا چوڤان بريينوڤسكي - دون أن يقدم دليلاً - أن «السيجوريمي» - البوليس السرى في جمهورية ألبانيا - ينشط في مقدونيا وخاصة في تيتوفو. ونظر وزير الداخلية - أيضاً - إلى الحملة التي يقوم بها ألبان مقدونيا لإنهاء النزاعات الثأرية بين العائلات الألبانية، والتي تمت حملة مماثلة لها في كوزوفو كما ذكرنا - ينظر إليها على أنها نشاط «قومي» (٥٨) .

جرت أول جولة من الانتخابات العامة الأولى في مقدونيا يوم ١١ نوفمبر ١٩٩٠. ولم تظهر فيها غير نتيجة ١١ مقعدا فقط من ١٢٠ لم تفز الأحزاب القومية المتطرفة بمقعد واحد من هذه المقاعد، وفاز حزب أنتي ماركوفيتش بمقعد واحد. وفاز حزب «من أجل الرخاء الديمقراطي لمقدونيا» الألباني بالاشتراك مع «حزب الشعب الديموقراطي» وهو حزب «ألباني» صغير بزعامة يوسف ريد زيبي بستة مقاعد، وفاز تحالف الشيوعيين والاشتراكيين ببقية المقاعد.

وعندما انتهت الجولة الثالثة والأخيرة للانتخابات، كانت النتائج كالتالي:

٢٥ مقعدا — تحالف «حزب الشعب الديمقراطي» و«حزب من أجل رخاء ديمقراطي لمقدونيا» VMRC DPMNE

٣٧ مقعدا الحزب القومي المقدوني
٣١ مقعدا للحزب الشيوعي وحلفائه

وهكذا فإنه بفوز القوميين المقدونيين المتطرفين بكل هذا العدد من المقاعد، تأكد الألبان أن آمال المصالحة في مقدونيا غير واردة، وان عليهم الاستعداد للأسوأ.

هوامش

(١) Biberog, E: "Kosovo: The struggle for recognition" conflict studies No 137, 1982.

(٢) Pawlawich S.K, Kosovo; An analysis of Yugoslavias Problem conflict studies, No 138, 1982.

(٣) Hugh Ponlton: Babkans : Minorities and States in conflict - Minority Rights Publications - London 1991.

(٤) مجلة الايكونوميست الاسبوعية البريطانية في ٥ اكتوبر ١٩٨٣ نقلاً عن : Opstina - Belgrade, No 889 - Augast 2 Sep.1983.

(٥) Hugh Ponlton - مرجع سابق نقلاً عن Rilindja, Pristina - 25/6/1984

(٦) تقرير منظمة العفو الدولية السابق الإشارة إليه.

(٧) تقرير «منظمة العفو الدولية» - مرجع سابق

(٨) صحيفة الجارديان اليومية البريطانية في ٨ سبتمبر ١٩٨١ نقلاً عن NIN - بلجراد في ٦ سبتمبر ١٩٨١.

(٩) تقرير «منظمة العفو الدولية» - مرجع سابق.

(١٠) النشرة الاخبارية اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٨٢/٧/١٢ SWB EE / 7075 نقلاً عن وكالة انباء تانيوج اليوجوسلافية في ١٩٨٢/٧/١٠.

(١١) تقرير منظمة العفو الدولية - مرجع سابق.

(١٢) نفس المرجع السابق

(١٣) Memorandum: The Albanian Kosovar Youth in the Free World - New York - 20 Sept.1990.

(١٤) نفس المرجع السابق.

(١٥) صحيفة الجارديان البريطانية في الثالث من مارس ١٩٨٤، نقلاً عن صحيفة جيديموستوفو الالبانية - بريستينا ١٩٨٤/٣/١.

(١٦) Yugoslavia : Recent Events in the Autonomons Province of Kosovo - Amnesty - International - Eur. 48/08/81.

(١٧) النشرة الاخبارية اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٩٠/٢/٥ SWB EE / 0680 A2 /1 نقلاً عن Tirana Hme Servica 2/2/1990

(١٨) صحيفة التايمز اليومية البريطانية في ٢٧ ديسمبر ١٩٩٠ نقلا عن Nova Makedoriga - skopie - 25/2/1990.

(١٩) تقرير منظمة العفو الدولية ـ مرجع سابق.
(٢٠) صحيفة الجارديان البريطانية ٢٧ فبراير ١٩٩٠.
(٢١) نشرة الاخبار اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٩٠/٩/٢٦ ـ SWB EE /08 7 B/10
Belgrade Home Service 24/9/1990
(٢٢) Hugh Ponlton ـ مرجع سابق.
(٢٣) نشرة الأخبار اليومية للاذاعة البريطانية في ٧ أغسطس ١٩٩٠ SWB EE/0836 B/15
(٢٤) نشرة الأخبار اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٩١/٢/٩ SWB EE/0992 B/6 نقلاً عن وكالة تانيوج اليوجوسلافية للأنباء في ١٩٩١/٢/٨.
(٢٥) النشرة الاخبارية اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٩٠/٤/٢١ SWB EE / 0744 i نقلاً عن وكالة تانيوج اليوجوسلافية للأنباء في ١٩٩٠/٤/٢٠.
(٢٦) Eastern Europe Newsletter - EE N - vol.4 No 15 - 26/July 1990
(٢٧) East European Newaletter - vol No 18-10 Sept 1990.
(٢٨) النشرية الاخبارية اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٩١/٢/٦ SWB EE / 0989 نقلاً عن وكالة أنباء تانيوج اليوجوسلافية في ١٩٩١/٢/٤.
(٢٩) صحيفة الجارديان البديطانية في ١٩٩٠/٩/١٨
(٣٠) صحيفة الانترناشيونال هيرالد تريبيون ١٩٩٠/٩/٢٦
(٣١) Index oncensorship : No 8, 1990 London
(٣٢) East European Newoletter - vol 4 No 7-2/4/1990 - London.
(٣٣) صحيفة الجارديان البريطانية في ٢ مايو ١٩٩٠.
(٣٤) Hugh Ponlten ـ مرجع سابق.
(٣٥) صحيفة التايمز البريطانية اليومية في ١٨ ديسمبر ١٩٨٥، نقلاً عن بوربا اليوجوسلافية ـ ١٤/١٥ ديسمبر ١٩٨٥.
(٣٦) East European Newsletter - vol.4 No 7 - 2/4/1990
(٣٧) المرجع السابق.
(٣٨) نقلاً عن الجارديان اللندنية اليومية في ٢٢ نوفمبر ١٩٩٠.

الألبان خارج كوسوفو

(٣٩) Hugh Ponlton مرجع سابق نقلاً عن Damas, Zagreb, 15/3/1983
(٤٠) النشرة الاخبارية اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٩٠/١٢/١٩ SWB EE/0951 B/11 نقلاً عن وكالة تانيوج للأنباء اليوجوسلافية في ١٩٩٠/١٢/١٧.
(٤١) صحيفة الجارديان البريطانية يوم ١٩٨٢/٢/٩ نقلاً عن
Jedinstvo, Pristina, 6/2/1982
(٤٢) صحيفة الجارديان البريطانية في ١٩٨٣/١١/٢٥ نقلاً عن Duga , Belgrade, 19/11/ 1983
(٤٣) Hufh Ponlton ـ مرجع سابق.
(٤٤) مجلة الايكونوميست الأسبوعية البريطانية في ١٩٨٣/٦/٢٣.

(٤٥) صحيفة الجارديان البريطانية في ١٢ يولية ١٩٨١ نقلاً عن وكالة أنباء تانيوج اليوجوسلافية في ١٩٨١/٧/٩.

(٤٦) Hugh Ponlton ـ مرجع سابق، نقلاً عن: Nationlities in the LCY : Ethnic composition in the membership in theLeague of communists in the Major Cities and Provinces and Republics - Vuskovied, Boris, Nase Teme, No 3-4 March - April 1986, Zagreb.

(٤٧) صحيفة الجارديان البريطانية في ١٩٨١/٨/٣٠ نقلاً عن وكالة تانيوج اليوجوسلافية للانباء في ١٩٨١/٨/٢٦.

(٤٨) النشرة الاخبارية اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٨٤/٥/١٠ SWB EE / 7639 B/9 نقلاً عن وكالة أنباء تانيوج اليوجوسلافية في ١٩٨٤/٥/١٠

(٤٩) Hugh Ponlton – مرجع سابق نقلاً عن :
Josifovskl, I: published by the Institue of Sociological, political & Juridicial research, skopje, 1974.

(٥٠) صحيفة الجارديان اليومية البريطانية في ١٩٩٠/٢/٣.

(٥١) النشرة الاخبارية اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٩٠/٦/٢١ SWB EE/0796 B/15 نقلاً عن وكالة تانيوج اليوجوسلافية للانباء في ١٩٩٠/٦/١٩.

(٥٢) النشرة الاخبارية اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٩٠/٨/٢٧ SWB EE/0853 B/19 نقلاً عن وكالة تانيوج اليوجوسلافية للانباء في ١٩٩٠/٨/٢٥.

(٥٣) Eastern European Newsletter- EEN - vol.4 No23 - London19/11/1990

(٥٥) النشرة الاخبارية اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٩٠/٩/٥ SWB EE/0861 B/18 نقلاً عن وكالة تانيوج اليوجوسلافية للانباء في ١٩٩٠/٩/١.

(٥٦) النشرة اليومية الاخبارية للاذاعة البريطانية في ١٩٩٠/٩/٢٢ SWB EE/0876 B/6 نقلاً عن وكالة أنباء تانيوج اليوجوسلافية في ١٩٩٠/٩/١٩.

(٥٧) النشرة اليومية الاخبارية. نفس المرجع السابق

(٥٨) النشرة الاخبارية اليومية للاذاعة البريطانية في ١٩٩٠/١١/٢٢ نقلاً عن وكالة تانيوج اليوجوسلافية في ١٩٩٠/١١/١٧.

(*) اطلق المسجنون السياسيون المصريون الذين لقوا معاملة أسوأ من هذه بكثير في الستينات علي (علقة) الانتقال الي سجن جديد اسمه (حفلة الاستقبال). ويبدو أنها «عادة» عالمية!



الفصل الثامن

قوميات وجماعات عرقية أخرى

(١) الروما (الغجر)

أصل الروما من الهند. ومنذ القرن الخامس فصاعدا تسربوا الي الامبراطورية الفارسية ثم الي الشرق الأوسط ووصلت مجموعات مبكرة منهم الي بيزنطة في القرن العاشر.

ويبدو أن اعتناقهم لدين المناطق التي حلوا بها.. سواء الهندوسية أو الاسلام أو المسيحية امر له علاقة بتيسير امورهم، أكثر من كونه اقتناعا

وفي البلقان حيث استمر الحكم العثماني لأطول مدة في أوروبا وبالذات في بلغاريا فان الروما مسلمين بينما هم مسيحيون في المناطق التي كانت تاريخيا تحت سيطرة مسيحية.

ولأن للروما نزعة استقلالية تقليديا ولكونهم نتاج هجرة وتأقلم، فقد ظلوا في جميع الأقطار خارج مختلف النظم العاملة سواء كانت اقطاعية او رأسمالية او اشتراكية، حيث أصبحوا تجار خيول وحدادين وموسيقيين وجامعي قمامة. ولقد اضطهد «الروما» تاريخيا وجري تمييز ضدهم في كل أقطار شرق أوروبا، وعانوا من العنصرية، علي الأقل نتيجة للون بشرتهم. وأثناء الحرب العالمية الثانية حين سقطت اوروبا الشرقية تحت وطأة النازي استخدمت ضدهم الابادة الجماعية ويعتقد ان حوالي نصف مليون منهم قد قتلوا.

ويوجد في يوجوسلافيا اكبر مجموعة من «الروما» في أوروبا ولها صلات هامة بمجموعات من «الروما» مهاجرة الي فرنسا والمانيا والولايات المتحدة واستراليا ودول اخري.

ومنذ عام ١٩٨١ اصبح «للروما» في يوغوسلافيا - نظرياً - وضعية القومية علي نفس درجة المساواة مع اقليات عرقية أخري مثل الألبان والترك والمجريين، علي انه ساد تشويش حول وضعيتهم تلك، رغم ان «بوليتيكا» - الجريدة اليومية الرسمية الصادرة في بلغراد - أكدت يوم ٤ ديسمبر ١٩٨٢، علي ان ذلك لم يطبق بطريقة مساوية في كل الجمهوريات. ولقد تنبه «الروما» الي عدم منطقية الترتيبات القائمة، وفي عام ١٩٨٩ تقدم رايكوديوريتش السكرتير العام للمؤتمر العالمي «للروماني» بعريضة قدمت امام مجلس الرئاسة

اليوغوسلافية الفيدرالي تقترح اعطاء وضعية قومية متساوية «للروما» في جميع الجمهوريات والأقاليم، التي تضع دساتيرها «الروما» في فئة المجموعة العرقية (١) (جميع الجمهوريات عدا جمهورية البوسنة ـ الهرسك وجمهورية الجبل الأسود).

ومنذ عام ١٩٨٣ استخدمت لغة «الروماني» في مدارس تابعة للدولة وهناك عشر مدارس ابتدائية علي الأقل تستخدم لغة «الروماني» كوسيلة التدريس في الصفوف الأربعة الأولي.

حدث ذلك الاختراق للأوضاع القديمة في المناطق التي يقطنها الألبان في كوزوفو، حيث كان «الروما» المسلمون يجدون صعوبات كبيرة في ايصال صوتهم في الماضي. وكان في محطة إذاعة وتلفاز برستينا في كوزوفو برنامج اسبوعي بلغة الروماني ويذيع راديو بلجراد ـ وكذا المحطات الاذاعية الأصغر في ينش ـ وتدتوفو بلغة «الروماني» بانتظام. والمنشورات باللغة الروماني مازالت نادرة ولكن هناك عددا من الكتب الطويلة صدرت، وفي مايو ١٩٨٠ أصدرت دار نشر ناشا كنيجا في سكوبي أول كتاب لقواعد اللغة الروماني مكتوب كلية وأبجدية «روماني» واستخدمت ابجدية روماني «معدلة»(٢) لكي تفهم علي اوسع نطاق ممكن. وفي يناير ١٩٩١ جاء تقرير بأن دار نشر دوبرا فيست التابعة لاتحاد الكنائس المعمدانية في يوجوسلافيا نشرت أول ترجمة للانجيل باللغة الروماني(٣).

كان للتجمعات الأكبر من «الروما» من بلجراد دينش وسوتو اوريزاري (سكوبي) ومدن أخري اتحاداتهم الثقافية والاجتماعية لسنوات. ولقد تم تأسيس اتحاد درستوفا روم في بلغراد عام ١٩٣٠ ثم اصبح هناك حوالي ٦٠ اتحاداً مماثلاً تتصل مع بعضها في الصرب فيما يسمي «الاتحاد الروماني» الذي يترأسها سصايت باليتش الذي كان رئيسا «للاتحاد الدولي الروماني» IRU.

ولقد عقد مهرجان سنوي لهم خلال الخمسة عشر عاماً الماضية وعقدت أيضا مهرجانات دولية ومحلية عديدة أخري. وفي عام ١٩٨٦ شارك «الاتحاد الدولي» في تبني الملتقي الدولي للغة وتاريخ الروماني في سراييفو.

وفي يوم ٢٢ يوليو ١٩٩٠ تأسس الحزب «الروماني» في كرواتيا للمطالبة بالاعتراف بقومية وحقوق «الروما»، وللتقدم بنداء للمجلس الوطني الكرواتي لإنشاء فصول ابتدائية وثانوية ونشر كتب مدرسية بلغة «الروما» لما يقدر بحوالى ١٥٠٫٠٠٠ «روما» فى كرواتيا.

ورغم ان منح وضعية القومية مازالت تمثل مشكلة، الا أنه حدثت عام ١٩٨١ ـ زيادة ذات مغزى فى عدد الذين يعلنون أنفسهم من «الروما». ففى مقدونيا مثلا ظل عددهم فى الاحصاءات ثابتا تقريبا الى ان أبدى تعداد عام ١٩٨١ قفزة من ٢٤٫٠٠٥ الى ٤٣٫٢٢٣ مما يعكس وضعيتهم الرسمية الأفضل.

ادعت السلطات المقدونية منذ بعض الوقت ان «الروما» وبالذات «الروما» المسلمين

متعرضون لعملية «ألبنة»، وكرر هذا الادعاء يوم أول أغسطس ١٩٩٠ من قبل مجلس رئاسة اللجنة الجمهورية لرعاية التقاليد العرقية والثقافية «للروما» في مقدونيا والتي اتهمت حزب الرخاء الديمقراطي ـ الألبان في تيتوفوPDPM بأنه يتلاعب «بالروما» علي أساس ديني. وفي أول سبتمبر دعت جماعة «الروما» المقدونيون جميع «الروما» الى ان يتوقفوا على إعلان أنفسهم كألبان لمجرد أنهم يشاركونهم في الدين. وقررت تلك الجماعة ان تقوم يوم ١١ أكتوبر وهو عيد مناسبة قومية مقدونية بالفعل ـ بإقامة أول مهرجان للانجازات الثقافية «للروما» في مقدونيا(٥) .

ورغم ذلك التقدم في احوال «الروما» فان الأغلبية تستقر في الحياة تحت متوسطات المستوي الاقتصادي، وهناك تمييز ضدهم في مكان العمل وفي الشوارع ـ وتمكنت مئات قليلة منهم فقط من الحصول علي تعليم جامعي واحتراف مهن. ونصف من يتكسبون أجورا منهم من العمال الصناعيين، وعشرون بالمائة منهم من المزارعين (كثير من أولئك يملكون ارضهم) وبقية «الروما» يحترفون اي مهنة. وقد تضاءلت نزعة التجوال لديهم.

ويستمر التمييز ضدهم في اشكال كثيرة ففي سلوفينيا احتج اتحاد «الروما» علي منع المسئولين المحليين «الروما» من التصويت في الانتخابات. وفي قرية هايدي في سلوفينيا رفض السكان المحليون ان يتشاركوا في نفس اكشاك التصويت مع «الروما» واقاموا لهم اكشاك تصويت خاصة(٦).

وهناك ادعاءات تذهب لمدي أبعد تقول ان عددا من «الروما» ماتوا في «كورشومليه» في الصرب في منتصف ١٩٩٠ تحت ظروف محفوفه بالشكوك وان البوليس لم يحقق «لأنه لن يضير أحداً لو احرق عدد اكبر منهم».

هناك عدم تأكد للأصول الدقيقة لكثير من مواطني يوجوسلافيا المسلمين، ويرجع ذلك الي انه في فترة سيطرة الامبراطورية العثمانية، كان العامل الرئيسي للتمييز بين المواطنين هو الدين وليس القومية والعرق. وعندما انتهي هذا العصر واجه «الروما» مشكلة الهوية العرقية لمواجهة التفرقة التي تمارس ضدهم : وخاصة في المناطق التي يعيش بها الألبان المسلمون. فالألبان ذو نزعة قومية متأججة، وهم في نفس الوقت منظمون تنظيما قويا. فلم يكن من المدهش ان تتصاعد لدي «الروما» ادعاءات قومية غير عادية.

ففي عام ١٩٩٠ انشأ بعضهم رابطة : المواطنين المصريين في اوهريد وهي منطقة مقدونية علي حدود البارينا، وكانت الرابطة برئاسة نظيم عريفي. وانضم الي الرابطة فور تأسيسها أربعة آلاف عضو أعلنوا أنهم «مصريون» ثم أنشئت رابطة المصريين من كوزوفو وميتوهيا وعقد مجلسها التأسيسي في ـ بريستينا يوم ٢١ أكتوبر ١٩٩٠، وهدفها الحفاظ علي الهوية المصرية من عملية الالبنة وبحلول سبتمبر كان ٦٠٠٠ شخص قد انضموا للرابطة التي ادعت بوجود مائة الف من «سلالة الفراعنة» في كوزوفو ومابين ٢٠,٠٠٠ الي

٣٠,٠٠٠ في مقدونيا. ولقد ارسلت تلك الروابط عرائض الي البرلمان الفيدرالي والبرلمان المقدوني والبرلمان الصربي تطالب بأن توضع فئة مستقلة للمصريين في احصاء ١٩٩١(٧). وتمت الموافقة علي ذلك في حالة مقدونيا. ويبدو أن من غير المرجح ان تصبح تلك الروابط جماهيرية والأكثر رجحانا ان تكون تلك الادعاءات غير العقلانية هي مجرد عارض من عوارض الأزمة القومية الحادة في يوجوسلافيا في بداية تفككها.

(٢) الاتـراك

الأتراك في يوجوسلافيا هم بقية الاحتلال العثماني الطويل ويبلغ عددهم ١٠١ر٢٩١ نسمة في احصاء عام ١٩٨١ وكانت اغلبيتهم (٦٩١ر٨٦ نسمة) تعيش في مقدونيا حيث يؤلفون ٤٪ من السكان.

ويمثل تقدير عدد الأقليات مثل الاتراك والأقليات الأخري في مقدونيا مشكلة. فلقد اعطي تعداد ١٩٤٨ عدد الأتراك علي انهم ٩٤٠ر٩٥ بينما سجل إحصاء ١٩٥٣ عددهم بأنه ٩٣٨ر٢٠٣، ومع ذلك وبحلول الإحصاء التالي بعد سبع سنوات سُجل ان عددهم ٤٨١ر١٣١.

وبعد الحرب العالمية الثانية مباشرة كان ينظر الي الأتراك نظرة شك بسبب ـ الصداقة بين تركيا والغرب. وفي يناير ١٩٤٨ حوكم ١٧ تركياً ـ مقدونيا بصفتهم أعضاء في «جودزال» التي قيل انها منظمة ارهابية / تجسسية. واعطيت للمحاكمة علانية ضخمة داخل مقدونيا لإرهاب الأقلية التركية ونتيجة لذلك أعلن كثير من الأتراك انفسهم كألبان في احصاء ١٩٤٨. علي أنه بحلول عام ١٩٥٣ وخروج يوجوسلافيا من الكومنترن، فان الألبان أصبح ينظر إليهم في ذلك الحين نظرة شك وأعلن عدد كبير من الألبان انفسهم اتراكا ومن بين الـ ٢٠٣٩٣٨ (تركي) في احصاء ـ ١٩٥٣ قال ٣٩٢ر٣٢ ان المقدونية هي لغتهم بينما قال ٠٨٦ر٢٧ ان الالبانية هي لغتهم وصاحب ذلك هبوط عدد الألبان المسجلين من ٣٨٩ر١٧٩ عام ١٩٤٨ الي ٥٢٤ر١٦٥ عام ١٩٥٣.

شهدت الفترة التي تبعت ١٩٥٣ هجرة ضخمة لأعداد كبيرة من اتراك يوجوسلافيا الي تركيا وبلغت اعداد المهاجرين حوالي ٨٠,٠٠٠ طبقا للاحصاءات ال يوجوسلافية، وحوالي ١٥٠,٠٠٠ طبقا لبعض المصادر التركية. علي ان بعض اولئك المهاجرين كانوا لايتحدثون اللغة التركية وكانوا في الحقيقة مسلمين البانا يخشون علي مصيرهم في يوجوسلافيا الشيوعية بعد الحرب ادعوا انهم أتراكا لكي يستفيدوا من الهجرة التي سمح بها(٨).

وفي احصاء عام ١٩٧١ سجل ان هناك ٥٥٢ر١٠٨ تركيا وبحلول احصاء ١٩٨١ فان

عددهم يبدو انه انخفض الي ٨٦٫٦٩٠ ويثير مثل ذلك التدهور في عددهم العجب فلوا اخذنا في الاعتبار معدل المواليد العالي للاتراك في يوجوسلافيا .. فقد كان من المتوقع ان يؤدي ذلك الي زيادتهم الي حوالي ٢٠٫٠٠٠ نسمة في الفترة من ١٩٧١ الي ١٩٨١ بدلا من نقصهم بما يزيد عن ٢٠٫٠٠٠ شخص. ويبدو ان - كثيرين من الذين كانوا يطلقون علي انفسهم سابقا أتراكا يقولون حاليا انهم مسلمون بينما يعلن آخرون انهم ألبانا او «روما».

وهناك عامل معقد آخر في تقييم اعداد الاقليات الصغيرة في مقدونيا ألا وهو الارتفاع من ٣٦٥٢ الي ١٤٢٤٠ بين ١٩٧١ - ١٩٨١ - في اعداد من يعلنون أنفسهم انهم « يوجوسلاف» بدلا من اعلان انتماءاتهم القومية والعرقية.

ذلك رغم ان نسبة من يعلنون انهم يوجوسلاف في مقدونيا مازالت اقل من باقي الجمهوريات. وتؤكد السلطات المقدونية القلقة من صعود القومية الألبانية - أن كثيراً من الاتراك قد «تألبنو» تحت ضغط . وطبقا لمدير مكتب الاحصاءات بجمهورية مقدونيا في سكوبي كانت تلك الظاهرة واضحة بشكل خاص في مناطق تيتو فو وجوستيفار وكيتسيفو.

وفي سبتمبر ١٩٨٧ ذكر مجلس رئاسة «عصبة الشيوعيين المقدونيين» أن تأجج القومية الألبانية هو أحد الأسباب الرئيسية لهجرة العائلات التركية من بلدية جوستيفار(٩) . وقد ادعي الألبان بأن أولئك الاتراك ليسوا في الحقيقة أتراكاً بل انهم في الحقيقة «اليريين» الذين يعتقد انهم أجداد الألبان «تأتركوا» - وهم يرجعون الآن الي حظيرتهم(١٠).

والتركية قومية معترف بها في يوجوسلافيا - وقد سمح للاتراك بحقوق تعليمية وثقافية منذ البداية. ففي السنة المدرسية الاولي للجمهورية ال يوجوسلافية الجديدة ١٩٤٤/١٩٤٥ كان هناك ٦٠٠ مدرسة ابتدائي بها ٣٣٣٤ تلميذا يستخدمون التركية كلغة تعلم .. وفي عام ١٩٥٠ / ١٩٥١ كان هناك مايزيد علي مائة مدرسة بها مايزيد علي ١٢٫٠٠٠ تلميذ، ويدرس بها ٢٦٧ مدرسا باللغة التركية وبحلول عام ١٩٥٨/١٩٥٩ ونظرا للهجرة الي تركيا فان العدد انخفض الي ٢٧ مدرسة (٢٦ ابتدائية وواحدة ثانوية) بها مايزيد قليلا علي ٦٠٠٠ تلميذ، ٢١٩ مدرسا. وبينما زاد عدد المدارس الابتدائية الي ٥٣ بحلول نهاية ١٩٨٨ فان عدد التلاميذ ظل ثابتا تقريبا ومرة أخري ومثل الألبان، فان للاتراك برامج تليفزيونية واذاعية باللغة التركية وهناك جريدة «بيرليك» .. وكذا مؤسسات ثقافية مختلفة(١١).

والحركة السياسية الرئيسية للاتراك في مقدونيا هي : التحالف الديموقراطي للاتراك في مقدونيا.

(٣) المجريون، والسلوفاك، والرومانيون والروثنيون / الأوكرانيون في ڤويڤودينا

المجريون في يوجوسلاڤيا هم بقايا الامبراطورية النمساوية ـ المجرية. وفي استفتاء عام ١٩٨١ بلغ عددهم ٤٢٦٫٨٦٧ شخصا «يعيشون» اساسا في ڤويڤودنيا بالقرب من الحدود مع المجر حيث يشكلون حوالي ١٩٪ من السكان. علي ان أعدادهم كانت تتناقص مع توالي الإحصاءات.

وبسبب تكوينها العرقي المتنوع جعلت ڤويڤودنيا إقليمياً يتمتع بالاستقلال الذاتي داخل الجمهورية الصربية مثلها مثل كوزوڤو. ويشكل الصرب الأغلبية في ڤويڤودنيا ٥٤٫٤٪ والاقليات الاخري هم الكروات (٥٫٤٪).

وأغلبية من يقطن يوجوسلاڤيا من السلوفاك (٨٠٫٣٣٤ في يوجوسلاڤيا) يعيشون في ڤويڤودنيا (٦٩٫٥٤٩) والرومانيون (٥٤٩٥٥ في يوجوسلاڤيا، ٤٧٫٢٨٩ في ڤويڤودنيا) والروثينيون / الأوكرانيون (٢٣٢٨٦ في يوجوسلاڤيا، ١٩٣٠٥ في ڤويڤودنيا) ولارضاء مختلف التقاليد القومية، فان هناك خمس لغات رسمية في الاقليم : الصربو كرواتية، والمجرية والسلوفاكية، والرومانية وتينيلة.

وللمجريين حوالي ٢٠٠ مدرسة ابتدائية، وصحيفة يومية ماجيارسو. وتذيع محطة الاذاعة الاقليمية بانتظام باللغة المجرية علي ان القومية الصربية التي عادت للتأجج عام ١٩٨٨ أدت الي سقوط قيادة «عصبة الشيوعيين» في ڤوديڤودنيا التي كانت تعارض التطلعات الصربية وادي الي سيطرة صربية أعظم علي الاقليم وهي اشياء «مخندقة» رسميا في الدستور الصربي الجديد. وادي ذلك الي وجود سخط في الاقليم.

كان جزء من تلك السيطرة الاعظم هو استبدال زولتان شوربا رئيس تحرير الجريدة الرئيسية الصادرة بالمجرية «ماجيارسو» نتيجة لقرار «المجلس التنفيذي الاقليمي» .

ولقد الغت المحكمة العليا في ڤويڤودينا ذلك القرار يوم ١٧ أكتوبر ١٩٩٠ وحكمت بانه ليس لدي المجلس التنفيذي اي اساس قانوني لاستبدال رئيس التحرير علي أن رئيس التحرير بعد ان اعيد تنصيبه طرد مرة اخري بسبب معاداته للصرب وفي هذه المرة أيدت المحكمة العليا طرده. وبالاضافة الي ذلك سمح الجو السياسي الجديد، للسخط المجري، ان يظهر بوضوح (وحتي عندئذ لم يكن ظاهرا) من خلال تأسيس أحزاب سياسية تعمل علنا(١٢).

والحزب السياسي الرئيسي لمجر ڤويڤودنيا هو الجماعة الديموقراطية لمجر ڤويڤودنيا VMDK وقد تم تأسيسه في ١٤ فبراير ١٩٩٠ في نوڤي ساد. وفي البرنامج المبدئي

للحزب اعلن يهدف الي المساهمة في العملية السياسية اسوة بالاحزاب الاخري في التنظيمات الادارية والقضائية والي استخدام اللغة المجرية في التعليم.

وفي مؤتمر الحزب الاول الذي عقد يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٩٠ فان الـ ٤٠٠ مندوب الذين يمثلون الـ ٢٠,٠٠٠ عضو في VDMK قرروا ان يطالبوا بالاستقلالية الثقافية في ڤويڤودنيا.

كان ذلك بالتأكيد ردا علي الدستور الصربي الجديد الذي ألغي «الحكم الذاتي» لاقليم ڤويڤودنيا.

ولقد قال رئيس حزب VDMK اندراس اجوستان في معرض تعليقه علي مستقبل يوجوسلاڤيا انه يؤمن ان اتحاداً كونفيدراليا سيقدم لمجريي ڤويڤودنيا الامكانية الوحيدة للتعبير. وقال ان تفكك يوجوسلاڤيا سوف يكون بمثابة كارثة للمجريين(١٣).

ونظام التعليم هو مجال لسخط مجر ڤويڤودنيا. ففي عام ١٩٧٥ اصلح نظام التعليم. وفي السنوات التالية وافتراضا بسبب عدم وجود مدرسين مؤهلين بدأت المدارس الثانوية باللغة المجرية تغلق أبوابها ومن عام ١٩٧٦ وصاعدا بدأ قانون تعليمي منفصل في ڤويڤودنيا للاقليات الأربع الرئيسية هناك : المجريون والسلوفاك والرومانيون والروتينيون، علي ان عدد التلاميذ المجريين انخفض بأكثر من ٤٠٠٠ في المدة من ١٩٧٧ الي ١٩٨٨.

والغي قانون تعليم جديد أصدرته الصرب عام ١٩٩٠ قانون عام ١٩٧٦.

وينظر المجريون والاقليات الأخري الي القانون الجديد بإنزعاج، كما تظهر العرائض المرسلة منهم الي البرلمان الصربي، وكذلك المطالب التي يقدمها حزب VDMK. وخلافا عن حالة البان كوزوڤو الذين قاطعوا انتخابات ديسمبر ١٩٩٠ احتجاجا علي الغاء استقلالية الاقليمين، فان حزب VDMK شارك في الانتخابات وفاز بثمانية مقاعد من مجموع الـ ٢٥٠، وبذلك أصبح ثالث حزب في الترتيب بعد حزب الاشتراكي الصربي بقيادة ميلوسيفتش والذي له ١٩٤ مقعدا، وحزب SPO بقيادة دراسكوفيتش الذي له ١٩ مقعداً.

وطلب VDMK ايضا المجلس الصربي بأن يؤسس وزارة للاقليات نظراً لوجود ثلاثة ملايين غير صربي بين التسعة ملايين من سكان الجمهورية. ولكن ذلك الطلب رفض ..

وفي ١٢ مايو ١٩٩٠ تم تأسيس التحالف اليوجوسلاڤي والروتينيين والاوكرانيين «في نوڤي» ساد، ولم يعلن اي برنامج سياسي وأعلن ان هدفه هو الحفاظ علي الهوية القومية للروتينيين والأوكرانيين. وفي مارس ١٩٩٠ تم تأسيس حزب الشعب المجري في كرواتيا لحماية وصالح الأقلية المجرية الصغيرة في كرواتيا.

ولقد تم في نوفمبر ١٩٩٠ - بالقرب من فرساك - تأسيس جمعية الرومانيين في يوجوسلاڤيا وانتخب رئيسا لها «بافل جاتايانو» وهو صحفي يعمل باذاعة نوفي ساد.

٤ـ الفــلاها

هناك القليل جدا من المعلومات عن الوضع الخاص بهذه المجموعة العرقية التي تتكلم نوعا من اللغة الرومانية وهم تقليديا شعب ريفي، يعيشون أساساً في اليونان ولكن ايضا في البانيا و يوجوسلافيا .. وتقييم أعدادهم صعب، ويضاعف من تلك الصعوبة عدم وجود تيار انفصالي بينهم، وهم معروفون ايضا في يوجوسلافيا بأسماء الكوتوفلاها والاروماني والشنكاري. وهناك مايبدو انه امتصاص سلمي لهم في المجموعات العرقية الرئيسية، وكان اعتناقهم للمذهب الارثوذكسي عاملا هاماً في ذلك.

ويعيش الفلاها في يوجوسلافيا في الصرب وفي مقدونيا علي وجه الخصوص. وتوجد في جمهورية الصرب في منطقة «بور» وحولها جماعات من الفلاها ذات شأن، ولكن الحقيقة الهامة هي انه رغم كونهم يشكلون ٣ر١٠٪ من سكان بور طبقا لإحصاء ١٩٨١ الا انه لايوجد واحد منهم في «عصبة شيوعي» بور .. ولقد أظهرت الاحصاءات ـ المتعاقبة انخفاضا تدريجيا في اعدادهم في مقدونيا من ٨٦٦٩ عام ١٩٥٣ الي ٦٣٩٢ عام ١٩٨١ ويبدو انهم يمتصون في اغلبية السكان المقدونيين.

جماعات اخري : عمن يطلقون علي أنفسهم يوجوسلاف

من بين الاقليات الباقية في موزاييك يوجوسلافيا العرقي، هناك البلغار ويبلغ عددهم ١٨٩ر٣٦ ويقيم معظمهم في جمهورية الصرب في منطقة الحدود مع بلغاريا، وهناك عدد صغير من التشيك يصل الي ٦٢٤ر١٩ والايطاليين ١٣٢ر١٥ الذين يعيش معظمهم في كرواتيا، وقبل الحرب ـ العالمية الثانية كان هناك ٧٥٠٠٠ر يهودي تبقي منهم بعد الحرب ١٦٠٠٠ر. ولقد قللت الهجرة الي اسرائيل عدد اليهود، ويتبقي منهم ستة آلاف معظمهم في زغرب (١٣٠٠) وبلغراد (١٦٠٠) وسراييفو (١٠٠٠) ولقد حدثت بعض حوادث ضد اليهود وبالذات في كرواتيا بعد ان نشرت تقارير صحفية في الصحافة الصربية تفيد ان المؤتمر اليهودي العالمي يؤيد الصرب ضد سلوفينيا. واقيمت جمعية صداقة صربية يهودية عام ١٩٩٠ انضم اليها ٣٠٠٠ عضو، بينما اقيمت جمعية اخري في زغرب.

ويعيش بلغار الصرب أساساً في المنطقة المورافية الجنوبية ولهم مجلتهم الاسبوعية الخاصة بهم «براتستفو» التي تنشر باللغة البلغارية في ينش. وفي ٢٠ اكتوبر ١٩٩٠ تم تأسيس الاتحاد الديموقراطي لبلغار يوجوسلافيا في ينش برئاسة الصحفي كيريك جيورجييف الذي يعمل بمجلة براتستفو، وكان نائب الرئيس البروفيسور بوبوف من بلغراد. ولقد عبر الاستاذ بوبوف عن رضاه عن وضع البلغار في الصرب وهو يؤيد الجانب الصربي في قضية كوسوفو كما اخذ جانب حقوق الاقليات الصربية في كرواتيا. ولقد أشار ايضاً الي تطورات في مقدونيا في المستقبل قائلا : بما أن عددا كبيرا من البلغار

يعيشون في مقدونيا فإننا سنكافح لكي يمنح مواطنونا في مقدونيا نفس حقوق الاقلية البلغارية في الصرب.

وفي الإمكان أن تلعب هذه المنظمة الصغيرة دوراً هاماً متي اصبحت القضية المقدونية حادة مرة اخري.

وتعيش الأقلية الايطالية أساساً في ايستريا وحول ديكا رغم أن كثيراً من الايطاليين هاجروا الي ايطاليا في الفترة من ١٩٤٦ الي ١٩٥٤. وفي مارس ١٩٩٠ انشيء الاتحاد الايطالي لايستريا وديكا كمنظمة اجتماعية لا حزبية. ولقد صرح ماريو كارانتا عضو مجلس رئاسة تلك المنظمة ورئيس جماعة الايطاليين في منطقة بولا، بأن المنظمة لن تقدم مرشحين في الانتخابات ولكنها ستنشغل بحماية هوية القومية الايطالية في المنطقة. وتنامت المطالب الاستقلالية الثقافية للايطاليين في شبه جزيرة ايستريا خلال عام ١٩٩٠ واشعلتها المعارضة بسبب خطط الحكومة الكرواتية لاعادة توطين ٢٠ر٠٠٠ كرواتي من رومانيا في ايستريا.

ومنذ احصاء ١٩٦٨ خصصت فئة منفصلة لاولئك الذين يرغبون فى أن يصنفوا أنفسهم كيوجوسلاف وليس تحت اسم أى فئة أخرى (كروات أو صرب إلخ) وقد ارتفع عددهم بطريقة ملحوظة فى أخر إحصاء.

ففى احصاء ١٩٦١ كان عددهم ١٢٤ر٣١٧ ثم ارتفع الى ٧٧.ر٢٧٣ فى احصاء عام ١٩٧١ ولكنه بلغ ٢٤.ر٢١٩ر١ فى احصاء ١٩٨١ أى حوالى ٤ر٥٪ من عدد السكان الكلى ويعكس ذلك أن نسبة ذات مغزى من السكان ترغب فى اعطاء ظهرها للقضية القومية التى أصبحت بذلك التوتر الشديد من التعقيد فى السنوات الأخيرة ويضاعف من أثرها المصاعب الاقتصادية ..

على أن انتشار اولئك اليوجوسلاف لم يكن منتظما واعدادهم قليلة جدا بطريقة ذات مغزى فى مقدونيا (٢ر.٪) وفى كوزوفو (٧ر.٪) حيث القضية القومية الألبانية حادة للغاية. كما ان عددهم صغير فى سلوفينيا (٣ر١٪) .. وأكبر زيادة فى عددهم هى فى البوسنة ـ الهرسك حيث وصلت نسبتهم طبقا لاحصاء ١٩٨١ الى ٩ر٧٪ كما أن نسبتهم فى كرواتيا ٨.٢٪ وفى الصرب نفسها أى بدون كوزوفو وفويفودنيا ففى الصرب ٧ر٤٪ وفى فويفودنيا ٢ر٨٪.

اتسمت التطورات السياسية فى يوجوسلافيا عامى ١٩٨٩ و ١٩٩٠ بارتفاع ملحوظ فى المشاعر القومية، وأدى هذا بالتالى الى التشكك فى السمة التكاملية ليوجوسلافيا كاتحاد فيدرالى .. وهكذا تناقص عدد من يسجلون انفسهم كـ «يوجوسلاف» وان كانت محاولة رئيس الوزراء الاصلاحى أنتى ماركوفيتش لمواجهة المد القومى بإقامة «تحالف القوى الاصلاحية» كان من الممكن أن يشجع هذا الاتجاه. لكن التصويت لحزب ماركوفيتش

لايعنى انعدام الولاء القومى وانما جزء من الأصوات التى حصل عليها بسبب اصلاحاته المطلوبة بشكل عام.

واذا نظرنا إلى البانوراما السياسية اليوجوسلافية التى عمتها الفوضى عام ١٩٩٠ لوجدنا أن هناك أحزابا أخرى صغيرة تشمل : «حزب اليوجوسلافيين» و «حركة عصبة الشيوعيين اليوجوسلاف» وهو حزب شيوعى متشدد يؤمن بوحدة يوجوسلافيا.

كانت تؤيده القيادة العليا للجيش، وهي صربية في معظمها. وهو تعبير عن نزعة مركزية ـ شمولية منحازة للصرب ومعني هذا علي الساحة السياسية أنه سينتقل من المركزية ـ الشمولية إلي أحلام «الصرب الكبري»

وعلي أية حال، فقد ثبت في انتخابات ديسمبر ١٩٩٠ أن الناخبين يصوتون للاحزاب القومية بإستثناء حزب ماركوفيتش في جمهورية الجبل الأسود (مونتنجرو) الذي حصل علي ١٧ مقعدا وكانت الاحزاب الشيوعية التي غيرت اسماءها إلي الاشتراكية وركبت موجه القومية المتطرفة هي التي خفضت نجاحا ملحوظا. والنموذج هو الحزب الاشتراكي الصربي بزعامة رئيس الصرب ميلوسيفيتش.

هوامش الفصل الثامن

(١) النشرة اليومية للاذاعة البريطانية يوم ٢٧ اكتوبر ١٩٨٩ SWB EE / 0598 B/8 نقلاً عن وكالة «تانيوج» ال يوجوسلافية يوم ٢٣ اكتوبر ١٩٨٩.

(٢) صحيفة الجارديان البريطانية يوم ٣١ مايو نقلاً عن وكالة «تانيوج» ال يوجوسلافية للانباء في ٣٠ مايو ١٩٨٠.

(٣) صحيفة التايمز اللندنية يوم ١٤ يناير ١٩٨٠ نقلاً عن وكالة أنباء «تانيوج» ال يوجوسلافية يوم ١٢ يناير ١٩٨٠.

(٤) النشرة اليومية للاذاعة البريطانية في ٥ سبتمبر ١٩٩٠ في SWB EE /0681 B/17 نقلاً عن وكالة أنباء تانيوج ال يوجوسلافية في أول سبتمبر ١٩٩٠.

(٥) وكالة الانباء الفرنسية في ١٥ مارس ١٩٨٦.

(٦) الانترناشيونال هيرالد تربيون ـ ٣٠ يوليه ١٩٩٠.

(٧) صحيفة الجارديان البريطانية يوم ١٢ ابريل ١٩٩٠ نقلاً عن «بوليتيكا» ال يوجوسلافية في ١٠ ابريل ١٩٩٠.

(٨) نشرة الاخبار اليومية للاذاعة البريطانية يوم ٨ اغسطس ١٩٩٠ نقلاً عن وكالة أنباء «تانيوج» ال يوجوسلافية في ٦ اغسطس ١٩٩٠.

(٩) النشرة اليومية للاذاعة البريطانية يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٨٧ في SWB EE / 8683 B / 17 / نقلاً عن وكالة أنباء «تانيوج» ال يوجوسلافية يوم ٢١ سبتمبر ١٩٨٧.

(١٠) Palmer S., and king R,Yugoslau communism and theMacedonian Question – Hanaden – Archen Books connecticnt – ١٩٧١ – P.187.

(١١) نفس المرجع السابق.

(١٢) النشرة اليومية للاذاعة البريطانية في ٢٠ اكتوبر ١٩٩٠ SWB EE/0902 B/13 نقلاً عن وكالة انباء «تانيوج» ال يوجوسلافية في ١٩ اكتوبر ١٩٩٠.

(١٣) Eastern Europe Newsletter - vol.4 No.19-7 October 1990.

الباب الثالث

من يوميات حرب الاستقلال

٣ أبريل ١٩٩١

الجيش والقوميات

لم تنجح حتى الآن المحاولات المستمرة لفرض حالة الطوارئ من جانب الزعيم الصربى سلوبودان ميلوسيڤتش ومجموعة من ضباط الجيش العاملين والمتقاعدين، للحفاظ على الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلاڤى. فاستمرار «عصبة الشيوعيين ـ الحركة من أجل يوجوسلاڤيا» sk-PJ فى السلطة يتم باسم «القانون والنظام» ورغم أن القيادة العليا للجيش اليوجوسلاڤى ليست هيئة صربية «رسميا»، إلا أن ارتباط هويته سياسياً وعرقياً بـ «الحزب الاشتراكى الصربى»sps وزعيمه ميلوسيڤيتش يجعل أى إعلان لحالة الطوارئ يفرضها الجيش، تواجه بمقاومة عريضة من «كرواتيا» و «سلوڤينيا» و «كوزوڤو». وسيؤدى هذا دون شك الى نشوب قتال خطر والى سحق المصالح الصربية ذاتها، على المدى البعيد. فستعلن كل من كرواتيا وسلوڤينيا استقلالهما من جانب واحد، من الاتحاد الفيدرالى وتطلبان مساعدة الأمم المتحدة.

وتعنى الأحكام العرفية أن الجيش يفرض حكمه المباشر على جمهوريات تمت فيها انتخابات حرة واختارت قيادات غير شيوعية فى الاتحاد الفيدرالى هذا إلي جانب أنه لايمكن أن يقاتل الجيش لوقت طويل فى حملة طابعها أقرب الى حرب العصابات تدربت عليها قوات خاصة وميليشيات فى كرواتيا وسلوڤينيا. وأى تحرك للجيش قد يثير أيضا شرارة معارك أعنف بين الشيوعيين الصرب وغير الشيوعيين، وهذا ماشهدته العاصمة بلغراد فى أوائل مارس ١٩٩١، وقد يحدث تمرد ضخم ودموى فى أقليم كوزوڤو يقوم به الألبان الذين يؤلفون ٩٥٪ من سكان الإقليم الذى له فى نفس الوقت قيمة تاريخية كبيرة بالنسبة للصرب لذا يتمسكون به، فيضيفون بذلك مشكلة الى التناقضات العرقية والقومية القائمة.

الاحتمال غير مرجح إذن حتي لقيام انقلاب عسكري. وهناك حكومتان غربيتان علي الأقل لهما مصالح قوية وثيقة علي استعداد مادي للمساعدة علي إنهاء محاولات الانقلاب. فإذا سلمنا أيضاً أن إعلان حالة الطوارئ سيكون أبعد من قدرة الجيش، فلابد وأن تتضمن خطة الجنرالات إغلاق حدود سلوڤينيا مع كل من ايطاليا والنمسا ويرابط حوالي ٣٠ ألف جندي يوجوسلاڤي بالفعل في سلوڤينيا، معظمهم في مناطق هذه الحدود. وهذا العدد كاف ـ كما يذكر الخبراء العسكريون ـ للسيطرة علي منطقة حدود تريستا وعلي معبر كرانچيسكا چورا في أقصي الشمال الغربي وعلي المعبر الرئيسي الي كلاچنفورت في النمسا، والمعبر الرئيسي في ماريبور وعلي عدد قليل من معابر الطرق الجبلية، بالسيطرة علي التحركات في معظم مدن سلوڤينيا.

تم إعداد خطة طوارىء سلوڤينية خلال العشرة أشهر الماضية، تعتمد أساساً علي المقاومة العريضة التي تنتهي بالفشل الذريع السريع للجيش استناداً إلي عداء كل السكان والي تأثير الشجب الدولي للتدخل. علي أنه إذا بدأ الجيش اليوجوسلافي بإطلاق النيران، فهناك خطط للقيام بحرب عصابات بواسطة «وحدات الدفاع الاقليمي السلوڤينية» التي يصل قوامها الي حوالي خمسين ألف شخص تحت السلاح، و«القوات الخاصة لوزارة الداخلية» وهي وحدات صغيرة مدربة من قوات البوليس، هذا إلي جانب قوة البوليس السلوڤينية نفسها.

وتتألف «قوات الدفاع الاقليمي» من جنود احتياط بين الثامنة عشرة والخامسة والخمسين قاموا بالخدمة في الجيش اليوجوسلافي ، وتمتلك قيادة تلك الوحدات خمسين مركز قيادة وتخزين أسلحة خفيفة ويقود وحداتها ضباط محترفون وضباط صف تحت قيادة وزارة الدفاع، وهي في النهاية تحت إمرة الرئيس السلوڤيني ميلان كوسان في لوبليانا. ويتم استدعاء الاحتياطي لفترة تدريب اسبوعين علي الأقل كل عام. وأسلحة هذه القوات تتكون من المسدسات والبنادق «زاستاڤا» نصف الأوتوماتيكية التي يستخدمها الجيش اليوجوسلافي وهي مصنوعة في الصرب، ثم هناك الرشاشات الخفيفة طراز «أومنيا» المصنوعة حديثاً في سلوڤينيا نفسها، ثم عدد من الأسلحة الأوتوماتيكية الرخيصة المستوردة من سنغافورة ومدافع مورتر من ٦٠ مم الي ١٢٠ مم، ومن الأسلحة المضادة للدبابات، مثل الصاروخ «أرمباست» الذي يوضع علي الكتف ويطلق متتبعاً هدفه عن طريق الحرارة الصادرة عنه وهو صالح تماماً للاستخدام ضد الدبابات والمدرعات التي يستخدمها الجيش اليوجوسلافي بما في ذلك الدبابات تي ـ ٧٢ السوڤييتية الصنع، هذا الي جانب نوعيات مختلفة من قطع المدفعية والسيارات غير المدرعة.

منذ شهر مايو عام ١٩٩٠، ووحدات «الدفاع الاقليمي» السلوڤينية في حالة استنفار ويمكن استدعاؤها في ساعة واحدة. ومن الواضح أن الروح المعنوية لأفرادها مرتفعة وهي دون شك أعلي من الروح المعنوية لقوات الجيش اليوجوسلافي لسبب بسيط، أنها تتملك «الحافز» وهو الدفاع عن «الوطن» والدافع القومي الدفين. ولايمكن بطبيعة الحال تصور تطور المسألة الي حالة الحرب الشاملة بين الجمهوريات أو بين الجيش وسلوڤينيا، لكن في هذه الحالة ستتبع «قوات الدفاع الاقليمي» تكتيكات حرب «العصابات»: «إضرب واجر» مستخدمة معرفتها الشاملة بأرضها لإقامة كمائن تقّيد حركة وحدات الجيش اليوجوسلافي المهاجم.

شخصيتان سلوڤينيتان ستلعبان دوراً حاسماً في هذه الحرب إذا نشبت هما : ايجور باڤكار الذي تدرب كضابط شرطة، وچانيز چانسا وزير الدفاع والصحفي السابق. وسوف يكون عليهما أن يستخدما كل من تدرب علي حمل السلاح. وقد أعلن جانسا بالفعل يوم

١٨ مارس ١٩٩١ - الماضي - «ان تدخل الجيش اليوجوسلافي في كرواتيا سيؤدي إلي صدور رد فعل من سلوفينيا».

ولاشك أن وضع كرواتيا محفوف بالمخاطر أكثر من أي جمهورية أخري من جمهوريات الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي. والأرجح إذا نشبت حرب سيأخذ الجيش اليوجوسلافي فيها جانب الأقلية الصربية التي تشكل ١١٪ من سكانها. ورغم إعلان ميلوسيفيتش يوم ١٦ مارس ١٩٩١ بأن «الصرب لم تعد تعترف بالسلطة الفيدرالية»، فان هذا الاعلان يتصل بمناوراته السياسية بعد المظاهرات الضخمة التي قامت في العاصمة بلجراد ضده. ويؤمن القوميون المتطرفون الصرب في كرواتيا، وبالذات صرب منطقة «كينين» بأن في إمكانهم الآن تحقيق «استقلالهم الذاتي» داخل كرواتيا. والقتال بين الصرب والكروات في كرواتيا، هو بالطبع العذر الأساسي «المفضل» لتدخل الجيش اليوجوسلافي كما رأينا في أوائل مارس ١٩٩١ بمدينة باكراس بالمنطقة السلافونية بكرواتيا. فمنذ تلك الحادثة احتفظ الجيش اليوجوسلافي بوحدات مشاة مدرعة في حالة تأهب قصوي في المنطقة. وحتي في منتصف مارس حين انتهت المظاهرات في بلجراد ظلت وحدات الجيش المدرعة تتخذ مواقعها خارج ثكنات باكراس. وظل سائقو المدرعات في كراسي القيادة. وقد سحبت سيارات القوات الخاصة الكرواتية من المدينة، وإن ظل عدداً من تلك القوات هناك. وأقام الصرب النشطون المسلحون قواعدهم في الريف المحيط بالمدينة، وطالب عمدة باكراس الصرب الانضمام الي مايطلق علي نفسه «إقليم كرايينا» الذي أعلنه الانفصاليون الصرب، ومقر رئاسته بمدينة كينين الواقعة شمال دالماتيا في منطقة ذات أهمية استراتيجية بالغة.

وتعتمد تكتيكات الحكومة الكرواتية علي عدم المجابهة، حتي لا يعطي للجيش اليوجوسلافي مبرر للتدخل. ومن الواضح أن الليفتنانت جنرال مارتين سبيجلي وزير دفاع كرواتيا - الذي كان يرأس المنطقة العسكرية الخامسة للجيش اليوجوسلافي حتي عام ١٩٨٨ - في وضع يمكّنه من تقدير رد فعل الجيش لكل فعل يصدر عن اتخاذ قرار معين. علي أن إعلان الاستقلال من جانب واحد - مثل ذلك الذي أعلنه صرب منطقة كينين - سيجعل من الصعب علي حكومة كرواتيا تجنب المجابهة. ويدرك كلا الجانبين ان إطلاق النار في كينين قد يشعل صراعاً كرواتياً - صربياً عريضاً وبذلك يقدم المبرر الكافي - الذي طال انتظاره - لتدخل الجيش.

والعامل الأساسي الآن في حسم التدخل العسكري هو الانشقاق في معسكر الصرب، بين مؤيدي ميلو سيفيتش من جانب ومعارضيه الملتفين حول ڤول دراسكو ڤيتش وجماعة «حركة النهضة الصربية» SPD ومفكري بلجراد من جانب آخر. فهذا الانشقاق يوقف تدخل القيادة العليا للجيش. ولقد كانت كينين دائماً من الناحية التاريخية مدينة بها حامية عسكرية، في بادىء الأمر كجزء من دفاعات آل هابسبورج ضد الامبراطورية العثمانية،

وهي تخدم الآن ولأسباب استراتيجية كقاعدة كبيرة للجيش اليوجوسلافي. ولو أعطيت حكومة كرواتيا كلمة بأن الجيش لن يتدخل، فإنها قد تبدأ علي الفور في تنفيذ سياسة الوعد والوعيد تجاه المتمردين في كينين. فلن يكون من الصعب هزيمتهم إذا ماظلت قوات الجيش في الثكنات.

والاعتبار الثاني هو تشريد الحصار الاقتصادي علي كينين. ولقد كان ذلك الحصار متساهلاً ليناً حتي الآن. فزغرب لم تعد تدفع مرتبات الموظفين المحليين بكنين وبالذات قوة البوليس. لكن المشكلة مع أي حصار اقتصادي مؤثر، هو أن كينين تتحكم في ملتقي أربعة خطوط سكك حديدية، لذلك يمكن أن تنتقم انتقاماً ذا آثار مدمرة علي كرواتيا.

وصرب كينين لديهم قوة البوليس الخاصة بهم، ويقولون أنها تصل الي ألف رجل مدرب ونفس العدد من الاحتياط المدرب. ويقيم المتمردون المسلحون المتاريس حول المنطقة، ويرسلون دوريات ليلية تحوطاً ضد التدخل من قبل البوليس الكرواتي. ويقولون أنهم توصلوا إلي تفاهم مع البوليس الكرواتي بألا يتدخل أحد منهم في منطقة نفوذ الآخر. ويتسلح المتمردون ببندقية «زاستاف» نصف أوتوماتيكية، ويبدو أن لديهم كمية معقولة من المتفجرات. وفي تقدير المتمردين أن كرواتيا تحتاج الى خمسين الف جندي للسيطرة علي كراجينا. لكن العسكريين اليوجوسلاف يقولون أن كتيبة نظامية مدربة ومسلحة جيداً مؤيدة بطائرات هليكوبتر يمكن أن تستولي علي كينين إذا ماقدمت تسوية سياسية سلمية في نفس الوقت تمهد الأمر للسكان والمتمردين. لكن من الواضح أن يبدو أن المتمردين يستمتعون بتلك «اللعبة»!

٢ اغسطس ١٩٩١

خلافات الجنرالات ...

تتصاعد «الحرب الأهلية» في المناطق التي يسكنها الصرب من كرواتيا. وأكدت الأحزاب والمنظمات غير الصربية في البوسنة ـ الهرسك ، بما في ذلك «المجلس الاسلامي» أكدت مقاومتها، وبالقوة إذا تطلب الأمر، لأي محاولة من جانب الصرب لضم أجزاء من جمهورية البوسنة ـ الهرسك. و«الجيش الوطني اليوجوسلافي» مهدد بالتحلل إلي أقسام، بعد أن بدا الخلاف واضحاً بين وزير الدفاع الجنرال ڤيلكو كاديچينفتش المعتدل الذي يقف ضد طموحات رئيس الاركان الصربي القومي الجنرال بلاجوچي أدجيتش. وفشل اجتماع ٢٢ يولية بين قادة الجمهورية الفيدرالية وقادة الجمهوريات عندما انسحب رئيس مجلس الرئاسة الحالي، الكرواتي، فرانچو تودجمان بعد فشله في الوصول الي اتفاق لينسحب الجيش في كرواتيا إلي ثكناته، وكذا نزع سلاح متمردي «كراچينا» . من

الواضح إذن أنه لم يعد من الممكن تفادي «حرب أهلية» شاملة، قد تشارك فيها دول أجنبية رغم محاولات حصر الخلافات في يوجوسلافيا وحدها.

بدأت قمة أوهريد صباح ٢٢ يولية ١٩٩١ علي أساس استمرارها يومين، وضمت اجتماعاً رئاسياً موسّعاً: يتكون من أعضاء مجلس الرئاسة الثمانية ورؤساء الجمهوريات الست التي تشكل الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي، وعدد من كبار المسئولين في الحكومة الفيدرالية، بينهم .. مسئولين من وزارة الدفاع. كان اجماع قمة أوهريد قد تأجل لمدة اسبوعين، بعد اجتماع بريوني لوقف إطلاق النار الذي أشرفت عليه وشاركت فيه «السوق الأوربية المشتركة». تناول اجتماع القمة ثلاث مشاكل أساسية :

*قرار مجلس الرئاسة الفيدرالي الذي اتخذ يوم ١٨ يولية بانسحاب القوات الفيدرالية بكل أسلحتها ومعداتها من سلوفيينيا وعودتها الي ثكناتها في الصرب وفي البوسنة ـ الهرسك.

* وقف إطلاق النار ثلاثة أشهر حتي منتصف اكتوبر ١٩٩١،

* وضع أسس المفاوضات حول نظام يوجوسلافي جديد كما اتفق مع «السوق الاوربية المشتركة» EEC ومجموعة الدول الخمس والثلاثين في مؤتمر الأمن والتضامن الاوربي CSCE وتم اجتماع قمة ـ ثلاثي ضم ممثلي سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة ـ الهرسك، في نهاية الأسبوع الأخير من يولية ١٩٩١ للتحضير للمفاوضات.

ومن الواضح الآن أن معسكر الصرب علي استعداد لبدء المفاوضات. وطلبت القيادة العليا للجيش أن يقدم كل رئيس جمهورية ضمانات مكتوبة وموقعة بأنه لن يكون هناك «سفك دماء» علي أراضي جمهوريته في فترة الأشهر الثلاثة التي اتفقت عليها «السوق الأوربية».

ومن الواضح أن الرئيس الكرواتي تودجمان كان تحت ضغط أكثر من غيره، حتي لاتتم السيطرة علي جزء كبير من أراضي جمهوريته.

وتدور حرب عصابات علي طول هلال قسم كرواتيا الذي تحلم الصرب بضمه الي «الصرب الكبري» أي من الحدود الكرواتية ـ المجرية شمال اوسيچيك، الي زادار علي الشاطي الادرياتيكي. وتقول أخبار موكدة أن الصرب قد عبأت عدداً كبيراً من قوات الاحتياط، في الصرب نفسها وفي البوسنة ـ الهرسك، ويقال أن عددهم يصل إلي مائتي ألف. كذلك قام الجيش بتسليح مدنيين صرب كثيرين في البوسنة ـ الهرسك علناً وكذا سلّحتهم منظمات صربية. وأجلي أطفال ونساء صرب من كرواتيا إلي الصرب ويهاجم الصرب الكروات في كرواتيا بالمسدسات والمدي والقنابل اليدوية والمورتار استعداداً للمعركة الشاملة.

ويبدو كما لو أن الجيش يتبع تكتيك «الحياد» في المنطقة، وهو نفس الموقف «الرسمي»

الذي اتخذه في «كراچينا» منذ تمرد الكنين. ويعرف الكنيون الانفصاليون أحياناً باسم «قوات مارتيتش»، وهو رئيس البوليس المحلي الذي يقودهم. وهم إلي جانب تنظيم الصرب «العسكري» المعروف باسم «الشيتنيك»، نشطون عسكرياً في كل أنحاء المنطقة التي يريدون إعلانها جزءاً من جمهورية الصرب في حالة استقلال كرواتيا. وهم يخططون لاستفزاز الكروات حتي يتدخل الجيش. وليس مصادفة أن يتحرك ڤوچيلاڤ سيسلي زعيم منظمة «الشيتنيك»، بطائرة هيلكوبتر عسكرية يقدمها له الجيش. ولم يعد هذا خافياً.

ويجادل الجيش بأن اتفاقية وقف اطلاق النار التي تؤكد عودة الجيش إلي ثكناته، تنطبق علي سلوڤينيا فقط، وعلي القوات الاضافية التي تحركت إلي هناك. وهناك الآن مراقبون لملاحظة تطبيق وقف إطلاق النار من دول «السوق الأوربية المشتركة» وعدد أقل من بعض الدول المجاورة. ووصل عدد المراقبين الي خمسين مراقباً في الأسبوع الاخير من يولية ١٩٩١. ويبدو أنهم غيروا وجهة نظرهم الأصلية من أنه ليس لهم علاقة بالموقف العسكري في كرواتيا. وأدي هذا التأخير المتردد إلي خندقة منظمة «الشيتنيك» شبه العسكرية ووحدات الدفاع الصربية الاقليمية، وقوات الجيش، في كرواتيا.

ويستكمل الجيش اليوجوسلاڤي الآن عملية استراتيجية كبري لإعادة انتشار قواته في وسط يوجوسلاڤيا، وهي عملية كانت قد بدأت منذ خمس سنوات، عندما بدأها وزير الدفاع آنذاك الأدميرال برانكو مامولا عندما اختصر قيادات الجيش الستة الي ثلاث تمركزت في العاصمة بلجراد وفي زغرب وفي سكوپي. وأقام عدة معسكرات بطول حدود كرواتيا الشرقية، والجنوبية ـ الشرقية. وقد يكون هذا مصادفة، لكن هذه المعسكرات تتماشي مع الحدود الغربية «للصرب الكبري»!

وتعتمد كرواتيا أساساً في القتال ضد عمليات الصرب والجيش علي قوات الميليشيا الخاصة بها. وهي لا تريد «لقوات الدفاع» التي شكلتها مؤخراً تحت اسم «الحرس الوطني» أن يشارك في أية عمليات الآن خوفاً من إشعال حرب شاملة. ومازال قادة جمهورية كرواتيا يأملون في التفاوض مع الجيش للوصول إلى اتفاق، ويعتمدون في نفس الوقت علي التأييد الدولي، وكذا علي إنهيار «الحملة الصربية» سياسياً ومالياً.

وجاء فشل اتفاقية الانسحاب الكامل لقوات الجيش في الأسبوع الأخير من يولية ١٩٩١، تلك الاتفاقية التي عقدت بين القيادة العليا للجيش وچانيز درانوڤسيك ممثل جمهورية سلوڤينيا، جاء ذلك في سياق تحقيق أهداف «الصرب الكبري». وبعد ان قام الجيش بـ «العملية بيديم» المدمرة ضد سلوڤينيا، عرض السلوڤانيون مرة أخري اقتراحهم المبكر بفترة انتقالية تمتد الي ثلاث سنوات علي شرط الانسحاب الفوري للجيش بعدها. وذكرت مصادر سلوڤينية أن چانيز درانوڤسيك أعاد تقديم هذا الاقتراح في مفاوضات سرية مباشرة مع الجنرال كاديچيفيتش وزير الدفاع المعتدل نسبياً والذي يواجه ضغوطاً

كبيرة من مجموعة الضباط الصرب القوميين المتطرفين الملتفين حول الجنرال أدزيك. لكن ليس من المنتظر تنفيذ الاتفاقية، أو تنفيذها بحذافيرها.

كان الجنرال كاديچيفيتش قد أحضر معه إلى اجتماع مجلس الرئاسة الذي انعقد ببلغراد في ١٨ يولية ١٩٩١، خطة جاهزة لانسحاب الجيش. وكانت «جبهة» الصرب قد رفضت أن تحضر اجتماع مجلس الرئاسة الذي دُعي إليه يوم ١٤ ثم يوم ١٥ يولية ١٩٩١ بجزيرة بريوني، مقر الرئيس السابق چوزيف بروز تيتو، وكانت حجة عدم الحضور انهم في انتظار أن تصل القيادة العليا للجيش إلي قرارات استراتيجية. ونوقشت خطة الانسحاب التي قدمتها سلوڤينيا بشكل مطوّل في المجلس الرئاسي ثم مرت وتمت الموافقة عليها بأغلبية ستة أصوات ضد صوت واحد وامتناع واحد. ومررت أصوات «جبهة» الصرب الأربعة القرار. وأصر رئيس جمهورية يوجوسلاڤيا (آنذاك) ميسيتش (وهو كرواتي) أن تغطي اتفاقية انسحاب القوات كل قوات الجيش اليوجوسلاڤي بكرواتيا أيضاً. ولذا كان هو الذي صوّت ضد الاتفاقية. وكان بوچيك بوجيسييفيتش رئيس جمهورية البوسنة ـ الهرسك هو الذي امتنع عن التصويت، لأن الجناح الاسلامي ـ الكرواتي في حكومته يقف بشدة ضد استخدام أراضي جمهورية البوسنة ـ الهرسك كقاعدة للجيش اليوجوسلاڤي وكنقطة قفز علي كرواتيا وسلوڤينيا. ومن المعروف أن قوات السلاح الجوي اليوجوسلاڤي قد انتقلت من كرواتيا الي قواعدها في البوسنة ـ الهرسك. وقد أوقفت البوسنة ـ الهرسك إرسال مجندين جدد إلي الجيش اليوجوسلاڤي. وتهدد مقدونيا بأن تفعل نفس الشيء. وقد صوّت ڤاسيل توپوركوڤيسكي رئيس مقدونيا إلي جانب تنفيذ الخطة في اجتماع مجلس الرئاسة.

وليس وقف إطلاق النار في سلوڤينيا مسألة سهلة، فكما أشار چانيز چانسا وزير الدفاع السلوڤيني، تضمنت «عملية بيديم» انسحاب الجيش إلي وسط يوجوسلاڤيا، ليركز قواته في كرواتيا، إذا مافشلت المرحلة الأولي من العملية ـ ويصمم چانيز جانسا علي انسحاب قوات الجيش بمعداتها رغم أن رغبته الحقيقية في واقع الأمر أن يترك الجيش بعض معداته.

ومن الواضح أن انسحاب الجيش من سلوڤينيا، يقلق كرواتيا، خاصة وأن البرلمان الصربي مررّ قانون دفاع جديد الاسبوع الأخير من يولية ١٩٩١ لتطوير «قوات الدفاع الصربية الاقليمية» ولربطها أكثر بالجيش اليوجوسلاڤي.

ويعارض جنرالات الجيش اليوجوسلاڤي، علناً، الانسحاب من سلوڤينيا. وينادون بإقالة ماركوڤيتش علي أساس انه خان بتقييده يدي الجيش، وتحميله الجيش مسئولية الفوضي العسكرية في جمهورية سلوڤينيا. كذلك يطالبون باستقالة فچيلكو كاديچيفيتش وزير الدفاع، متهمين إياه بعدم كفاءته العسكرية وبالتردد. ويريد الصقور إيقاف الاتفاقية

السلوفينية لوقف إطلاق النار. وذكرت مصادر سلوفينية أنه في حديث للكولونيل ليوبومير باجيتش مع ضباط معسكر فرنيكا خارج ليوبليانا قال ان ١٥٠ طائرة عسكرية تستطيع أن تمحو سلوفينيا من علي الخريطة، إذا ما استدعت الضرورة. وهذا صحيح، إذ ان السلاح الجوي اليوجوسلافي لديه ٤٥٥ طائرة حربية ومائتا هليكوبتر مسلحة، ويصل عدد افراد السلاح الي ٣٢ الف جندي ليس بينهم غير أربعة آلاف مجند.

لكن المرجح أن هذا الضرب سيؤدي الي تدخل «حلف شمال الاطلنطي» (الناتو) بإرسال قواته السريعة الانتشار لذا يعارض اليوجوسلاف المعتدلون من غير الصرب استخدام الجيش للقوة في أي جمهورية يوجوسلافية من جمهوريات الاتحاد الفيدرالي، ويطالبون بطرد الجنرال أدزيتش من الخدمة، وإعادة تعيين الضباط العديدين من غير الصرب الذين طردوا من الجيش في كل أنحاء البلاد.

والجيش أقرب إلي التفتت الآن منه الي القيام بعمل عسكري شامل ضد سلوفينيا. انه أقرب الي التفتت الي مجموعات متناثرة علي أساس سياسي وعرقي - إثني. فالقيادة العليا للجيش لا يسيطر عليها الجنرال كاديجيفيتش، وهي في نفس الوقت لا تدعيٍ انها تخضع للرئاسة الفيدرالية، وهي تملي شروطها الآن صراحة. وفي محاولة يائسة لكسب الوقت أعلن الجنرال كاديجيفيتش في الأسبوع الأخير من يولية ١٩٩١ أن «علي القادة السياسيين التوصل إلي تسوية قبل الرابع عشر من اغسطس»، مدعياً أن «الجيش سيأخذ الأمر بين يديه، أو يحاول ذلك علي الأقل، إذا مافشلوا في ذلك».

٣١ اغسطس ١٩٩١

ساحة الحرب اليوجوسلافية

لم يبق أمام يوجوسلافيا إلا أمل تنفيذ «المبادرة الأوربية» المقترح تنفيذها أول سبتمبر ١٩٩١. لكن التصعيد المستمر للعمليات العسكرية في كرواتيا بين القوات الكرواتية من جانب، وقوات الجيش المشتركة للجيش الوطني اليوجوسلافي والقوات الصربية من جانب آخر قد يؤدي إلي وضع جديد في أوربا. فهناك حديث متزايد الآن عن «إمكانية تدخل أوربي - غربي - عسكري محدود»، بعد أن وصلت «الوساطة السلمية» إلي طريق مغلق. جاء ذلك بعد أن أعلن الرئيس الكرواتي فرانچو تودچمان، انه إذا لم ينسحب الجيش اليوجوسلافي إلي ثكناته حتي ٣١ اغسطس ١٩٩١، فستعتبر كرواتيا نفسها رسمياً في حالة حرب مع يوجوسلافيا. ولم يتوقع أحد استجابة الجيش اليوجوسلافي - الذي تتولي

قيادته عناصر صربية لهذا «الانذار». وهكذا تتجه البلاد إلي حرب أهلية ضروس، تنجر اليها جمهورية «البوسنة ـ والهرسك »، ومقاطعة كوزوڤو بأغلبيتها من الاقلية ـ الاثنية الألبانية (٩٥٪ من سكانها).

ولن يقتصر الأمر علي الجمهوريات اليوجوسلاڤية، وانما ستمتد الحرب لتشمل جيرانها: المجر، والبانيا وبلغاريا واليونان. ثم أن مليونين من أهالي جمهورية البوسنة من المسلمين، ولاشك أن دولاً اسلامية ستهب لمساعدتهم، ويصل اليها متطوعون مسلمون.

ويؤدي اعتراف دول أوربية دبلوماسياً بجمهورتي سلوڤينيا وكرواتيا الي إمكانية تدخلها عسكرياً في محاولة لفض الاشتباكات وحل النزاع، وسيكون هدف «التدخل الأوربي المحدود» هو «التخفيف من قدرات الجيش اليوجوسلاڤي القتالية». ويخشي الأوربيون أن تؤدي الأزمة الي ظهور نظام يوجوسلاڤي شمولي ـ ستاليني ـ جديد، يعتمد علي التوسع العسكري في البلقان. وهو ماتتجه إليه الصرب الآن من الناحية العملية.

فالقيادة العسكرية للجيش اليوجوسلاڤي كادت ان ترقي علنا إلي «عصبة ـ عسكرية ـ حاكمة»، وقد انزلقت تماماً لتتحالف علفاً مع القوات الصربية، وتعمل القيادة العسكرية الآن بمفردها غير خاضعة للقيادة السياسية للجمهورية الفيدرالية. وتقوم طائرات الجيش ودباباته الآن بضرب أهداف مدنية كرواتية، في حرب حقيقية، وتضم هذه الأهداف المنازل العامة والمستشفيات والمدارس ومخازن الحبوب. ولم يعد للجنرال ڤيليچكو كاديچيڤتش وزير الدفاع أي سلطة علي القيادة العليا للجيش، وهو نفسه لم يحاول تغطية الخسائر المدنية بالقول بأن الضرب غير مقصود مثلاً. كان وزير الدفاع يقيمً في أوربا الغربية علي أنه معتدل معقول يريد حل النزاع دون عنف ودون تدخل الجيش ودون حرب أهلية بالتالي. لكن يبدو أنه غيرّ موقعه الآن بعد أن أجري حساباته. وهناك من المراقبين من يقول أن وزير الدفاع كان يراوغ وانه ينبغي إعادة تقييم مواقفه حتي يمكن الحكم عليه حكماً صحيحاً.

ويذكر مؤرخو البلقان بهذا الصدد «المدرسة الصربية العسكرية القديمة» وعلى وجه الخصوص التكتيكات «الميكافيللية» لزعيم «الشيتنيك» الفاشيستى دريز ميهيلوڤيتش فى الحرب العالمية الثانية، عندما رفض التعاون مع الحلفاء لمدة سنتين، على أساس أن التعاون مع النازية ضد «الأنصار الشيوعيين» ـ الذين كانوا يخوضون حرب المقاومة ضد الجحافل الهتلرية التى احتلت البلاد ـ هو أمر لايستطيع مقاومته، لأن قادة «الشيتنيك» المحليين يقومون بهذا الإجراء الانتقامى ولا يستطيع السيطرة عليهم، وادعي أن هذه «ليست سياسة الشيتنيك». وقد قبضت المخابرات البريطانية عليه عام ١٩٤٣ متلبساً، فى اجتماع مع أحد ضباط النازى.

وقد تؤدى أحداث الانقلاب الفاشل فى موسكو ضد الرئيس السوڤييتى ميخائيل جورباتشوف (وما تلاه من ضرب للحزب الشيوعى والشيوعيين، وتطهير قيادة الجيش

وقيادة الكى. جى. بى) إلي نتائج عكسية في الصرب. فقد تؤدي إلي تصميم القيادة الصربية الستالينية - الجديدة، وقيادة الجيش علي استمرار النظام الشمولي واعتباره آخر قلاع الشيوعية في أوربا. فالجنرالات في القيادة العليا من أمثال الادميرال برانكو مامولا والجنرال بلاچوچي ادزيتش المتعصب القومي، لايختلفون في كثير أو قليل عن الماريشال السوفيتي سيرجي أخروميف الذي انتحر بإطلاق الرصاص علي نفسه بعد إعداده لإنقلاب موسكو الفاشل.

ومن المنطقي ألا تفضي المفاوضات مع الجنرالات المتعصبين قومياً، أو المؤيدين للصرب وطموحاتها التوسعية أو الذين يعتقدون أنهم الحصن الأخير للشيوعية في أوربا، الي نتيجة. وتضم مجلة «بارودنا ارميچي» الاسبوعية الناطقة باسم الجيش ترسانة ايديولوجية كاملة عن وجهات النظر هذه. إنها تؤكد علي أن ماتواجهه يوجوسلافيا ليس مشكلة قومية، وانما مؤامرات رأسمالية امبريالية من جانب «حلف شمال الاطلنطي» (الناتو) والولايات المتحدة الأمريكية ضد «الجيش اليوجوسلافي» وحذر الجنرال كاديچيفتش أن الجيش اليوجوسلافي لن يقبل أي نوع من «الوجود العسكري» كحل للمشكلة، وسيعتبره عملاً من أعمال العدوان والتعدي علي سيادة البلاد، حتي ولو كان تحت علم الأمم المتحدة أو «دول السوق الأوربية المشتركة». وقد رفضت الصرب تواجد مراقبين عسكريين من «السوق الأوربية المشتركة». وينطبق هذا مع تصريحات الجنرال كاديچيفيتش الذي هدد في الأسبوع الاول من اغسطس ١٩٩١ حكومتي مقدونيا والبوسنة بالهجوم علي أراضيهما إذا لم تستجيبا للأوامر التي يصدرها الجيش، باستدعاء المجندين للجيش الفيدرالي، رغم أن هذا غير قانوني طبقاً للدستور. وكان رئيس جمهورية البوسنة - الهرسك ، علي عزت بيجوفيتش قد دعا إلي استبدال إثنين علي الأقل في قيادة الجيش بجمهوريته بجنرالين مسلمين من أهل البلاد، وأن يعاد تشكيل قيادات الجيش اليوجو سلافي بالبوسنة علي هذا الأساس الاثني - القومي - الديني. وتتكون قيادة الجيش في البوسنة من خمسة ضباط كبار صرب.

ويقوم الجيش اليوجوسلافي الآن بإنشاء قاعدة عسكرية كبيرة بـ «ماجليچاج» بالبوسنة، وقاعدة جوية كبيرة مماثلة بالقرب من مدينة «بانچا لوكا» عاصمة «المنطقة الصربية ذات الحكم الذاتي للبوسنة كاراچينا». ويلاحظ المحللون العسكريون أن هذه الخطة تتمشي تماماً مع خرائط «صربو سلافيا» - أي «الصرب الكبري»، حتي تكون شبكة الصواريخ بالذات تحت سيطرتها. أما كيف سيتم تمويل هذه «الخطة» فمازال سراً لم يكشف عنه النقاب بعد.

وتسير الأمور في اتجاه تأسيس «الصرب الكبري». وهكذا دعا سياسيون صرب في شهر يوليه ١٩٩١ الي رسم الحدود الغربية للصرب، بسرعة وحسم. وبين هؤلاء البروفيسور

المنشق ميهايلو ماركوفيتش استاذ الفلسفة، والبروفيسور نائب الرئيس الصربي بوديمير كوستيش استاذ القانون الدستوري بجامعة بلجراد. وهنا تكمن المخاطر، ذلك أن أحداً من هؤلاء لايضع في اعتباره التقسيمات الاثنية ـ القومية. فمنطقة بارانچي الغنية بالقمح والبترول، ٤٢٪ من سكانها كروات و٢٥٪ صرب، و٢٠٪ مجريون ! فكيف يمكن الحفاظ علي إستقرارها في مثل هذا الجو؟

١١ اكتوبر ١٩٩١

تحالف الصرب مع الجيش

من المتوقع تكثيف «الحرب الأهلية» اليوجوسلافية في الأسابيع القادمة بعد تعبئة الصرب والكروات. ويتوقع في نفس الوقت اعتراف حكومات أوربا الغربية باستقلال كرواتيا وسلوفينيا، رغم أن هذا الاعتراف ـ في تلك المرحلة. لن يخفف من المعارك المشتعلة. أما جهود السلام التي تبذلها مجموعة دول «السوق المشتركة فقد أصبحت عقيمة بسبب الطريقة التي تمت بها ولا تعطي الفرصة للدبلوماسية التقليدية، والنتيجة أن أصبحت المبادرة مع الأجنحة المتطرفة في كرواتيا والصرب علي السواء. وبذلك قد يحدث «تدخل» أوربي، «شبه عسكري» محدود، هدفه التخفيف من شدة الصدام المسلح وحصره في إطار الحدود اليوجوسلافية.

هناك تحالف وثيق الآن بين القيادة السياسية الصربية الستالينية ـ الجديدة بزعامة سلوبودان ميلوسيفتش، وقيادة الجيش اليوجوسلافية، الصربية الآن. ويقدر أن قوات الجيش اليوجوسلافي في كرواتيا قد انخفضت عددياً الي النصف ـ أي إلي حوالي ١٢ الف جندي ـ بسبب هروب الجنود من الخدمة والانحياز الي الكروات والأسر. وقد فشلت محاولات الجيش حتي الآن في تعويض هذا النقص، من المجندين الصرب وحدث نفس الشيء بالنسبة للقوات البحرية التي أحيل قائدها الادميرال فريدريش موريتي علي المعاش وكان يطالب وزير الدفاع الجنرال ڤجيلكو كاديچيفتش بعدم اشراك القوات البحرية في «الحرب الأهلية» الدائرة. والغريب في الأمر أن الادميرال فلادي باروڤيتش وهو من أهالي «الجبل الأسود» انتحر بعد أن تولي المنصب بأسبوع واحد.

وقد ركز الجيش اليوجوسلافي أن حوالي ١٥٪ من كل قواته بمنطقة استراتيجية حيوية شرقي سلوڤينيا علي طول الحدود مع الصرب، وتمثل هذه النسبة ٣٥٪ من قواته بكرواتيا. ورغم أن مدينة ڤوكوڤار قد سويت بالأرض، إلا أن الجيش لم يستطع الإستيلاء عليها حتي

الآن رغم مرور شهرين علي بدء هجومه عليها، ورغم حصار قوات حرب العصابات الصربية.

ورفضت كل من سلوڤينيا وكرواتيا مد وقف إطلاق النار الذي استمر ثلاثة أشهر بطلب من بعثة دول «السوق الأوربية المشتركة» وكانت الفترة قد انتهت في منتصف ليلة السابع من اكتوبر ١٩٩١. ومن المنتظر أن تعترف دول السوق باستقلال الجمهوريتين خلال الأسابيع القليلة القادمة. فقد كان «مؤتمر السلام» غير منتج، إذ سمح للقوات أن تتجمع وتستعيد قواها، مما أدي إلي تصعيد الصدام المسلح والمعارك. لكن لاشك أن اعتراف «دول السوق» سيشجعه انقلاب القصر في الرئاسة الفيدرالية اليوجوسلافية والذي تم باتفاق واضح بين جمهورتي الصرب والجبل الأسود، علي أساس أنه لابديل عن الاعتراف بالفعل. وزيادة علي ذلك فإن الجنرال كاديچيفتش يواجه ضغوطاً متزايدة من الصرب القوميين المتطرفيين لشن حرب شاملة ضد كرواتيا وسلوڤينيا ولم يصدق وزراء خارجية «السوق في مؤتمر السلام بلاهاي» الأسبوع الأول من اكتوبر علي ماذكره من انه يسيطر تماماً علي الجيش.

بعد قرار وقف إطلاق النار في ٢٢ سبتمبر ١٩٩١، خفف الكروات من حصارهم لثكنات الجيش حتي يسمحوا لأنفسهم بجمع المعدات التي استولوا عليها منه، لكن سرعان ماكثفّ الجيش من هجماته. وعندما قام الكروات بهجوم مكثف أعلنت الصرب التعبئة العامة، فرد رئيس كرواتيا فرانچو تودجمان بإعلان التعبئة في كرواتيا.

وأعلن الجنرال كاديچيفتش الأسبوع الأول من اكتوبر ١٩٩١، وهو يقدم انذاره لكرواتيا، عن أهدافه الرسمية : الدفاع عن كرواتيا ضد حكومة كرواتيا «الفاشية»- «النازية الجديدة» كما يقول، وحماية الصرب الذين يعيشون في كرواتيا. وأعلن في نفس الوقت عن سياسته الجديدة بتدمير مبني كرواتي، مقابل كل ثكنة تحاصرها القوات الكرواتية. ويضع الجيش كل إمكانياته التي يمتلكها في حربه ضد كرواتيا مما يشكل مغامرة غير عادية خاصة من ناحية رد الفعل العالمي، هذا إلي جانب احتياطيه الإستراتيجي. وحقيقة الأمر أن تدمير الآثار التاريخية وكنائس العصور الوسطي في كرواتيا، يدفع أهلها إلي المزيد من المقاومة والهجوم المضاد. وقد بدا واضحاً أن الهجوم علي الآثار الدينية بزادار ودوبريڤنيك علي الشاطيء الادرياتيكي، هجوم متعمد. وقد يجبر الأربعة آلاف مسلّح كرواتي الذين يدافعون عن دوبريڤنيكو علي الاستسلام لنفاد سلاحهم و مؤونتهم وطعامهم، هذا إذا لم تصلهم إمدادات قبلها. والي جانب الأهمية التاريخية للمدينة فان لها أهمية استراتيجية بالنسبة للجيش ذلك انها مدخل بوكا كوتورسكا حيث يخطط الجيش لإقامة قاعدة بحرية أساسية بكيومبور. ويحاصر المسلحون والكروات ثكنة بريڤلاكا العسكرية بها. كذلك هناك محطة ملاحة جوية بموليونات. ومن الواضح أيضاً أن تدمير

ميناء زادار له هدف إستراتيجي، هو محاولة يائسة لتأمين ميناء في المنطقة، بعد الفشل في استيلاء الجيش علي سيبينيك الأسبوع الأول من اكتوبر ١٩٩١.

ولقد كانت سيبينيك حرجة بالنسبة لاستراتيجية الجيش البحرية، وليست كمجرد مخرج «لدولة الصرب الغربية» المخطط لها، ولكن كموقع حيوي للسيطرة علي كل الشاطيء الادرياتيكي. وأخذ الجيش يسحب السفن والأفراد ومعداته الحربية من قاعدتي سبليت وبولا البحريتين. ومن الواضح أن قاعدة زونوڤيكا الجوية بجوار سبليت لم يكن بها أحد عندما اجتاحتها القوات الكرواتية في أوائل اكتوبر.

وقاعدة كيومبور صغيرة ولايمكنها استيعاب كل السفن الحربية ولا البني التحتية، وهي أيضاً بعيدة إلي الجنوب جغرافياً لا يمكنها السيطرة علي الادرياتيكي. وقد استولي الجيش علي جزيرتي ڤيز ولاستوڤو رغم أنه ليس لهما أهمية من الناحية الاستراتيجية البحتة إلا في إطالة الحرب الأهلية. ويبدو أن هذا هو التفسير الوحيد لترك قطع المدفعية الثقيلة وورشة فلاديمير سكوربنيك لإصلاح السفن في سيبينيك وكذا قاعدتي كروجونزنيكا وجزيرة زيرچي أمام سيبينيك التي من الواضح أن الجيش قد تركها مؤقتاً الآن علي أمل استرجاعها فيما بعد كجزء أساسي من لاستراتيجية العسكرية الشاملة.

وعندما صدرت الاشارة من زغرب بأن تقوم القوات الكرواتية بحصار شامل عام لكل ثكنات الجيش ومؤسساته بكرواتيا، كانت سيبينيك علي أهبة الاستعداد. لم تكن القوات الكرواتية تمتلك الأسلحة الكافية لذلك. لكن خلال اتصالات شخصية - دبلوماسية مع القادة الصربيين لقاعدتي كروجوزنيكا وجزيرة زيرچي والست عشرة ثكنة عسكرية، سمحوا لهم بالخروج مقابل تسليم أسلحتهم. وهكذا تم الاستيلاء علي ثماني ثكنات دون مقاومة تذكر. وعندما أرسل الجيش طائراته وسفنه لفك الحصار عن سيبنيك، أطلقت عليها النيران لأن القوات الكرواتية استمرت ترفع العلم اليوجوسلاڤي للخداع. وهذا هو سبب الخسائر الفادحة التي مني بها الجيش في سيبنيك. وتدعي القوات الكرواتية أنها أصابت اثنتين وعشرين طائرة وخمسة حوامات - طائرات هليكوبتر - وقاربا حربيا وغواصة وعدة دبابات. وكان الاعتقاد السائد بين المحللين العسكريين قبل معرفة الحقيقة، أن الجيش حاول الهجوم، فواجه تلك الخسائر.

٥ ديسمبر ١٩٩١

البوسنة تقدم قضيتها

تعترف المانيا باستقلال كرواتيا وسلوڤينيا عن الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلاڤي بعد قمة

ماستريخت التي ضمت رؤساء دول وحكومات «السوق الأوربية المشتركة» الاثنتي عشرة لمناقشة «التكامل الأوربي»، لكن المانيا لن تكون وحدها بين الدول الأوربية، ذلك أن هجوم «الجيش الوطني اليوجوسلافي» علي فوكوفار والمدينة ذات الآثار التاريخية دوبروفنيك، ومدن وقري كرواتية أخري، وعلي وجه الخصوص أوسييك، كان له تأثير كبير في القضاء علي معارضة بعض دول السوق علي استقلال الجمهوريتين. وكانت المانيا تعلن أنها ستأخذ موقفاً مستقلاً إذا عارضت دول السوق الأخري هذا، بعد قمة ماستريخت يوم العاشر من شهر ديسمبر ١٩٩١. لكن ايطاليا تعمل الآن مع المانيا بشكل وثيق، بعد أن بذل وزير خارجيتها جهوداً مضنية لمنع تفكك يوجوسلافيا. وصرح المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية الايطالية أن بلاده ستعترف باستقلال الجمهوريتين يوم ١٨ ديسمبر إذا لم يتوصل «الوسطاء» إلي حل ترضي عنه جميع الأطراف، لكن وزير خارجية المانيا هانز ديتريش جينشر يفضل الاعتراف بالاستقلال بعد قمة ماستريخت مباشرة، وعدم الانتظار حتي لأيام. أما الحكومة البريطانية فهي تميل الي الاعتراف بالجمهوريتين من ناحية المبدأ. لكن هناك تحركا دبلوماسيا من بعض وزراء خارجية دول السوق خلال الاجتماعات والاتصالات التي تجري الآن علي قدم وساق، حتي يخرج عن قمة ماستريخت «بيان مشترك» حول الاستقلال، خاصة بعد أن أدركت الدول الأوربية استحالة تجنب استقلال عدد من الدول كانت تتطلع تاريخياً الي حريتها. وكانت نتيجة الاستفتاء العام في اوكرانيا الذي اجري في آخر نوفمبر ١٩٩١ هو الذى فتح الطريق على مصراعيه أمام هذا الإدراك ويساعد الإصرار على عدم احترام عمليات وقف اطلاق النار المتتالية فى يوجوسلافيا، يساعد الدول الأوروبية على اتخاذ قرارها.

لكن مبعوث الأمم المتحدة سيروس ڤانس لن يتوقف عن مساعيه لوقف إطلاق النار من جديد فعندما عاد فى أول ديسمبر ١٩٩١ الى بلغراد، صرح مساعدوه العسكريون (من الأمم المتحدة) بأنهم يحملون معهم خطة انتشار وحدات حفظ السلام فى النقاط المشتعلة التى تدور فيها الحرب الأهلية وكذا نقاط «الأزمة» فى كرواتيا، وربما فى البوسنة - الهرسك . وتجنبت الخطة توزيع قوات الأمم المتحدة بطول حدود كرواتيا، وهذا مايجعلها مقبولة من الصرب و«الجيش الوطنى اليوجوسلافى» ، رغم أن المراقبة بهذه الطريقة تصبح عملية صعبة ومعقدة، ولما ستقابله أيضاً من عقبات. وعلى سبيل المثال ما أعلنه رئيس مايسمى بـ«المنطقة الصربية ذات الحكم الذاتى»، ميلان بابيك من أن برلمانه لن يوافق على انتشار قوات الأمم المتحدة إلا على «حدود» المنطقة مع كرواتيا. والمنطقة كلها جزء من كرواتيا، لكن أغلبية سكانها من الصرب.

لكن كرواتيا نفسها قد لاتقبل فى هذه الحالة تدخل الأمم المتحدة طالما أنه لايقدم ضمانات لكل حدودها وأراضيها، لأنها تحارب من أجل هذه الأراضى، وفى هذه الحالة

لابد وأن تتنازل الصرب عن كل أطماعها في كرواتيا والتنازل عن حلم «دولة الصرب الكبرى» بديلاً ليوجوسلافيا. والحل أن يكتفي الصرب بضمانات لمواطنيهم الصرب في «الدياسبورا» . ولا شك أن الاعتراف بكرواتيا سيكون معناه على الأغلب استثناؤها من قرار منع تصدير السلاح الى يوجوسلافيا، الصادر عن الأمم المتحدة. وقدم رئيس الأركان الكرواتي الجنرال أنطون طوس تصوره لخطة قوات الأمم المتحدة المطلوبة في مقابلة مع مجلة «فيينيك»، فقال أن «كرواتيا توافق علي انتشار قوات الأمم المتحدة في مناطق الأزمة والتوتر، إذا ماتم انتشارها أيضاً على طول الحدود الكرواتية وبطبيعة الحال إذا انسحب الجيش من كرواتيا تماماً». وأشار الى أنه يتوقع مساعدات خارجية لتأسيس «سلاح طيران»، لكن هذا غير متوقع في هذه الآونة، وانما المرجح أنه قد يتسلم أنظمة دفاع جوى.

وكان الرئيس الكرواتي فرانچو تودچمان على استعداد لقبول حلول وسط حتى أسبوعين، أما بعد سقوط مدينة ڤاكوڤر فقد فقد الكثير سياسياً. فالعسكر وعلى رأسهم الجنرال أنطون طوس يلومون على إدارته لمعركة ڤاكوڤر، عندما سمح للجيش في منتصف أكتوبر ١٩٩١ أن يتلقى مساعدات انسانية عبر أراضٍ استعادها الكروات من الجيش فكسروا بذلك حصاره لڤاكوڤر وبذلك استطاع تجديد قواته وأسلحته فاستعاد مواقعه حول المدينة، ثم سقطت في يده بعدها. ورد تودچمان بالبحث عن كبش فداء فشكّل لجنة تقصى حقائق حول سقوط المدينة وبالقاء القبض على ميلى ديداكوڤيتش منظّم الدفاع عن ڤاكوڤر، مما أثار السخط. كذلك تم القاء القبض على زعيم الحزب القومي المتطرف «حزب العدالة الكرواتي» دوبروسلاڤ پاراجا. فأثار هذا كله عاصفة من النقد من جانب أحزاب المعارضة الكرواتية .

ويواجه سيروس ڤانس انتقادات متزايدة من جمهورية البوسنة ـ الهرسك . وقد صوّت مؤتمر «حزب العمل الديمقراطي الإسلامي» الأسبوع الأخير من نوفمبر ١٩٩١ بأغلبية كبيرة لصالح استقلال البلاد وسيادتها، وإنه تحت أى ظرف من الظروف لن تظل «متحدة فيدراليا» مع الصرب فيما سيترك من يوجوسلافيا بعد استقلال كرواتيا وسلوڤينيا. ويريد الحزب علاقات متساوية مع كل من كرواتيا والصرب.. والاحتفاظ بحقوق مسلمي ساندزاك بالصرب في اتجاه نفس الحقوق التي ستمنح لمنطقة كراييناالصربية في كرواتيا. وطلب رئيس البوسنة على عزت بيجوڤيتش حماية الأمم المتحدة لكل حدود بلاده، وهذا مالن يقبله الجيش اليوجوسلاڤي، إلا إذا أجبر على ذلك. لكن ليس معروفاً مدى استعداد مسلمي البوسنة الدفاع عن جمهوريتهم فالمعلومات المتوفرة أنهم لايمتلكون مايكفي من أفراد ومعدات وسلاح.

وإعتماداً على مايحدث في الأيام القادمة، هناك احتمال لعملية تقوم بها الأمم المتحدة

وقوات أوروبية غربية لتأكيد اعتراف دول «السوق المشتركة» بكرواتيا، وربما للحفاظ على السلام فى البوسنة. وسربت الحكومة الإيطالية خبراً مؤداه أن فرقة مدرعة تتكون من قوات فرنسية وهولندية وبلچيكية وايطالية، على استعداد للتوجه لأداء العملية، وهى نفس الفرقة التى عملت فى حرب الخليج وفى مناطق الأكراد بالعراق وفى لبنان، من قبل.

٣يناير ١٩٩٢

الجولة الثانية

مازال وقف اطلاق النار بين جمهورية الصرب وكرواتيا الذى توصل إليه المبعوث سيروس ڤانس، ساريا. وستكون مهمة قوات الأمم المتحدة صعبة فى إقناع الجانبين بوقف إطلاق نيران مدفعية كل منهما. على أن الجيش اليوجوسلاڤى أصابه الانهاك على أرض المعركة.

وقد زادت القوات الكرواتية من قدرات نيرانها زيادة كبيرة خلال الأسابيع الماضية بما استولت عليه من كميات كبيرة من أسلحة ومهمات الجيش وما استولت عليه من مخازن ضخمة للأسلحة الدفاعية والعتاد. فقد اشترطت كرواتيا الاستيلاء على هذه المخازن مقابل فك الحصار عن ثكنات وحاميات للجيش والسماح لقواته من الانسحاب منها، وكان ذلك فى مناطق لاتطالب بها كرواتيا».

والروح المعنوية للكروات مرتفعة وتنظيم قواتها أعلى بكثير وبالذات بعد الاعتراف الدولى بكرواتيا. وتدرك قيادة الجيش اليوجوسلاڤى أنها لاتستطيع الاحتفاظ بأراضٍ لمدة طويلة ضد قوات مشاة كرواتية ومعضدة جيداً - لمدة طويلة، ولذلك فانها تنسحب مرة أخرى من بعض الأراضي وتعيد تنظيم استراتيجيتها، كما فعلت بعد هزيمتها فى سلوڤينيا صيف ١٩٩١ .. ويبدو أن الجيش تحت قيادة الجنرال ڤيلكوكاديڤيتش يضحى بتأييده لمناطق صربية أعلنت استقلالها الذاتى فى كل من جمهورية كرواتيا وجمهورية البوسنة - الهرسك ، وان كان هذا يتعارض فى الحقيقة مع حلم «الصرب الكبرى». ويبقى أن نرى المدى الذى يستطيع فيه كاديڤيتش أن يستعيد سلطته على مرؤوسيه.

كان أحد العوامل المهمة فى التحول الحاد فى موقف الجيش هو قرار «الجماعة الأوروبية» فى منتصف ديسمبر ١٩٩١ بأن تعتبر يوجوسلافيا دولة قد تفككت، وتصبح جمهورياتها الست التى كانت مكونة لها «وريثات متساويات»، وأن يمتد الاعتراف الدبلوماسي المشروط لتلك الجمهوريات الذى طلبته بحلول ٢٣ ديسمبر ١٩٩١. وتفتح ألمانيا سفارة لها فى سلوڤينيا وأخرى فى كرواتيا يوم ١٥ يناير ١٩٩٢، وهو اليوم الذى يتم فيه

الاعتراف الرسمي بكلتا الجمهوريتين من قبل «الجماعة الأوروبية» ودول أخرى ويخشى الجيش ان تحصل كل من كرواتيا وسلوفينيا بسرعة علي نظم دفاع جوي بل وحتي علي طائرات، ويبدو أن سلوفينياقد حصلت أو على وشك تلقى نظم رادار جديدة. ولقد كانت طلعات الطيران المستفزة للجيش فى أول يناير وخرقها لحاجز الصوت فوق ليوبليانا وإطلاق الرشاشات على منطقة ديبكيا الصناعية، تهدف بدون شك إلى إختيار نظم الدفاع الجوى ولكن حتى بعد قيام بهجوم صواريخ أرض أرض على ضواحى زغرب فانه لم يتم أى رد عليه.

وتدفع المدن الصربية الكبيرة تكاليف الحرب الأهلية الدائرة بقسوة، أما المناطق الريفية فمضغوط عليها بشدة لتعضيد سكان بلجراد البالغ عددهم ١٫٥ مليون نسمة أي خمس العدد الكلي لسكان الصرب - ان أخرجنا اقتصاد كوزوفو الفقير من المعادلة - وبيلجراد القليل جدا من الصناعة وماهو موجود آخذ في الانهيار. ولقد كانت بلجراد تعيش دائما علي حساب مكانتها الصربية والفيدرالية وعلي مكانتها كعاصمة، وبها عدد ضخم من السكان المؤلفين من الجنرالات والضباط المتقاعدين الذين يتلقون معاشات عالية وغير متعودين علي المصاعب.

ويتفاوض الجيش الآن علي صفقة قمح مقابل طيارين ومهمات للميج مع الحكومة الروسية. وقد يؤدي ذلك إلي زيادة مشكلة توفير المواد الغذائية فيما تبقي من يوجوسلافيا، رغم المحاصيل الوفيرة هذا العام (سلوفينيا وكرواتيا مكتفيتان اكتفاء ذاتيا عادة في الطعام). وقد أرسل الجيش فعلا إلي الميدان طيارين رُوساً مرتزقة تعطي لهم مرتباتهم بالعملة الصعبة. ويعتقد أن طائرتي ميج ٢١ بدون علامات اللتين طاردتا واطلقتا النار علي طائرة «سيسنا» كرواتية في المجال الجوي فوق ماديبور في اول يناير ١٩٩١ قد استوردتا حديثا من الصين وليس من روسيا.

* * *

صفقة فانس

لم تنشر حتي الآن تفاصيل الصفقة التي تمكن المبعوث سيروس فانس من - إجرائها بين «الجيش الوطني اليوجوسلافي» والكروات، وإن كان قد تم تسريب قدر كبير منها من جانب الكروات وجمهورية البوسنة والهرسك. ويقول الجيش انه مستعد لتقديم التنازلات التالية :

١) الانسحاب الكامل لقواته من كل الأراضي الكرواتية بداية من المناطق التي بها أغلبية كرواتية وأولها مناطق مثل جوسبيك (وهي نقطة مواصلات حيوية في شمال دالماسيا) ودرنيس (وتقع خلف ميناء زادار) وميناء سيبنيك الذي كشف انه يحتوي علي قاعدة عسكرية ضخمة تحت الأرض وعلي ملجأ نووي لـ ٣٠٠٠ شخص - لم يعلم عنه حتي

سكان المدينة. وهذا قد يفسر سبب استيلاء الجيش علي سيبنيك بتلك الطريقة الوحشية إذ دمرّ كلية كل سجلات البلدية، وطرد مجموعة السكان المحليين بأكملهم حتي الأقلية الصربية التي لا تشتبك في الصراع. وحتي الآن فان الجيش فعل كل مايمكنه للاحتفاظ أوإعادة الاستيلاء علي تلك الامكنة الاستراتيجية.

٢) نزع السلاح الشامل لكل القوات شبه العسكرية في كرواتيا كلها وهذا لايشمل الجيش الكرواتي النظامي يفضل الجيش اليوجوسلافي، والذي عليه فقط أن يرجع إلي الثكنات - علي أن الشيء الهام هو أن ترتيب نزع السلاح يشمل وحدات الدفاع الاقليمي التي يكونّها صرب كرواتيا (وشرطة ماديتش كما يطلق علي متمردي كينين من غير المر جح أن يسلموا أسلحتهم بدون قتال).

٣) انسحاب قوات الجيش اليوجوسلافي من المناطق القليلة ذات الأغلبية الصربية واستبدالها بقوات «حفظ سلام» تابعة للأمم المتحدة - وطبقا لإلحاح الكروات - تشرف فقط علي البوليس المحلي ولن تحل محله. وأكثر من ذلك فإن قوات البوليس تكون متناسبة عرقياً (مع سكان كرواتيا) ذلك أنه في الماضي كانت نسبة ٧٠٪ من قوات البوليس من الصرب في كرواتيا. ولسوف تكون قوات البوليس مسئولة أمام وزارة الداخلية الكرواتية.

وبكلمات أخري فإن الجيش عرض أن يعترف بالسيادة الكرواتية علي المناطق التي اعلنت نفسها جمهورية كرابنيا الصربية مقابل حماية الأمم المتحدة لحقوق صرب كرواتيا.

٤) والجيش اليوجوسلافي مستعد ان يقبل مراقبين دوليين من الأمم المتحدة لحفظ السلام، علي طول الحدود مع جمهورية البوسنة والهرسك، وكذا في مدينة موستار ومدينة بيهاك التي تسكنها أغلبية مسلمة، وبالمدينتين قاعدتين من أكبر قواعد الجيش اليوجوسلافي.

والجيش مستعد كذلك لقبول قيادة إقليمية للأمم المتحدة في عاصمة البوسنة - الهرسك ، سيراييفو، وهي مدينة أغلبية سكانها من المسلمين. وقد أبدي رئيس البوسنة والهرسك علي عزت بيجوفتش ارتياحه الشديد لهذا الترتيب، ذلك أنه تجاهل تماما تقسيم جمهورية البوسنة - الهرسك إلي «كانتونات» مستقلة، ذلك المطلب الذي يدعو إليه «الحزب الصربي - الديموقراطي» وهو الحزب الرئيسي لصرب البوسنة - الهرسك .

معركة البوسنة - الهرسك :

وقد وافق برلمان جمهورية البوسنة - الهرسك علي التقدم بطلب الي «الجماعة الأوربية» للإعتراف بالجمهورية كدولة مستقلة ذات سيادة بحلول ٢٣ ديسمبر ١٩٩١، وكان هذا ضد رغبة نواب الحزب الصربي - الديموقراطي «وكتب ممثلا الحزب في مجلس رئاسة جمهورية البوسنة وهما استاذة البيولوجيا د.بيليانا بلافتسيش، واستاذ الآداب د.نيكولا كوليفيتش - واللذان كانا قد قاطعا اجتماعات مجلس الرئاسة منذ أن تحول المجلس إلي

قاعدة التصويت بالأغلبية بدلاً من التصويت بالاجماع - كتبا إلي ممثل الجماعة الأوربية اللورد كارينجتون ينكران دستورية طلب البوسنة، مجادلين بأنه يتعارض مع الدستور الفيدرالي. ولوضع نوع من الضغط قال الحزب أنه سيعلن قيام جمهورية صربية داخل البوسنة قبل منتصف يناير. آنذاك تكون هناك جمهوريتان صربيتان جديدتان تتحدان سويا كونفيدرالياً وتندمجان مع جمهورية الصرب لتأليف «الصرب الكبري».

وفكرة أن تشكل تلك المناطق غير القابلة للحياة اقتصاديا وغير المتصلة طبيعيا، اتحاداً كونفيدرالياً قومياً - عرقياً، قابلا للحياة والاستمرار، هي فكرة في غير محلها، لأن المسلمين والكروات معا يشكلّون أكثر من ٥٠٪ من سكان تلك المناطق وزعماء المسلمين ينحون إلي معالجة الموضوع كله كتكلة وإن كانوا يدركون تماما التهديد الصربي - المستتر بالكاد - لاستخدام القوة لو حاول أحد أن يوقفهم عن لعبة الاستقلالية.

وعندما تقوم حكومة محلية فجأة بتقرير تشكيل، أو الانضمام الي منطقة تعلن نفسها منطقة صربية ذات «استقلال ذاتي»، فان الزعماء (الأعضاء) المسلمين والكروات (في تلك الحكومة المحلية) يخرجون ويتجاهلون ماحدث.

ومن جانب آخر هدد مسلمو موتار.

أولا : باعلان استقلاليتهم عندما أعلن جيرانهم المنطقة الصربية ذات الاستقلال الذاتي بشرق الهرسك (٣٠٪ من سكانها من غير الصرب) وانهم سيحاكمون الصرب لسوء معاملتهم للأقليات المحلية. ولكنهم في النهاية لم يهتموا بالقيام بأي شيء. والحقيقة أن سياسة «عدم ردود الفعل» هذه هي السياسة الرسمية «لحزب العمل الديموقراطي» الحاكم في البوسنة - الهرسك وهو لايحيد عن هذه السياسة. وكان حزب العمل في السنجق في الصرب هو فقط الذي اتبع تاكتيكات إنتقامية بإجرائه استفتاء علي الاستقلال رغم انه لم يذهب لمدي إعلان ذلك الاستقلال. ويؤكد الحزب دائما علي المفاوضات المباشرة وعدم المجابهة مع الجيش لأن البلاد لاتمتلك السلاح الكافي.

ولا يبدي صرب البوسنة حتي الآن حماسا لفكرة الكانتونات ويبدو أنهم ينتظرون الظروف المناسبة لتنفيذها، ونقصد هنا الظروف الدولية والمحلية.

تشكل مجموعات المساحات المقترحة لإنشاء مناطق صربية ما يصل الي ٦٤٪ من أراضي البوسنة، رغم أن ٣٢٪ فقط من السكان هم من الصرب عرقا. ولكن من وجهة نظر أباطرة وجنرالات الجيش والذين ظلوا لسنوات يديرون المجمع الصناعي - العسكر ي وهو دولة داخل دولة هائلة (كما كان في الاتحاد السوفيتي)، فان تلك الخطة ستظل تاركة كثيراً من المنشآت والقواعد العسكرية الهامة - إن لم نذكر المصانع الحربية والصناعات المتصلة بها - خارج الحدود الصربية المقترحة. لقد فقدت امبراطورية الجيش تلك بالفعل ٥٠٪ من انتاجيتها، ٦٠٪ من صادرات العملة الصعبة بخروج سلوفينيا و كرواتيا من الدولة

الفيدرالية.

ويهتم الجيش الآن بالحفاظ علي مجال حيوي قابل للحياة في البوسنة ـ الهرسك التي تعتبر مأوي لنسبة كبيرة لمنشآت العسكرية والصناعات التابعة له وكذلك فإن البوسنة كانت ستصبح المأوي لأعداد ضخمة (فوق ۱۰۰ر۰۰۰) من ضباط الجيش وموظفيه المدنيين الذين تركوا أماكنهم في كرواتيا وسلوفينيا. وتفيض من البوسنة ـ الهرسك باللاجئين من كرواتيا وهي لم تكن تستطيع إسكان وإطعام نفسها من قبل ذلك، لأن المموّن الرئيسي للطعام هو صربي قد منع كل الصادرات الغذائية من الصرب.

١٥ يناير ١٩٩٢

الحرب الطويلة من اجل «الصرب الكبري»

لايحتاج الأمر إلي دراية عميقة بالاستراتيجية والتكتيك ليقول أن الصدام الحالي في جمهورية كرواتيا سيمتد إلي البوسنة ـ الهرسك . فلاشك أن القوة التي تقف وراء صرب كرواتيا وإستيلائهم علي الأراضي التي كانوا يشكلون الأغلبية بين سكانها في كرواتيا، ستقف أيضاً وراء صرب البوسنة ـ الهرسك . فبسبب موقع البوسنة الجغرافي المركزي، فهي خط المواصلات، والإتصال العرقي ـ القومي بين صرب كرايينا غربي كرواتيا وصرب كرواتيا الشرقية. وتدافع جمهورية الصرب في بلجراد عن حق صرب يوجوسلافيا السابقة جميعاً في أن يعيشوا معاً في دولة واحدة. لذا فإن الاستيلاء علي جزء كبير من أراضي البوسنة هو شرط ضروري لتأسيس «الصرب الكبري»، وبدونه لايمكن أن يتحقق.

وتعود فكرة «الصرب الكبري» إلي وثيقة يرجع تاريخها إلي منتصف القرن التاسع عشر. وعشية الحرب جدد المثقفون الصرب بـ «النادي الثقافي الصربي» الفكرة علي أساس أن «صرباً قوية تماثل يوجوسلافيا قوية»، واتخذت الفكرة شكلها المعاصر تمشياً مع ظروف إمكانية تفكك يوجوسلافيا الثانية، يوجوسلافيا تيتو التي تأسست علي إثر الحرب العالمية الثانية، عندما اجتمع المثقفون القوميون المتركزون في «اكاديمية العلوم والفنون الصربية» (SANU سانو) وقدموا هذه الفكرة في وثيقة تحمل عنوان «مذكرة سانو».

أيدت الوثيقة من الاشتراكية ـ اليوجوسلافية ـ التيتوية الاقتصاد المركزي المخطط، والتسيير الذاتي. لكنها علي عكس ما تنادي به حكومة بلجراد الشيوعية ـ الفيدرالية طلبت مساواة كل الصرب في كل أنحاء يوجوسلافيا مدعية أن هناك مايهدد وجودهم خاصة في أقليم كوزوفو وفي كرواتيا. واتهمت المذكرة الماريشال تيتو ـ وهو كرواتي ـ أبو يوجوسلافيا الحديثة، ونائبه الأول ادوارد كارديللي ـ وهو سلوفيني ـ بأنهما قاما بالقمع المنظم للصرب

في ظل يوجوسلافيا الفيدرالية الاشتراكية فيما بعد الحرب العالمية الثانية.

آنذاك، كان سلوبودان ميلوسيفيتش هو النجم السياسي الصاعد الجديد. ووجد المثقفون الذين كتبوا المذكرة أن آمالهم تتجسد فيه. كذلك وجد فيه جنرالات الجيش اليوجوسلافي رمز القومية الصربية، والشيوعية اليوجوسلافية على السواء رغم مافيها من تناقض «كان أمل جميع القوميين - الأصوليين - الصرب في خلق أمة واحدة تضم جميع الصرب الذين يعيشون علي أراضي جمهوريات الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي. ولما كانت كل الجمهوريات المكونة للاتحاد الفيدرالي تصبو إلي الاستقلال وتتوق إلي الحرية، فقد كان معني تحقيق هذا الحلم الاستيلاء علي جزء من أراضيها.

لكن النداء لجميع الصرب، كان نداءً بالمثل للقوميات والجماعات العرقية - الأثنية الأخري في الاتحاد الفيدرالي - اليوجوسلافي، وأدي إلي فوز القوميين - المتطرفين وأحزابهم بزعامة تودجمان في كرواتيا. هنا كان لابد من الصدام.

وعشية الحرب في كرواتيا اجتمع الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش والرئيس الكرواتي فرانجو تودجمان سراً، وكان ضمن ما ناقشاه وتفاوضا عليه تقسيم أراضي البوسنة - الهرسك بينهما! لكن المسلمين لايوافقون علي هذا بطبيعة الحال، وإنما يريدون بلدهم متكاملاً.

وانفجرت الحرب بين الصرب والكروات، فلم يكن من الممكن تجنبها. ورغم أن الجيش اليوجوسلافي هبّ لمساندة صرب كرواتيا، إلا أنهم لم يستطيعوا الاستيلاء علي كرايينا وفي نفس الوقت فشلت كرواتيا في استرجاعها. وكان الحل تسليم تلك الأراضي لذوي البيريهات الزرقاء - قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة لتشرف عليها.

هنا بدت فكرة تقسيم جمهورية البوسنة - الهرسك بين الطرفين جذابة، للطرفين، الصرب والكروات. فتضم كرواتيا أجزاء من غربي البوسنة - الهرسك حيث تعيش جماعات كرواتية سكانية متجانسة، وبهذا تكون قد حصلت من الصرب علي تعويض عن أراضي كرواتيا التي استولوا عليها. أما الصرب، فإنها بإعلان ماأطلق عليه «صرب البوسنة - الهرسك» تكون قد حصلت علي قاعدة سياسية وأراضٍ، تمتد إليها يوجوسلافيا الثالثة - الجديدة، التي ستضم الصرب والجبل الأسود، وهكذا يتحقق حلم «الصرب الكبري».

لكن تقسيم البوسنة - الهرسك علي خطوط قومية - عرقية مستحيل من الناحية العملية، إلي جانب أنه يهمشّ مسلمي البوسنة - وهم أكبر جماعة إثنية في البوسنة - الهرسك - لمصلحة بناء مشروع دولتين في زغرب وبلجراد.

وتشرف «الجماعة الأوربية» الآن علي محادثات بين الأطراف المعنية في لشبونة حيث تناقش قضايا الخلاف. لكن الاتفاق بين الصرب والكروات علي تقسيم جمهورية البوسنة - الهرسك بينهما يقوض قرار اعتراف «السوق الأوربية المشتركة» بالاعتراف باستقلال

«جمهورية البوسنة ـ الهرسك» وسيادتها علي أراضيها. المشكلة أن الصرب بأقوالهم وأفعالهم، مصممون علي تقسيم البوسنة، والكروات يلعبون لعبة سياسية بين الصرب والمسلمين.

وحقيقة الأمر أن فرض أي تقسيم قومي ـ عرقي ـ إثني علي جمهورية البوسنة سواء من «الجماعة الدولية» أو «الجماعة الأوربية» أو الصرب والكروات، يعني استمرار الصراع القومي ـ العرقي، وإقراره، والاعتراف به كمحرك للأحداث. وليس هناك شعب يقبل أن تضيع أرضه وبلده ويقف ساكتا مكتوف الأيدي.

وليس هناك شك، في أن مسئولية الصدام في البوسنة ـ الهرسك تقع علي نظام ميلوسيڤيتش، وعلي جنرالات «الجيش الوطني اليوجوسلاڤي». وقد بدأ ميلوسيڤيتش بالفعل طريق إعلان جمهورية يوجوسلاڤيا الثالثة ـ الجديدة، التي هي في واقع الأمر جمهورية الصرب، التي ستخلف يوجوسلاڤيا الثانية بجمهورياتها الست والتي تأسست فيما بعد الحرب العالمية الثانية. وهو يريد من العالم أن يعترف بها، وكأن شيئاً لم يكن.

لكن الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوربية ترفض الاعتراف بيوجوسلاڤيا ـ الجديدة لأن الحرب مستمرة في البوسنة ـ الهرسك . ومازال ميلوسيڤيتش يقوم بمناوراته الصغيرة لإرضاء الرأي العام الغربي، فقام هذا الاسبوع بعملية تطهير لقيادة الجيش فأحيل ٣٨ جنرالاً علي الاستيداع، واستقال وزير الدفاع. وميلوسيڤيتش بهذا يقول للغرب أن قيادة الجيش هي المسئولة عن الحرب في البوسنة، وها هو يطيح بها.

إن أحداً من الزعامات الشيوعية لم يقم بمثل هذا التطهير منذ ستالين. وهو بهذا يعلن انه يسيطر سيطرة تامة علي الجيش وعلي القيادة السياسية علي السواء. لكنه يقوم بعملية التطهير متأخراً للغاية، فلو كان قد قام بها قبل عدة أشهر لاقتنع العالم بأنه لا يريد الحرب في البوسنة، ويريد حل مشكلة الاستقلال الذي طلبته جمهوريات الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلاڤي السابق بالطرق السلمية. لكن ماهو أهم أن معني ذلك أن التحالف الغربي كان من الممكن لو ضغط علي جمهورية الصرب لخضع ميلوسيڤيتش لمطالب الأمم المتحدة، لكنه كان يعلم علم اليقين مدي تحرك التحالف الغربي ومدي رغبته في دخول حرب لإغاثة مسلمي البوسنة. إن أثبت ـ ميلو سيڤيتش ـ من هذه الناحية انه يجيد فهم لعبة السياسة الدولية، ويجيد السباحة في بحورها العميقة. ولاشك أنه متمكن من الوضع الداخلي، ومن هامشية المعارضة، فلو لم يكن مسيطراً علي الوضع الداخلي لكان هو أول ضحايا تطهير قيادة الجيش.

وليس معني تغيير القيادة العسكرية أن أهداف قيادة ميلوسيڤيتش قد تغيرت، وانما تعني أنها ستنفذ علي أيدي آخرين. ومن قبل قام ميلوسيڤيتش بتغيير اسم الحزب الحاكم نفسه من «عصبة الشيوعيين» الي «الحزب الاشتراكي» . كان يتخفي هو وأنصاره تحت

«التجديد» والتخلص من الدوجما الشيوعية» في وقت «البيريسترويكا» الجورباتشوفية، والتغيرات التي اجتاحت أوربا الشرقية، وميلوسيفيتش هو الزعيم الشيوعي الوحيد المتبقي علي رأس حزبه الحاكم، الذي لم يغيّر إلا اسمه فقط. والملفت للنظر أنه عين بدلاً من الجنرالات التيتويين - الشيوعيين الملتزمين، ضباطا كباراً من الصرب القوميين المتطرفين المثقفين.

والسؤال الآن إلي أي مدي تريد القيادة السياسية والعسكرية الصربية الجديدة، أن تمد حدود «الصرب الكبري» أو «يوجوسلافيا - الثالثة» التي سيعيش في ظلها الصرب.

١٦ يناير ١٩٩٢

بوادر الحرب ضد البوسنة

حصلت كرواتيا وسلوفينيا علي استقلالهما من جمهورية يوجوسلافيا الاتحادية وبدأت مسيرتهما نحو الغرب بعد ٤٥ عاماً ضمن الفيدرالية في ظل الحكم الشيوعي، والأهم تحت الهيمنة الصربية. ومازال وقف إطلاق النار الذي بدأ في الثالث من يناير ١٩٩٢ وتوسط له سيروس فانس ساري المفعول وإن كانت لاتزال هناك مخاطر «كسره»، في نفس الوقت الذي وصلت فيه طلائع قوات حفظ السلام للأمم المتحدة متمثلة في خمسين من ذوي «البيريهات الزرقاء»، وستحث هذه القوات الطرفين علي عدم تجديد تبادل إطلاق نيران المدفعية. وعلي أية حال فقد استنزف «الجيش الوطني اليوجوسلافي» نفسه في معارك أرضية طويلة، بينما زادت القوات الكرواتية من قوة نيرانها - إلي حد كبير - في الأسابيع الثلاثة الأخيرة من أواخر ديسمبر عام ١٩٩١ والأسبوع الأول من يناير ١٩٩٢، بعد أن حصلت علي كمية كبيرة من أسلحة الجيش ومخازنه مقابل فك الحصار الذي ضربته حول ثكناته والسماح له بالانسحاب من أراضي كرواتيا غير المختلف عليها من الطرفين. الكروات الآن أفضل تنظيماً وقد ارتفعت روحهم المعنوية بعد اعتراف ألمانيا المبكر. وتعلم قيادة الجيش علم اليقين أنها لا تستطيع الاحتفاظ بأراضٍ ضد رغبة شعب مسلح يسانده الاعتراف الدولي. وهي تعيد النظر في استراتيجيتها بعد أن حدث نفس الشيء من قبل في سلوفينيا صيف عام ١٩٩١. ويبدو حتي أن القيادة ستضحي بتأييدها المباشر لمناطق الصرب «ذات الحكم الذاتي» في كرواتيا وفي البوسنة - الهرسك . فهذه المناطق تملك من السلاح والعتاد مايكفيها للاستمرار في حرب عصابات طويلة.

وكان أحد العوامل الهامة في تحول قيادة الجيش، قرار «الجماعة الأوربية» في منتصف ديسمبر ١٩٩١ باعتبار يوجوسلافيا «دولة متحللة» تخرج الجمهوريات المكونة لها من بين أنقاضها، ومن ثم الاعتراف الشرطي لهذه الجمهوريات حتي ٢٣ ديسمبر ١٩٩١، وهو ما

فعلته «الجماعة الأوربية» بالنسبة لجمهوريتي سلوفينيا وكرواتيا. وقد افتتحت المانيا سفارتيها بالفعل يوم ١٥ يناير ١٩٩٢. وهو يوم اعتراف «الجماعة الأوربية» ودول العالم الأخري بهما.

وأخشي مايخشاه الجيش الآن بعد استقلال الجمهوريتين هو أن تحصلا علي نظم دفاعية، بل وحتي علي طائرات. وقد تسلمت سلوفينيا - أو هي علي وشك التسلم - نظماً رادارية جديدة. ولاشك أن الطلعات الجوية الاستفزازية التي قام بها الطيران اليوجوسلافي في الأسبوع الأول من يناير فوق لوبليانام وفوق منطقة ريبكا الصناعية، كان دون شك لاختبار نظم الدفاع - الجوي الجديدة، لكن لم يحدث أي رد فعل، حتي بعد أن ضرب الجيش عدداً من الصواريخ أرض - أرض علي زغرب العاصمة.

وبدأت تكاليف الحرب تبدو واضحة للعيان علي المدن الصربية الكبري. وهناك ضغوط علي الأقاليم لتموين العاصمة بلجراد التي يسكنها مليون ونصف مليون نسمة يشكلون خُمس السكان، في نفس الوقت الذي يستبعد فيه اقتصاد كوزوڤو الفقير من المعادلة. فليس هناك في بلجراد إلا صناعة هامشية، وما هو موجود ينهار بسبب الحرب وقلة الموارد، وكانت تعيش علي ميزانية الصرب والميزانية الفيدرالية وعلي ميزتها التي تتمتع بها كعاصمة لكل الجمهوريات اليوجوسلافية - الفيدرالية.

ويتفاوض الجيش الآن مع الجمهورية الروسية علي صفقات سلاح لاشك ستزيد من أزمة المواد الغذائية. [سلوفينيا وكرواتيا لديهما اكتفاء ذاتي من الغذاء عادة]. وقد اتفق الجيش بالفعل منذ فترة علي استئجار عدد من الطيارين السوفييت المرتزقة تدفع مرتباتهم بالعملة الصعبة. ويعتقد ان طائرتي الميج - ٢١ اللتين اسقطتا بالمدفعية الكرواتية في الأسبوع الأول من يناير ١٩٩٢ هما ضمن صفقة سلاح صينية وليس روسية.

ولم يفصح أي طرف عن الصفقة التي توصل إليها سيروس ڤانس لوقف إطلاق النار لكن مصادر كرواتية ومن البوسنة - الهرسك ذكرت أن «الجيش الوطني اليوجوسلافي» قدم التنازلات الأربعة التالية :

أولاً : أن ينسحب من كل الأراضي الكرواتية : بدءاً بالمناطق المزدحمة بالكروات ويأتي علي رأس القائمة مناطق مثل چوسبتش (وهي مركز مواصلات حيوي)، ودرينيس (خلف ميناء زادار)، وميناء سيبنيك الذي أغلق منذ فترة ويضم قاعدة عسكرية ضخمة تحت الأرض ومخبأ من القنابل النووية لثلاثة ألاف شخص لايعرف أحد عنه شيئا ولا حتي الميناء المحليين أنفسهم. وقد يفسر هذا لماذا استولي الجيش علي١٩١سكان حتيسكان هذا الميناء في قسوة وشراسة لدرجة انه دمر جميع تسجيلات الأراضي وطرد جميع السكان بما في ذلك الصرب المدنيون. وكان الجيش قد بذل كل جهده للاحتفاظ بهذه الأماكن بالذات أو استعادتها من قبضة الكروات.

وثانيا : نزع السلاح الكامل لكل الميليشيات المتواجدة علي الأراضي الكرواتية، ولا يتضمن هؤلاء الجيش الكرواتي - وهو ماكان الجيش يرغب رغبة شديدة في فرض نزع سلاحه، لكن هذا لم يعد ممكناً، بعد تطورات الأحداث في كرواتيا. وإن كان هذا البند يتضمن نزع سلاح «وحدات الدفاع المحلية» التي شكلتها الجماعات - الاثنية - الصربية التي تعيش في كرواتيا، وهي الجماعات التي طلبت «الجماعة الأوربية» تأمينها عندما اعترفت بالاستقلال. لكن متمردي مارتيتش وكتين الصرب قد يرفضون تسليم سلاحهم دون قتال.

و ثالثا : ينسحب الجيش من المناطق الكرواتية التي تسكنها أغلبية صربية، علي أن تحل محله وحدات «حفظ السلام» التابعة للأمم المتحدة. وبناء علي إصرار الكروات تشرف هذه القوات علي البوليس المحلي ولا تحل محله. وأصرّ الكروات علي أن يكون تشكيل قوات البوليس هذه بنسبة الجماعات الاثنية بين السكان وكان الصرب في الماضي يشكلون ٧٠٪ منها. وتكون هذه القوات مسئولة أمام وزير الداخلية الكرواتي.

ومعني هذا اعتراف الجيش بسيادة كرواتيا علي «جمهورية كرايينا الصربية» إذا ماتم حفظ حقوق الصرب فيها علي يد الأمم المتحدة. وحتي البرلمان الصربي لم يعترف بهذه «الجمهورية» ولكن الجيش يحتلها «للحماية» ويستخدمها كورقة للتفاوض.

و رابعا : يقبل الجيش مراقبي الأمم المتحدة لحفظ السلام [ولكنه لايقبل قوات مسلحة] بطول حدود جمهورية البوسنة - الهرسك وكذا في «موستار» و«بيهاك» وأغلبية سكانهما من المسلمين وبهما قاعدتان من أكبر قواعد الجيش اليوجوسلافي العسكرية. كذلك يقبل الجيش إقامة مركز إقليمي للأمم المتحدة بمدينة ساراييڤو وهي عاصمة البوسنة - الهرسك وأغلبية سكانها من المسلمين. وقد استراح رئيس البوسنة - الهرسك علي عزت بيجوڤيتش لهذه الترتيبات لأنها تتجاهل إقامة «بانتوستانات» علي غرار جنوب أفريقيا والتي ينادي بإقامتها «الحزب الديموقراطي - الصربي» في البوسنة، فهي تعني إقامة دول صربية صغيرة متناثرة داخل جمهورية البوسنة - الهرسك .

وهذه إحدي النقاط الهامة في الاتفاق.

فقد وافق برلمان جمهورية البوسنة - الهرسك علي تقديم طلب «للجماعة الأوربية» للإعتراف بالجمهورية كدولة ذات سيادة علي عكس رغبة الحزب - الديموقراطي الصربي. ويمثل الحزب مندوبان في مجلس رئاسة الجمهورية، هما البروڤيسور (في علم البيولوجيا) بييانا بلاڤسيتش والبروڤيسور (في الأدب) نيقولا كوليڤتش. قاطع المندوبان اجتماعات مجلس الرئاسة منذ انتقل إلي اتخاذ قراراته «بالأغلبية» وليس «بالإجماع». وكتبا إلي اللورد كارنجتون يقولان ان طلب السيادة المقدم من البرلمان لايتفق مع الدستور اليوجوسلافي «الفيدرالي». واعلن الحزب أنه سيعلن «جمهورية صربية» داخل جمهورية

البوسنة ـ الهرسك. وهذا معناه إعلان جمهوريتين صربيتين جديدتين تتحدان مع الصرب في «جمهورية الصرب الكبري» في الوقت المناسب !

لكن تنفيذ هذا صعب من الناحية العملية، وتصبح «الصرب الكبري» أحلاماً بعيدة عن واقع الأحداث الدولية والمحلية المعاصرة، ذلك أن ٥٠٪ من سكان هذه البقع المتناثرة في البوسنة ـ الهرسك من المسلمين والكروات. ويعتبر قادة المسلمين الحديث عن إقامة هذه الجمهوريات ليس أكثر من نكتة، رغم تهديد الصرب غير الصريح باستخدام القوة إذا لزم الأمر. وعندما يعلن أحد المجالس المحلية عن تشكيل «مناطق صربية ذات حكم ذاتي» أو يعلن الانضمام إليها، فإن كل مايفعله زعماء المسلمين والكروات هو الانسحاب وتجاهل الموضوع برمته ! وهذه هي السياسة التي يتبعها «حزب العمل الديموقراطي» عموماً SDA إزاء هذه القضية. وهو يؤكد علي التفاوض المباشر مع الجيش وعدم المواجهة علي الاطلاق، فإمكانيات الصرب كبيرة للغاية وامكانيات المسلمين علي وجه الخصوص فقيرة، ونقصد بالامكانيات هنا، السلاح والعتاد والمدربين.

وإذا جمعنا مساحات الأرض التي يقترح الصرب الاستقلال بها في البوسنة ـ الهرسك ، فهي تصل إلي ٦٤٪ رغم أنهم لا يشكلون أكثر من ٣٢٪ من سكانها. وهنا يجب أن نضع في الاعتبار أن هذه المناطق بها صناعات صربية ومنشآت عسكرية لا يريد الجيش التضحية بها، بعد أن فقد باستقلال كرواتيا وسلوفينيا حوالي ٥٠٪ من انتاجه الحربي و٦٠٪ من الصادرات بالعملة الصعبة. وهو يريد الآن الاحتفاظ بالبوسنة والهرسك ذاتها، التي تضم نسبة مرتفعة من المنشآت والصناعات الحربية، وهي في نفس الوقت تأوي مائة الف من الضباط والموظفين الصرب وعائلاتهم. فإذا أضفنا إلي هذا اللاجئين الكروات الذين تدفقوا عليها بسبب الحرب، وهي لاتكاد تطعم بنيها، لأدركنا خطورة الموقف فيها، خاصة وأنها تعتمد في المواد الغذائية علي جمهورية الصرب التي اتخذت قراراً منذ بدء الحرب بعدم تصدير المنتجات الغذائية إلي أي من جمهوريات الاتحاد الفيدرالي، طبقا لما كان متبعاً في الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي من قبل.

ورغم سوء معاملة الصرب للمسلمين في مناطقهم، إلا أن الجيش لا يمكنه رسمياً أن يقوم بهذا هو نفسه. وفي الأسبوع الأول من يناير ١٩٩٢ انهت تركيا صمتها وأعلنت ـ بعد أن أصبح موقف «الجماعة الأوربية» واضحاً، أنها علي استعداد للاعتراف باستقلال البوسنة والهرسك، وكذا مقدونيا وسلوفينيا وكرواتيا. ويحاول قادة الجيش التعاون مع قادة المسلمين بهذا الشكل أو ذاك. ويبدو أن ذلك محاولة من الجنرالات للحفاظ علي ما تبقي من «الجمهورية الفيدرالية اليوجوسلافية» للاستمرار هكذا علي الأقل ـ بعد انفصال كرواتيا وسلوفينيا ـ حتي تعترف الجماعة الأوربية بهذا الوضع الجديد.

لكن المؤكد أن استقلال البوسنة ـ الهرسك لن يكون سهلاً بكل هذه التعقيدات

والتشابكات وإنما يتطلب الأمر مرونة داخلية ودبلوماسية خارجية، وعلي الأغلب أن الصرب لن تسمح بهذا، وأمامها فرصة مؤكدة بسبب تسليح صرب البوسنة من الجيش الذي فتح مخازنه لهم، وتحرك قياداتهم بسرعة واستيلائهم علي ما استطاعوا وضع أيديهم عليه من أراضٍ، وعدم تدخل الجيش بنفسه في الأمر وتركها للصرب أنفسهم، الذين سرعان ماتقدم لقيادتهم كل الخارجين علي القانون وقطاع الطرق، بشكل جعل قيادات الجيش نفسها تشمئز.

٢٣ فبراير ١٩٩٢

الصراع علي البوسنة

لم تكتمل نتائج الإستفتاء العام في البوسنة والهرسك حتي اندفعت الجماهير إلي شوارع سراييفو مهللة، لكنها ووجهت بالمتاريس التي أقامها الصرب في وجوههم .

إن حوالي ٥٧٪ من الثلاثة ملايين ناخب أدلوا بأصواتهم، وأبدوا تأييدهم للاستقلال، ويشير هذا إلي أن مسلمي البوسنة ومعظم كرواتها هم الذين قالوا «نعم» للاستقلال عن الاتحاد الفيدرالي أو بقاياه بمعني أصح.

واذا كان الناخبون قد صوتوا للاستقلال إلا أن المشكلة أكثر تعقيداً بكثير من مشكلة كرواتيا وسلوڤينيا اللتين استقلتا عن «الاتحاد» اليوجوسلافي قبل مدة قصيرة، اذ تتكون جمهورية البوسنة والهرسك من موزايك قومي - عرقي - ديني معقّد : ٤٤٪ مسلمون، و٣١٪ صرب ارثوذكس، و١٧٪ كروات كاثوليك، و٨٪ من قوميات أخري. بادر الصرب بمقاطعة الاستفتاء، أما الكروات فقد صوتّوا مع الاستقلال حتي لاتفسر مقاطعتهم له بأنها تأييد للبقاء في الاتحاد اليوجوسلافي.

فهل تنطلق من سراييفو شرارة الحرب الأهلية الثالثة في يوجوسلافيا؟ انطلقت شرارة الحرب العالمية الأولي منذ ثمانين عاماً من هناك أيضاً عندما أطلق شاب صربي - قومي الرصاص واغتال الأمير النمساوي الأرشيدوق فرانز فيرديناند ولي عهد العائلة المالكة التي كانت تحكم آنذاك الامبراطورية - المجرية - النمساوية :

يريد الصرب الاستمرار في اتحاد فيدرالي يوجوسلافي تحكمه بلجراد العاصمة وعاصمة جمهورية الصرب. وكانت نتائج الاستفتاء علي استقلال البوسنة واضحة، مما دعا «الحزب الديموقراطي الصربي» إلي مقاطعته، فلم يكن الاستفتاء العام اكثر من إجراء شكلي معروف نتائجه سلفاً بالنسبة للجماعات القومية العرقية الثلاث التي تشكل سكان البوسنة - الهرسك، وبالنسبة لوسطاء السلام من «الجماعة الأوربية».

كان الأمر سهلاً فى كرواتيا وسلوڤينيا: ففى كرواتيا، حيث يصل فى شهر - مارس

١٩٩٢ ـ ١٤ ألف من قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام. يشكل الكروات الأغلبية السكانية، ويسكن الصرب بعض الجيوب التى أسرعوا فى السيطرة عليها. ورغم ذلك استمرت الحرب الأهلية بين الكروات من جهة والصرب متمثلين فى «الجيش الوطنى اليوجوسلافى»، وسقط فى حمام الدم هذا عشرة آلاف قتيل حتى توصلت «الجماعة الأوروبية» الى فض الاشتباك. أما فى جمهورية البوسنة ـ الهرسك فيسكن المسلمون والكروات والصرب مناطق متداخلة عبر كل أراضيها، وإن كانت كل جماعة تتركز إلي جانب هذا فى عدد من المناطق.

وإذا مانشبت حرب أهلية فلن يكون لها «حدود». ولن تستطيع أية قوات لحفظ السلام الفصل بين الفرقاء. وقبيل الاستفتاء انفجرت متفجرات فى أربع مدن كبرى فسقط قتيلان وجرح إثنا عشر آنذاك صرح رئيس «الحزب الديمقراطى الصربى» فى البوسنة رادوڤان كاراچيك «يتعلق السلام بخيط رفيع». أما رئيس جمهورية البوسنة ـ الهرسك فقدم مشروعاً لحماية «الأقليات» وحصولهم على حقوق قابلة للمناقشة مقابل ضمانات دولية لحدود جمهورية البوسنة ـ الهرسك الوليدة.

ودارت مفاوضات بين الأطراف الثلاثة، قدم الصرب من ناحيتهم اقتراحاً بإقامة «جمهورية البوسنة ـ الهرسك ـ الفيدرالية»، التى تتكون من «كانتونات ذات حكم ذاتى». لكن حدث خلاف كبير حول مدى استقلالية هذه «الكانتونات» فالطبيعى أن يطالب الصرب بالحد الأقصى لاستقلالية هذه الكانتونات، بينما يقول المسلمون والكروات أن هذا سيمهد الأرض لصرب البوسنة فيما بعد لإثارة المشاكل والانضمام إلي جمهورية الصرب المجاورة. ويخشى المسلمون أن تنضم « كانتونات الصرب» الى جمهورية الصرب، و«كانتونات الكروات» الى كرواتيا المستقلة الآن، ويتركون هم بشريط ضيق من الأرض بينهما. ثم هناك خطر أن يؤدى تأسيس «الكانتونات» الى استمرار تدخل كل من الصرب وكرواتيا فى البوسنة. وهناك خوف دائم من جانب المسلمين لإمكانية الاتفاق من وراء ظهورهم بين الصرب والكروات رغم الحرب الضروس التى كانت بينهما.

لكن هناك عوامل أخرى تقف الى جانب حل المشكلة: فهناك «الجماعة الأوروبية»، حيث يجتمع وزراء خارجيتها فى عطلة نهاية الأسبوع الأول من فبراير ١٩٩٢ لمناقشة موقفها من استقلال كل من «البوسنة والهرسك» وكذلك جمهورية مقدونيا. وهناك الموقف الألماني القوى، وحليفه رئيس كرواتيا ـ القومى المتطرف ڤرانچو تودچمان المؤيد لاستقلال «البوسنة ـ الهرسك» لأنه يضعف الصرب. وهذا التحالف لاشك سيوقف كرواتيا عن القيام بأية مغامرات فى «البوسنة ـ الهرسك». ومما سيساعد أيضاً، المصاعب الجمة التى يواجهها رئيس الصرب سلوبودان ميلوسيڤيتش، ذلك أن معركة «الجيش الوطنى اليوجوسلافى» فى كرواتيا كلفت البلاد ثمناً اقتصادياً وانسانيا باهظاً. وقد أعلن الأسبوع الأول من فبراير فى بلغراد أن «الحرب الأهلية اليوجوسلافية قد انتهت. والمح إلى أن

بلغراد ستتنازل عن مطلبها بضرورة الإشراف على «مناطق صربية» فى كرواتيا وغيرها من الجمهوريات التى كانت تشكل الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلافي».

١٢ مايو ١٩٩٢

السياسات الغربية

عادت البلقان لتصبح بؤرة التوتر الساخنة فى أوروبا، وكان من المعتقد أن سقوط الشيوعية سيقود أوروبا الى الاستقرار، لكن من الواضح أن أوروبا، وعلى وجه الخصوص «السوق الأوروبية المشتركة» لم تستطع التواؤم مع الوضع الدولى الجديد، ولم تستطع أن توقف انهيار الوضع في البلقان. فها هي يوجوسلافيا تواصل حربها الأهلية في جمهورية البوسنة والهرسك، بعد سلوفينيا وكرواتيا، ولايزال ماثلاً في الأفق تحقيق استقلال جمهورية مقدونيا ثم مشكلة كوزوفو الكامنة، الاقليم الذي كان يتمتع بالحكم الذاتي ضمن جمهورية الصرب، ومعظم سكانه من المسلمين ذوي الأصل الاثني - الألباني. واذا مانشبت المشكلة بين ألبان كوزوفو والصرب وهي ماسيتبقي من اتحاد يوجوسلافيا، فستجر البانيا إليها.

كان القتال هو الطريقة الوحيدة التي لجأ اليها قادة المنطقة. وكان لابد وأن يكون استخدام القوة هو آخر الوسائل في منطقة مليئة بالقوميات والأقليات والجماعات الإثنية والعرقية، المتداخلة والمتشابكة عبر الحدود المرسومة. فيوجوسلافيا خليط من القوميات والأقليات والأديان، ولا تعيش إحداها في جمهورية بعينها من جمهوريات الاتحاد وانما متداخلة، لذا كانت الحرب الأهلية شرسة مدمرة.

وكمثال في البلقان وهناك أقلية إثنية مجرية في رومانيا علي حدودها مع المجر، وهناك أقلية - اثنية تركية - مسلمة في بلغاريا علي حدودها مع تركيا، وهناك مقاطعة مقدونيا في اليونان التي تحمل نفس اسم جمهورية مقدونيا في الاتحاد الفيدرالي - اليوجوسلافي، وهي موطن الاسكندر ذي القرنين، واليونان مصممة علي عدم تواجد جمهورية مستقلة بهذا الاسم وهناك أقلية إثنية - تركية مسلمة في اليونان نفسها علي حدودها في تركيا. وهناك اقليات - اثنية - البانية مسلمة في جميع أنحاء يوجوسلافيا، تتركز أساساً في مقاطعة كوزوفو ذات الحكم الذاتي. وهناك أقليات - اثنية - المانية في معظم بلدان أوربا الشرقية الي جانب هذا كله هناك الزيجات المختلطة والعائلات المتداخلة، والحرب تعني الكراهية في البيت الواحد. ووسط هذا كله لم يستطع اجتماع وزراء خارجية دول السوق ببروكسيل أن يفعل شيئاً لإيقاف الحرب في جمهورية البوسنة - الهرسك التي كانت إحدي جمهوريات الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي سوي سحب السفراء الأوربيين من بلجراد.

لم يكن من الممكن إذن لأي قوة خارجية أن تحقن الدماء، طالما أن الأطراف

اليوجوسلافية نفسها قررت أن تتخذ من القتال وسيلة لحل مشاكلها. ولقد كان العداء بين الصرب والكروات مريراً وعميقاً، بسبب الصدامات التاريخية القديمة التي تلبست الأجيال الجديدة. ولم تستطع الدول الغربية عند تدخلها حل المشكلة، وإنما أكدت الانقسام، أكدت «بلقنة البلقان». وكانت «الجماعة الأوروبية» تأمل أن تفعل شيئاً في أوربا الجديدة ١٩٩٢. لكن الذي حدث هو أن فرصاً كثيرة أفلتت من بين أيدي الدول الأوروبية وبالمثل حدثت خلافات عميقة حول كيفية حل مشاكل البلقان. لقد اثبت الانهيار الدموي ـ الفوضوي للاتحاد الفيدرالي ـ اليوجوسلافي، اكثر من أي أزمة أخري بعد سقوط «سور برلين»، صعوبة المشاكل التي خلفتها الشيوعية بالذات بالنسبة للقضية القومية، فقد غطت علي المشكلة بالنظام الشمولي القمعي لبناء مجتمع صناعي ـ متقدم، تجاهل المشكلة القومية تماماً، وقمع أي انفجار لها بالحديد والنار، فلما انتهت الشيوعية انفجرت القضية القومية وكأنها مازالت في عنفوانها كما كانت.

فرغم أن المشاكل بين الصرب وجيرانها في الجمهوريات اليوجوسلافية كانت معروفة مقدماً منذ عدة سنوات، وتنبأ مراقبون بإنفجارها، إلا أن القادة الغربيين لم يكونوا علي مستوي الأحداث عندما اندلع القتال بين «الأخوة، الأعداء»، وبدا كما لو كانوا يضعون أيديهم علي المشكلة لأول مرة. لهذا ألقت الولايات المتحدة الأمريكية بمسئولية حل «المشكلة اليوجوسلافية» علي عاتق «الجماعة الأوروبية» أملاً في أن تظل مشكلة «أوروبية إقليمية». وكان قادة «الجماعة الأوروبية»، وخاصة رئيس «اللجنة الأوروبية» چاك ديلور ـ يرغبون رغبة شديدة في تسلم هذه المسئولية. لكن ثبت أن آلية السياسة الخارجية الموحدة للجماعة الأوروبية، مازالت جديدة للغاية، وبالتالي مازالت ضعيفة، لايمكنها التغلب علي الخلافات بين الدول الاثنتي عشرة أعضاء «السوق الأوروبية المشتركة». كانت هذه عملياً من أولي الممارسات لسياسة خارجية موّحدة.

كانت الدول الغربية الكبري منقسمة حول الهدف الاستراتيجي عند حل «القضية اليوجوسلافية»، فحتي أواخر عام ١٩٩١ فقط، كان موقفها كالتالي :

* كانت الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا، تأمل الحفاظ علي يوجوسلافيا الفيدرالية، ربما بعد التخفيف من قيودها الفيدرالية، وإنهاء الحكم الشيوعي في الصرب، وفك المركزية البيروقراطية للدول الشمولية.

* وتوصلت المانيا وايطاليا والنمسا قبل ذلك الوقت بكثير، إلي أنه لا يمكن استمرار الفيدرالية اليوجوسلافية.

وهكذا وجّه مساعد وزير الخارجية الأمريكي لورنس ايجليبيرجر ـ السفير الأمريكي السابق في بلجراد، السياسة الأمريكية في اتجاه إنقاذ يوجوسلافية من التفكك والانهيار، بينما سار وزير الخارجية الألماني هانز ديتريش جينشر [الذي استقال منذ اسابيع بعد أن

قضي في منصبه ثمانية عشر عاماً]، في اتجاه معارضة السياسة الأمريكية بشأن يوجوسلافيا، وأضافت الكراهية بينهما بعداً شخصياً للمسألة.

وسرعان ماخرج هذا الخلاف بين الحلفاء إلي العلن في شهر نوفمبر ١٩٩١. فعندما كان وزراء خارجية السوق مجتمعين بلاهاي بهولندا، اندفع وزير الخارجية الألماني جينشر خارجاً فخاطب جمهرة من المتظاهرين الكروات، دون استشارة زملائه، قائلاً انه لو استمرت الصرب في مهاجمة كرواتيا، فستعترف المانيا بجمهورية كرواتيا. واحتج الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران، واعتبر المسئولون الاوربيون في بروكسيل، أن تصريح جينشر ضربة موجهة الي الأمل في طرح سياسة خارجية موحدة لدول «السوق الأوربية المشتركة» لكن في النهاية تغلبت وجهة النظر الألمانية وتبعت دول السوق الإحدي عشرة الأخري خطي بون فاعترفت بكرواتيا وسلوفينيا يوم ١٥ يناير ١٩٩٢ بعد ضغوط منها مارستها المانيا.

واستشاطت واشنطن غضباً من الانتصار الألماني، واعتبرت موقف بون إذلالاً لها. وكان وزير الخارجية الامريكي چيمس بيكر قد قام قبلها بشهرين بزيارة للبلقان والقي بتصريحات قوية محذراً كرواتيا وسلوفينيا من تعريض وحدة الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي لخطر التفكك والإنهيار وتهديد السلام في المنطقة إذا مانفذتا قرار استقلالهما. وأجبر القرار الأوربي بالاعتراف باستقلال الجمهوريتين وكذا ما أشارت إليه الأدلة من أن الصرب [والحكومة الصربية بزعامة الرئيس سلو بودان ميلو سيڤيتش] هم المعتدون الأساسيون في الحروب اليوجوسلافية، أدي هذا إلي تراجع واشنطن وأجبرها علي أن تعكس قرارها. وقد اتخذ وزير الخارجية الامريكي چيمس بيكر في شهر ابريل ١٩٩٢ الماضي خطاً متشدداً تجاه بلجراد، مهدداً باستبعاد يوجوسلافيا من «مؤتمر الأمن والتعاون الأوربي» CSCE. لكن «زئير» واشنطن جاء متأخراً ومنخفضاً، فتجاهل سلوبودان ميلوسيڤيتش التهديدات الأمريكية.

ونتيجة لهذا أثيرت أسئلة حول قدرة الولايات المتحدة الأمريكية علي تحليل الأحداث المتلاحقة في أوربا الشرقية، وفرضت «خطة بيكر» التي قدمها لأول مرة في «القمة الاقتصادية» بباريس عام ١٩٨٩، لتشجيع حلفاء امريكا الأوربيين علي حل مشاكلهم «الأوربية الاقليمية» بأنفسهم.

ورغم دخول الصرب حربها الأهلية الثالثة، هذه المرة ضد استقلال جمهورية البوسنة - الهرسك التي اعلنت استقلالها عن الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي، فمازال هناك أمل في أن يستمر «مؤتمر السلام في يوجوسلافيا برئاسة وزير الخارجية البريطاني الأسبق ورئيس «*الناتو*» *السابق لوردكارنجتون*، وأن تستمر قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام - رغم انسحاب المراقبين من سراييڤو - في المحافظة علي السلام الذي لم تستطع فرضه، وفي ان تبدأ الجمهوريتان الجديدتان كرواتيا وسلوفينيا في عملية التنمية والبناء.

١٥ مايو ١٩٩٢

الچنرال الصربي الذي يقود الحرب ضد البوسنة

انسحب المراقبون الأوربيون من جمهورية البوسنة والهرسك لعدم توفر الأمن، وسحبت قوات حفظ السلام الدولية مركز رئاستها من سراييڤو. وبعدها سحبت الدول الغربية سفراءها من بلجراد، واستعدت في نفس الوقت لتجميد حسابات يوجوسلاڤيا. ومع ذلك استمر الضغط العسكري من جانب الجيش الفيدرالي - بقيادته الصربية - علي البوسنة، تسانده الميليشيات الصربية في البوسنة - الهرسك .

ويتوقع المراقبون أن تستمر الحرب الأهلية لعدة أسابيع قادمة، في كل من كرواتيا وجمهورية البوسنة - الهرسك. كما يتوقع المراقبون انفجار الموقف فى إقليم «ساندراك» جنوب غربى جمهورية الصرب، وبالمثل فى إقليم كوزوڤو - فى الصرب أيضاً ومعظم سكانه من الجماعة الإثنية - الألبانية - المسلمة. وتقع الحكومة الكرواتية للرئيس فرانچو تودچمان تحت ضغوط داخلية كبيرة حتى تصدر أوامرها للقوات الكرواتية بمناوشة القوات الصربية التى تحتل سلاڤونيا الشرقية. ولم ينفذ الجيش اليوجوسلاڤى الفيدرالى اتفاق سحب قواته وقوات الميليشيات الصربية من سلاڤونيا حتى ١٥ مايو ١٩٩٢.

هكذا لم يعد أحد يسيطر علي الوضع فى البلقان. ومن المتوقع استنفار جيوش دول المنطقة، بما فى ذلك اليونان، والمجر، ورومانيا، والبانيا وبلغاريا. ويتوقع المراقبون انهيار جمهورية الصرب اقتصادياً بسبب استمرارها فى الدخول فى حروب أهلية كلما حاولت احدى جمهوريات الاتحاد الفيدرالى اليوجوسلاڤى الاستقلال والانفصال، بل ويتوقع المراقبون انتقال الحرب الأهلية إلي أراضيها هى نفسها، على الأقل فى الإقليمين اللذين يتمتعان بالحكم الذاتي. ومن المتوقع أن يصل عدد اللاجئين فى البلقان بسبب الحرب الأهلية فى يوجوسلاڤيا الى حوالى ثلاثة ملايين بنهاية العام الحالي ، وهو أكبر تدفق للاجئين فى أوروبا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

* * *

حقق الجيش اليوجوسلاڤى هدفين بطرده عدداً من قياداته من الخدمة العسكرية فى الأسبوع الأول من مايو ١٩٩١. وهذه هى ثاني حركة تطهير بعد الحركة الأولى التى تمت فى فبراير ١٩٩٢ وطرد فيها ٢٨ ضابطاً كبيراً:

الأول : الدعاية على النطاق الدولى، إذ تضمنت القائمة عدداً من الجنرالات الذين شاركوا بنشاط فى الحروب الأهلية التى خاضها الجيش عام ١٩٩١. مثل الجنرال زيڤوتا اڤراموڤيتش قائد الجيش الخامس بزغرب حتى أكتوبر ١٩٩١، والچنرال سپيرونيكوڤيتش قائد منطقة بانچالوكا، والچنرال دوسان أوزلاك القائد السابق لمنطقة بيلاك، والادميرال

بيودراج جوكيتش.

والثاني : أن هذا الإجراء يدعم الوضع الداخلي على أساس أنه يؤدى الى «صربنة» الجيش بطرد الجنرالات غير الصرب.

وتتشكل قيادة الجيش اليوجوسلافى الآن من أعضاء «القيادة العليا»، الهيئة التى تشكلت بطريقة غير رسمية ولا قانونية أوائل عام ١٩٩٠، وهي تتكون أساساً من الذين قام أدزيتش بتعيينهم، وادزيتش كان رئيس الأركان العامة واستغنى عنه فى التطهير الأخير. أما الانقلاب الداخلي الذى حدث فى القيادة، فقد قام به أدزيتش نفسه. والواضح أن الجنرالات الذين استغنى عنهم سيتحركون للعمل فى جمهوريتى الصرب والجبل الأسود بشكل غير رسمى.

وهم جماعة ضباط «شباب الترك» الذى قام بالانقلاب الداخلى، أصغر جنرالات الجيش سناً (إذ أنه فى منتصف الثلاثينيات) وهو الجنرال ڤوك أوبرادوڤيتش الذى عمل لفترة طويلة بالمكتب الصحفى التابع لهيئة الأركان العامة للجيش، قبل أن ينقل الى منصب المساعد الشخصى لوزير الدفاع السابق الجنرال ڤيلچيكو كادچيڤيتش؛ وهو الآن «مدير قسم التعليم المعنوى والدعاية» بالجيش. وكان أكثر النقاد للبولشفيك القدامى على رأس الجيش، وكذا للحزب الذى يساندونه أى «الحركة من أجل يوجوسلافيا»، وهو من أقوى المنادين بتحويل الجيش الى «جيش محترف» بلا ايديولوجية، وأن يصبح رسمياً جيش جمهوريتى الصرب والجبل الأسود. والجنرال أيضاً هو شقيق باڤيتش أوبرادوڤيتش نائب رئيس البرلمان الصربى والنجم الصاعد «بالحزب الاشتراكى الصربى» - الشيوعى - الذى يتزعمه الرئيس الصربى سلوبودان ميلوسيڤيتش.

* * *

كان القتال وحشياً شرساً ارتكبت فيه المذابح الجماعية. وكان الجنرال بلاجوچى أدزيتش هو قائد «الهجوم الصربى». وقام الجيش بعمليات تدمير وحشية لم تشهدها أوروبا.

فقد دمرت سلاڤونيا الشرقية الفاتنة و«كنين كراچينا» الجميلة، ثم دمرت سيرايبڤو وموستار وقرون الثقافة والتاريخ المنسوجة فيهما، وكانتا وطناً لمئات الآلاف من الصرب أنفسهم الذين إدعى الجنرال أدزيتش أنه يريد حمايتهم.

ومما يلفت النظر فى تلك الحرب الأهلية التى يخوضها «الجيش اليوجوسلافى» فى جمهورية البوسنة - الهرسك وفى كرواتيا أنه لم يحافظ على أى مكان أو مدينة أو قرية لها قيمة صناعية مثل دوبروڤينك على سبيل المثال. كان يدمر ويجتث المبانى من أصولها مثلما حدث فى ڤوكوڤار التى لم تكن لها أية قيمة استراتيجية ولا أهمية عسكرية عندما دخلتها القوات الصربية وقوات الجيش. بل وكان من الممكن لهذه القوات المشتركة استخدامها

كنقطة وثوب، لكن هذا لم يحدث.

قبل أن يبدأ الجيش اليوجوسلافى هجومه على سلوفينيا صرح الجنرال أدزيتش «إن مائة ألف قتيل ليست شيئاً بالقياس الى احتفاظ الصرب بالاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافى». لكن المشكلة أنه عندما ينتهى - أى - الجيش من الأعداء من غير الصرب». فلن يكون هناك صرب ولا جمهورية يوجوسلافيا ولن يتبقى حتى إلا القليل من جمهورية الصرب نفسها. فعندما بدأ الزعيم الصربى رئيس جمهورية الصرب وزعيم الحزب الاشتراكى الصربى - الشيوعى - الحاكم سلوبودان ميلوسيفيتش حملته منذ خمس سنوات مستغلاً النعرة القومية، كانت بداية لكل مايحدث الآن ولمأساة أمة الصرب نفسها. فالذى لاشك فيه أن القتال القومى لن ينتهى وأنه سيمتد الى الصرب نفسها. فالحرب الأهلية الحالية التى يخوضها المسلمون فى البوسنة، لايعرف أحد نهايتها.

ويسود الخوف أوروبا من أن يستخدم الجيش مالديه من صواريخ موجهة وأسلحة كيماوية فى تلك الحرب الأهلية المدمّرة. ورغم إعلان الأسبوع الأول من مايو ١٩٩٢ عن استقالة الجنرال ادزيتش من مصنبيه كوزير للدفاع الفيدرالى ورئيس الأركان العامة، إلا أنه يظل فى الجيش العامل لأنه لم يعلن عن «استقالته» أو إقالته. ومازال زملاؤه وأنصاره فى مناصبهم: الچنرال ريڤوتا يانيتش القائد العام، ومدير المخابرات الچنرال ماركو ينجوڤانوڤيتش الذى أصبح وزير دفاع جمهورية الصرب.

ويخوض مسلمو «البوسنة» هذه الحرب ضد الميليشيات الصربية فى جمهوريتهم وضد الجيش اليوجوسلافى - الصربى القيادة -، تلك «القيادة العليا» التى تتكون من جنرالات من أمثال أدزيتش، وهؤلاء جميعاً يريدون فرض الهيمنة الصربية تحت راية «الاتحاد الفيدرالى » التى تهاوت الآن. وهم يتصرفون مثل لوردات الحرب. وقد أعفى من منصبه كقائد المنطقة الثامنة فى الأسبوع الأول من مايو ١٩٩٢ لأنه أخذ رئيس البوسنة - الهرسك على عزت بيجوڤيتش رهينة لتأمين خروجه من معسكر قيادة الجيش المحاصر سالماً. وهو لم يُحَلْ على المعاش ولم يعف من الخدمة، لذا ينتظر ظهوره فى ساحة القتال لقيادة قوات الميليشيات الصربية فى البوسنة.

والدكتور رادوڤان كارازديتش هو قائد القوات الصربية فى البوسنة وهو فى نفس الوقت زعيم «الحزب الديمقراطى الصربى» الذى يمارس نشاطه السياسى فى البوسنة - الهرسك، وهو صربي من جمهورية «الجبل الأسود». ويؤكد المراقبون أن الچنرال أدزيتش هو الذى يوجه العمليات الصربية العسكرية ضد مسلمى البوسنة، وزيادة على ذلك فهو يوجه إلي حد كبير - حكومة بلغراد - من مقر قيادته السرى التى يرجح المراقبون أنه يقع فى إقليم «بوسانسكا كراچينا» التى رحل سكانها من غير الصرب. ويحمل كل البالغين من الصرب فى هذا الإقليم، السلاح، وأعلن أن وحدات الجيش المرابطة بها لن تسلم الأسلحة

والمعدات لأنها «تنتمى الى شعب كارچينا».

ويقوم الجيش اليوجوسلافى بعمل دعاية واسعة لعملية خروج المواطنين الصرب من البوسنة ـ الهرسك حسب مطالب «الجماعة الأوروبية» EC و«مؤتمر التعاون والأمن الأوروبى» CSCE. لكن إدعاءه بأن عددهم لايزيد عن ١٥٪ من المائة ألف هناك خالٍ من الصحة، والأقرب الى الحقيقة أن النسبة تكاد أن تصل الى٤٠٪ بل وهناك تقديرات لمراقبين تقول أنها ٦٠٪ وأعلن الجيش فى الأسبوع الأول من مايو ١٩٩٢ أنه أعاد أربعة آلاف من مسلمى البوسنة الى وطنهم فى نفس الوقت الذى قام فيه بترحيل ٢٣٠٠ صربى ومن أهل الجبل الأسود إلي موطنهم. ولم يستجب مسلموو كروات البوسنة على مدى عام لنداءات الجيش اليوجوسلافى. ويحتاج الجيش اليوجوسلافى هناك الى حقن المزيد من القوات لأنه يمتد على اتساع البلاد، وثكناته محاصرة. والمعتقد أن «قوات الدفاع الصربية الاقليمية» تضم مايقرب من ستين ألف مقاتل يساندون الجيش فى حربه ضد المسلمين.

خلق الجيش، فى الأسابيع الأربعة من شهر ابريل ١٩٩٢، فوضي شاملة فى كل أنحاء البوسنة ـ الهرسك. وقد فعل الإرهاب العسكرى فعله، إذ هرب حوالى٣٥٠ ألف مسلم وكرواتى من البلاد، ويعتقد المراقبون أن ٧٠٠ ألف نقلوا من منازلهم، وتقدر «اللجنة العليا للاجئين» التابعة للأمم المتحدة أن أكثر من مليون شخصاً هربوا من منازلهم عام ١٩٩١ من كرواتيا، والبوسنة، وتقدر «اللجنة العليا» أيضا أن ٩٥٪ من سكان مدن بوسانسيك برود، وفوسا، وزودرنيك، وڤايسچارد الخالية من الصرب، قد تركوها. ولايعمل فى البوسنة غير ١٠٪ من القدرة الصناعية، ووصلت المجاعة سيراييڤو وعدة مدن وأقاليم أخرى، ولم يعلن حتى الأن عن مساعدات انسانية. وقد أغلقت كل الدول الأوروبية المجاورة حدودها المشتركة فى وجه اللاجئين الذين يتجمعون يوماً بعد يوم فى سلوڤينيا وكرواتيا.

ومن الصعب القول أن الجيش قد فاز بالمراد، فعليه أن يسيطر على الطرق الرئيسية المؤدية الى كرواتيا والأدرياتيكى، فقد فقد الأرض المتصلة باقليم كنين حيث يبنى مطاراً بشكل متعجل، وهو منشغل فى معركة شرسة فى پوساڤينا، وعليه الاعتماد على الطيران والمدفعية لصد هجوم كرواتى مضاد بكازين بإقليم بوسانسكا كراچينا، وكذا فى پوساڤينا.

وتضع قيادة الجيش الكرواتى ضغوطاً كبيرة على الرئيس تودچمان ليقوم الجيش بهجوم شامل اذا لم تتم الاستجابة لميعاد ١٥ مايو. وتسحب قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة مقرها الرئيسي من سيراييڤو تحت وابل من الانفجارات والرصاص، ولم تحصل حتى الآن إلا علي ٢٠٪ من المصروفات اللازمة لعملها طبقاً لما ذكره سكرتير عام الأمم المتحدة بطرس بطرس غالى . ويتصاعد القتال فى مناطق كرواتيا التى مازال الجيش اليوجوسلافى يحتلها، ويستخدم الجيش قاذفات مقاتلة ضد ميتكوڤيتش، وأوپوزين،

وسلافونسكي بوندا، وزادار، وأوسييك، رغم تحولها كلها الى خرائب.

وقد تعلن كرواتيا وجمهورية البوسنة والهرسك، عن تحالف عسكرى رسمى بعد قليل، مما يتيح الفرصة للجيش الكرواتى أن يعمل من أراضى البوسنة. وتقول مصادر وثيقة أن الجنود الكروات فى البوسنة والهرسك يستخدمون عدداً كبيراً من بنادق ميسترال الفرنسية المضادة للطائرات، وكذا مدافع رشاشة أرجنتينية جديدة. والمرجح أنها وصلت إلي كرواتيا بعد اعتراف الغرب بها.

إن معركة استقلال البوسنة ـ الهرسك طويلة ومعقدة ودموية.

•

١٧ مايو١٩٩٢

الكراهية المخزونة

عندما بدأت بلغراد حربها الأهلية ضد الجمهوريات التى تريد الانفصال عن الاتحاد الفيدرالى، صيف ١٩٩١، تحولت لتصبح واحدة من أشرس وأقبح الحروب التى اشتعلت فى أوروبا. فقد قتل فيها حتى الآن ستة آلاف شخص معظمهم من المدنيين فى القذف بالمدفعية الذى قام به الجيش الفيدرالى، أو فى المذابح الجماعية التى قامت بها الأطراف ضد بعضها، وهرب مايقرب من ثلاثة أرباع مليون شخص تاركين بيوتهم.

وظهرت الكراهية المخزونة لأجيال بين القوميات فى البوسنة حيث يعيش الصرب والكروات والمسلمون فى أحياء متداخلة. كان هدف القيادة اليوجوسلافية منذ البداية، البقاء، والخروج بأكبر قدر ممكن من يوجوسلافيا الماضى. ففى شهر يونيو ١٩٩١ فازت سلوفينيا باستقلالها بعد فترة قتال لم تستمر طويلاً مع جنود الجيش الفيدرالى من بلغراد، ولم يكن الجيش آنذاك على استعداد. وعندما جاء الدور على كرواتيا كان عليها أن تقاتل أكثر لتنفصل، عندما أخذت الميليشيات الصربية تستولى على القرى وتطرد منها الكروات. وبعد أن توقف القتال فى أواخر عام ١٩٩١ فازت كرواتيا باعتراف العالم بها دولة مستقلة، لكنها فقدت سيطرتها على أكثر من ثلث أراضيها التى استولت عليها الميليشيات الصربية.

وتسير استراتيجية قيادة الجيش والقيادة الصربية بزعامة الرئيس سلوبودان ميلوسيفيتش فى خط متعرج، وجاء «طرد» أربعين جنرالاً فى القيادة تأكيدا لهذا ولاشك أن عدداً كبيراً من هؤلاء طرد للتمويه وخاصة الجنرال بلاجو أدزيتش رئيس الأركان العامة. ففى بداية الحرب الأهلية آراد الجيش أن ينقذ يوجوسلافيا من التفتت والانهيار، وأن يعاقب كرواتيا على انفصالها. ثم عاد الجيش الي تغطية محاولة جمهورية الصرب الاستيلاء علي مايمكن الاستيلاء عليه من أراضي كرواتيا. وكان هذا هو هدف الرئيس

الصربي سلوبودان ميلوسيڤتش الي جانب تمسكه بالسلطة.

يقوم الصرب الآن باستقطاع قطع من البوسنة والهرسك، رغم نداءات رئيس كرواتيا فرانچو تودچمان والرئيس الصربي سلوبودان ميلو سيڤيتش نفسه «باحترام تكامل أراضي البوسنة». وعندما اجتمع زعماء صرب وكروات البوسنة في السادس من مايو ١٩٩٢ أمسكوا بالخرائط وتحدثوا عن نصيب كل منهما. فكروات البوسنة يستفيدون من حرب الجيش الفيدرالي ذي القيادة الصربية ضد مسلمي البوسنة ويعقدون اتفاقيات مع صرب البوسنة من وراء ظهور المسلمين. فكروات البوسنة شكلوا قوات الميليشيا الخاصة بهم، وأينما استطاعوا قاموا بعمل اتفاقيات وصفقات مع صرب البوسنة من وراء ظهر المسلمين فتختلف اتفاقية كل منطقة عن الأخري واحد الأمثلة الواضحة مدينة كيبسلياك التي تركها الصرب المسلّحون لكروات البوسنة وعندما لايستطيع كروات وصرب البوسنة الاتفاق، يتحاربون ويتقاتلون. وبوسانسكي برود هو خير مثال علي ذلك، وهو اقليم شمالي يقع علي أحد الانهار التي تفصل بين البوسنة وكرواتيا. فالصرب يريدون ان تكون بوسانسكو برود ممراً بين جمهورية الصرب باقليم كراچينا عبر بانچالوكا، لان كراچينا هي اكثر مناطق كرواتيا التي تحرسها قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، ويأمل الصرب في ضمها إليهم. ومدينة موستار الجميلة التركية العمارة ذات الجسر الحجري الشهير هي نموذج آخر. فالاقليم المحيط بها يفصل بين غربي الهرسك التي يشكل الكروات معظم سكانه، وشرقيها الذي يشكل الصرب معظم سكانه. وتقوم فرق صربية من القتلة وقطاع الطرق بالتخلص من المسلمين في مذابح رهيبة في القري المسلمة شرقي العاصمة سراييڤو. ويقذف الجيش الفيدرالي وميليشيات الصرب سراييڤو عاصمة البوسنة من التلال المحيطة بها قصفاً مستمراً وعشوائياً، تماماً كما قصفوا دوبروڤينك وڤوكوڤار بكرواتيا. وليس للقصف الشديد من هدف سوي التخفيف من موقف قادة البوسنة ـ الهرسك لقبول تسوية ظالمة في محادثات السلام المشبوبة التي تجري تحت إشراف «الجماعة الأوربية».

ويقول بعض المراقبين أن هناك من الدلائل مايشير الي أن الصرب قد حصلوا علي مايكفيهم. فقد أمرت قيادة الجيش ببلجراد جنودها من مواطني ماتبقي من يوجوسلاڤيا (أي الصرب والجبل الأسود) بالانسحاب من البوسنة ـ الهرسك لغاية ١٩ مايو ١٩٩٢ وقد انسحب بعضهم بالفعل بعد أن أخذوا معهم آلات صنع السلاح المتحركة والتي يمكن حملها، ذلك أن اكثر من نصف صناعة الأسلحة اليوجوسلاڤية كانت في أراضي جمهورية البوسنة ـ الهرسك.

لكن انسحاب الجيش الفيدرالي لايعني قبول ميليشيات الصرب وقف إطلاق النار في البوسنة. فلا أحد يعلم مدي خضوع قيادات ميليشيات الصرب بالبوسنة والهرسك لقيادة

الصرب المركزية.

٢٤ مايو ١٩٩٢

الاستعدادات لتصفية استقلال البوسنة

البوسنة ـ الهرسك ، وكرواتيا ، وسلوفينيا ، ثلاث جمهوريات من الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي السابق، قبلت في الأمم المتحدة معاً يوم ٢٢ مايو ١٩٩٢ . وكانت بلجراد تتوقع ذلك بطبيعة الحال، فأعلنت قبلها في ٢٧ ابريل عن الجمهورية الثالثة، «نسخة» يوجوسلافيا عام ١٩٩٢ وتتكون من جمهورية الصرب التي تضم كوزوڤو وڤويڤودنيا، وجمهورية الجبل الاسود. ويسكن يوجوسلافيا الجديدة حوالي عشرة ملايين ونصف مليون نسمة هم ٤٤٪ من سكان يوجوسلافيا «الثانية» السابقة.

ويتوزع هؤلاء السكان قومياً وعرقيا كما يلي :

١ـ الصرب	٦٢ر٣٪
٢ـ الألبان	١٦ر٦٪
٣ـ اليوجوسلاف	٣ر٣ ٪
٤ـ المجريون	٣ر٣ ٪
٥ـ المسلمون السلاف	٣ر١ ٪
٦ـ أهل الجبل الأسود	ـر٥ ٪

كانت سلوڤينيا أول من طرحت علي شعبها استفتاء بالاستقلال منذ سنتين، وقال أكثر من ٩٠٪ من الناخبين نعم للحرية. وكانت كرواتيا الثانية إذ طرحت منذ عام استفتاءاً بالاستقلال وافق عليه ٨٠٪ من الناخبين ونظمت البوسنة ـ الهرسك استفتاء مشابهاً منذ ثلاثة أشهر، وافق عليه ٦٠٪ من الناخبين، وكان معظم الذين قالوا نعم من المسلمين السلاف الذين يشكلون ٤٥٪ من السكان، والكروات الذين يشكلون ٢٠٪ من السكان.. اما الصرب الذين يشكلون حوالي ٣٤٪ من السكان فلم يشاركوا أصلاً في الإدلاء بأصواتهم في الاستفتاء. وقد فعل معظمهم هذا خوفاً من الميليشيات الصربية المسلّحة التي كانت تراقب كل إمريء. لكن هل كان من الممكن أن تغيرّ أصواتهم من الانزلاق إلي الحرب؟

منذ بدأ سلوبودان ميلوسيڤيتش صعوده الي قمة السلطة، تحول من «الشيوعية» الي «القومية» ، وترجمة هذا في يوجوسلافيا أن يتحول الصرب ليصبحوا مواطنين من الدرجة الأولي. ومعني هذا أنه سيحصل علي معظم أصوات الصرب. وفي الوقت الذي يصوّت فيه الصرب ضد ميلوسيڤيتش كان من الممكن تجنب الحرب، لكن لم يكن هذا ممكناً في ظل

عنفوان المشاعر القومية التي أمسكت بتلابيب الجميع. واذا أراد الصرب بالفعل تفادي صدامات لابد قادمة مع القوميات الأخري في الاتحاد اليوجوسلافي الجديد، وعلي رأسها البان كوزوفو، فلابد أن يقفوا ضد ميلوسيفيتش.

حققت الدبلوماسية الوليدة للبوسنة نجاحاً كبيراً في فترة قصيرة، بمساعدة ظروف مواتية. لقد أدان العالم ممارسات الصرب وسياسات الرئيس ميلوسيفيتش. لقد أيدت الجماعة الدولية البوسنة ـ الهرسك ، ولكنها لم تتخذ موقفاً فعّالا من خلال الأمم المتحدة كما اتخذت مع الكويت ضد عراق صدام حسين. لقد استمرت الصرب في شن حرب ضد كرواتيا لفترة ولكن ماأن بدأت الحرب في البوسنة حتي أدانها «الرأي العام» العالمي.

فالقوميات الثلاث ممثلة في البوسنة ـ الهرسك : المسلمون والصرب والكروات ولم ينفذ الرئيس المسلم علي عزت بيجوفيتش سياسات قومية ـ عرقية ضيقة الافق تهتم بشئون المسلمين فقط، لكن هذه السياسات السلمية التي اتبعها الرئيس بيجوفيتش لما تأت ثمارها مع الصرب العنيدين المقاتلين القوميين الذين يريدون تحقيق حلم «الصرب الكبري»، ولم تستطع سياساته كذلك تجنب الحرب، وإن كان قد استطاع أن يكسب أصدقاء وحلفاء عديدين في الخارج، ساندوا قضية البوسنة ـ الهرسك .

لكن نتيجة للعداء التاريخي بين الصرب والكروات، استعد الكروات للحظة الحاسمة، لحظة الحرب والاستقلال لأنهم كانوا يعرفون «الاحلام الصربية» وعانوا منها، وكانوا يدركون أن الصرب لن يتركوهم لوحدهم بسهولة. فالمؤرخون الكروات المعاصرون ينظرون إلي السبعين عاماً الأخيرة لتاريخ الدولة اليوجوسلافية علي أنها عبودية ـ استعمارية في ظل السيطرة الصربية. وقد اعترفوا بدولة البوسنة ـ الهرسك لسببين :

الأول : انه اكبر صفعة موجهة الي الصرب

وثانيا : أن العالم كله يحاول أن ينقذ بقعة صغيرة من يوجوسلافيا السابقة، عاش عليها المسلمون والصرب والكروات في تناغم، وكان الكروات هم الذين قالوا للعالم أيضاً أن هذا لن يحدث لأنه غير الواقع.

والمسلمون علي عكس الكروات، لم يستعدوا لمواجهة الكروات، واعتقد قادتهم أن السياسات الأوربية في عالم اليوم تسمح بالتحرك الدبلوماسي، وأن مواقف الدول الأوربية «الصديقة» تعني وقوفها الي جانب البوسنة ـ الهرسك وقت الشدة، والقتال إلي جانبها إذا لزم الأمر. لكن ثبت انه إذا لم تكن هناك مصلحة مباشرة للأصدقاء فإنهم لن يتدخلوا. وعندما بدأت البوسنة تستعد لتخوض حرب الاستقلال، عاقها انسحاب قوات الجيش اليوجوسلافي من سلوفينيا وكرواتيا، فدخل ١٥٠ ألف جندي منهما إلي البوسنة. آنذاك كان صرب البوسنة قد بدأوا استعداداتهم بمساعدة الجيش.

× ×

ثم نصل هنا إلي دور كرواتيا، في البوسنة ـ الهرسك. فلم يكن تدخل الرئيس الكرواتي فرانجو تودچمان خالصاً لوجه استقلال البوسنة، وانما أيضاً لمصلحة كرواتيا، مستغلاً في ذلك كروات البوسنة الذين يشكلون ١٢٪ من سكانها. كانت الصرب تحارب لانتزاع اكبر مساحة من أراضي البوسنة، «وتمشطها» من المسلمين، لتضمها فيما بعد، تحت أي اسم. ولم يقف الرئيس الكرواتي تودچمان بحزم ضد أعدائه الصرب جنباً الي جنب مع المسلمين، وانما أخذ يلعب لعبة سياسية مع الصرب : استولي كروات البوسنة علي مناطق يشكلون أغلبية السكان فيها، وأخذ تودچمان يتفاوض مع الصرب، وأحياناً أخري يناقشهم في كيفية تقسيم البوسنة ـ الهرسك فيما بينهما. وقد تسربت أنباء هذا عدة مرات، لأن الاجتماعات بينهما كانت تتم سراً من وراء ظهر المسلمين. وكان آخرها ذلك الذي تم بين صرب البوسنة وكرواتها بمدينة جراز بالنمسا. وقد أدان العالم هذا علي الفور، وأسرعت زغرب بإدانته أيضاً. ثم في أواخر مايو اتفق المسلمون والكروات علي كونفيدراليه بين كرواتيا البوسنة ـ الهرسك، علي أن يتم الاتفاق علي التفاصيل بعد الحرب.

وقد تكون هذه كلها تاكتيكات علي أية حال. فالذي سيحدد أشكال الاتحادات والوحدات هو المصلحة المشتركة، والأهداف والعلاقات بين الأطراف المعنية بعد أن انتهي عصر الشمولية والقمع، وينطبق نفس هذا الكلام علي جمهوريات الاتحاد الفيدرالي السوڤييتي السابق وعلي دول أوربا الشرقية. أما أشكال الوحدة أو الاتحاد الجديد، فهي لن تكون مثل سابقاتها، وعلي الأغلب أن كل بلد وخاصة عندما يكون صغيراً سيعطي نفسه هامش حركة وحرية أكبر.

لقد ضاعت البوسنة ـ الهرسك. وأصبحت أرضها «أرضاً سلبية» كأرض فلسطين. فالرئيس علي عزت بيجوڤيتش لايحكم إلا قصر الرئاسة بسيراييڤو، وحوله بعدة كيلومترات. وعندما جاء اعتراف العالم بها، لم يكن يتبقي منها غير القليل، بل والقليل جداً. وكل مافعله اعتراف العالم، أنه منع الصرب من «ضمها» كلها، وانه مازال هناك «نواة» للجمهورية يتجمع حولها المسلمون، ويمكنهم تأسيس دولتهم كلها في المستقبل البعيد.

أما كرواتيا فعليها أن تقنع العالم بإنها لا تطمع بدورها في إنشاء «كرواتيا الكبري» لتعيد تاريخ «دولة كرواتيا المستقلة» التي تأسست اثناء الحرب العالمية الثانية بمساعدة «المحور»، وكانت تضم البوسنة ـ الهرسك الحالية، واعترفت بها أنذاك ٣٦ دولة تضمن ذكر تاريخه المعادي للفاشية وعدم ارتباط كرواتيا المعاصرة بدولة الماضي، وأدان أي تشابه بينهما، وأنكر استيلاء كرواتيا علي أي جزء من أراضي «البوسنة ـ الهرسك». وقد أدان الكروات القوميون ـ المتطرفون خطاب الرئيس تودچمان علي أساس أن البوسنة ـ الهرسك هي جزء لايتجزأ من كرواتيا.

أما الصرب فقد آمنوا بأن «القوة حق». وأن التاريخ تصنعه فوهة البندقية، ولم يأخذوا عبرة تاريخ يوجوسلافيا نفسه حيث لم تستطع قوة الآلة العسكرية الألمانية والايطالية أن تخضع شعوبها للاحتلال. وضرب الصرب عرض الحائط بإحتجاجات الولايات المتحدة الأمريكية، و«الجماعة الأوربية»، و«مؤتمر الأمن والتعاون الأوربي»، وقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن، لأن الصرب تعلم تماماً أن العالم لن يتحرك، وأن الموضوع قد انتهي بالفعل. وستستمر تلك الحرب الوحشية، وسيبقي المسلمون وحدهم ولن يجدوا إلا بعض المعونة من كرواتيا.

لذا سيجد المسلمون أنفسهم بمفردهم، مع بعض المتطوعين من الاسلاميين في عدد من الدول الاسلامية والعربية التي لم تتحرك حكوماتها ولا شعوبها، والمتوقع إذن أن تصبح حرباً طويلة شرسة يقف فيها مسلمو البوسنة وحدهم، ولاشك ان هذا سيكون معناه ميلاد دولة إسلامية ـ سلافية خالصة في جنوب ـ شرقي أوربا.



إعادة رسم الخريطة بالقوة العسكرية

[الاراضي المحتلة في البوسنة ـ الهرسك وفي كرواتيا]

٥ يونية ١٩٩٢

مطامع الصرب في البوسنة

تتوالي يومياً أخبار المذابح التي يرتكبها الصرب ضد مسلمي البوسنة ـ الهرسك. الأسبوع الأخير من مايو ١٩٩٢ وقف طابور من النساء والأطفال لشراء خبز بأحد شوارع العاصمة سراييڤو فانطلق الرصاص من مدفع مورتار يحصدهم فقتل خمسة وعشرين وجرح اكثر من مائة. قبلها بيوم واحد القيت متفجرات وقنابل علي مستشفي للولادة فقتل ثلاثة من الأطفال الرضع. ومنذ اوائل شهر ابريل ١٩٩٢، تقوم ميليشيات الصرب عند حدود البوسنة الشرقية مع الصرب والجبل الأسود، بعمليات «تمشيط إثنية»/ يقطعون المواصلات عن قرية ما، يحاصرونها، ثم يدخلون بيتاً بيتاً يطردون سكانه اذا كانوا لم يهسبوا، وفي بعض الحالات يصفون سكان القرية ثم يطلقون عليهم الرصاص في مذبحة جماعية.

وطبقاً للاحصائيات الرسمية للأمم المتحدة، هناك مليون وربع مليون من اللاجئين المسلمين والكروات في بلادهم، داخل ماكان يوجوسلافيا، هذا بالاضافة الي ربع مليون لاجيء عبروا الحدود اليوجوسلافية الدولية إلي دول أخري مجاورة، إلي جانب عشرات الألاف الذين تسللوا بطريقة غير قانونية هرباً الي أقارب ومعارف.

وهذه اكبر عملية طرد لاجئين أوربيين بقوة السلاح منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. والمؤكد أنها مجرد بداية ! أما اذا ما انفجر العنف في كوزوڤو فالمرجح أن يخرج ثلاثة ملايين لاجيء آخرين.

هذه الموجة من اللاجئين من مسلمي البوسنة ليست نتيجة من نتائج الحرب الأهلية وحدها، وانما هي هدف في حد ذاته. فالصرب تدعي «ملكية» ثلث أراضي جمهورية كرواتيا وحوالي ٧٠٪ من أراضي البوسنة ـ الهرسك، ويطمع الصرب في الحصول عليها وقد خرج أهلها منها، وهم مستعدون للذهاب الي اي مدي لتحقيق حلمهم الاكبر في «الصرب الكبري».

ويهرب المسلمون والكروات والصرب أيضاً من البوسنة والهرسك لأنهم لا يجدون الآن مايكفي من الطعام. ويمكن تصور الوضع بعد أن توقف «الصليب الأحمر» وقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام عن العمل. أما الذين هربوا الي جمهوريات أخري فهم أحسن حالا. فالذين وصلوا الي كرواتيا أسكنوا في المنازل الصيفية ويحصلون علي معونة من الدولة، والذين أتوا من البوسنة سواء من الكروات أو المسلمين يحصلون علي معونات دولية. وقد امتلأت الفنادق والمدارس والمباني العامة باللاجئين وبدأت إقامة مدن الخيام.

والرئيس الكرواتي فرانچو تودچمان قومي متطرف متعصب، لا يقل قسوة عن الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيڤيتش. وهو يستفيد من الحرب الدائرة ضد البوسنة والهرسك ومحاولة احتلال المناطق التي يستقر بها كروات البوسنة. وقد تفاوضت حكومته مع بلجراد لتقسيم البوسنة بين الصرب وكرواتيا.

ولا يأمل أحد من اللاجئين في العودة إلي دياره في المستقبل المرئي علي الأقل. لذا فليس من العجيب أن يدرك عدد من اللاجئين أن مستقبلهم ليس في يوجوسلافيا ولكن في أوربا ودول السوق الأوربية المشتركة التي تعاني اقتصادياتها من الكساد ليست مستعدة لإغراق نفسها بلاجئين في حاجة الي مساكن ووظائف وإعانات اجتماعية. فلم تأخذ المانيا اكثر من ١١٥ الف لاجيء هذا العام* وخصصت ٥١ مليون دولار لمساعدة اللاجئين، وهو ضعف عدد اللاجئين الي المجر. والموقف الذي اتخذته المانيا يعود أساساً الي وجود ٨٠٠ الف عامل «ضيف» يوجوسلافي علي أراضيها. فمن الناحية العملية فكل يوجوسلافي استضاف قريباً أو صديقاً. وقد انعكس هذا الموقف البطيء الاستجابة عندما أعلنت معظم الدول استجابتها السريعة لنداء الواجب الانساني، كانت الاعلانات الكلامية سريعة، لكن عندما يأتي الأمر إلي الناحية العملية لم تستجب الدول بنفس السرعة، فلم تدفع كل الدول بعد نصيبها في الميزانية التي خصصت لقوات حفظ السلام في يوجوسلافيا والتي تبلغ ١٤٠ مليون دولار. فلم تتلق الأمم المتحدة حتي الآن غير ثلث هذا المبلغ.

وتخشي المانيا أن يصل عدد المهاجرين اليوجوسلاف إلي أوربا، الي رقم المليون. ولا يمكن اعتبارهم لاجئين فليس لديهم منازل ولا وظائف ولا أي شيء. إنهم يجيئون ليبقوا. لذا فاللاجيء يدور الآن علي السفارات الغربية ويعود خائباً. وعقدت عشر دول أوربية اجتماعاً في ڤيينا مع مندوب لقوات حفظ السلام ومندوب للصليب الأحمر، واتفق الجميع علي اتباع سياسة تقديم «مأوي مؤقت» من القصف وبالفعل فإن ثلاثة أرباع الألفي لاجيء الي ايطاليا من القصف علي دوبروڤينك عادوا مرة أخري الي كرواتيا. لكن السؤال هو عندما يعود اللاجيء فماذا يفعل؟ لقد قدر الدمار حتي الآن بما قيمته مائة بليون دولار.

ويقف وراء خطة «الصرب الكبري»، زعيم الحزب الاشتراكي الصربي - الشيوعي، ورئيس جمهورية الصرب : سلوبودان ميلوسيڤيتش الذي تولي السلطة في الصرب منذ ست سنوات عام ١٩٨٦ كانت بداية «البيريسترويكا» الجورباتشوڤية في الاتحاد السوڤييتي السابق. فأدرك بثاقب بصره أن عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية علي وشك الانهيار، فانتقل من الشيوعية إلي التطرف القومي - الصربي. أدرك أن إنهيار الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي وشيك فتبني ضرورة الحفاظ علي الاتحاد الفيدرالي، وهو في حقيقة أمره يعني تحقيق حلم «الصرب الكبري» القديم تحت اسم الفيدرالية. وبدأت

[*] حتي تاريخ كتابة هذه اليوميات

خطوات خطته تتوالي :
* تأسيس نظام بوليس في اقليم كوزوفو وأغلبيته من الألبان المسلمين، ويتبع جمهورية الصرب،
* نشر الدبابات في شوارع بلجراد نفسها ضد المعارضة الصربية،
* ثم رفض انفصال أي جمهورية في الاتحاد ودخول حرب ضدها إذا أصرت : في صيف ١٩٩١ ضد سلوفينيا، ثم الحرب التي لم تنته بعد ضد كرواتيا، ثم الحرب القذرة في البوسنة، التي اقترنت باقتراف مذابح جماعية.

لقد استطاع حتي عام ١٩٩١ أن يقدم نفسه في صورة من يريد الحفاظ علي الاتحاد الفيدرالي، وليس من يريد تحقيق حلم «الصرب الكبري». الولايات المتحدة ظلت تؤيد الاتحاد الفيدرالي حتي بدأت المانيا تدفع السوق الاوربية المشتركة في اتجاه الاعتراف بسلوفينيا وكرواتيا، ثم غيرّت سياساتها. ولاشك أن اجماع الأمم المتحدة علي فرض العقوبات كان صدمة لبلجراد وصدمة للصرب. لكن ميلوسيفيتش لن يستسلم فمازال في يده عدة أسلحة : فالمعارضة الصربية هامشية حتي الآن وهي لم تتحد إلا مؤخراً، والدبلوماسيون «اليوجوسلاف» ينتقلون من عاصمة غربية الي أخري «للتفاوض» و«الوصول الي حلول وسط» . وتشير الدلائل الي أن ميلوسيفيتش سينتظر مدي نتائج العقوبات، مستغلاً الخلاف حول سياسات الدول الأوربية تجاه يوجوسلافيا، خلال عام ١٩٩١. وقد تؤدي العقوبات الي التفاف الصرب حول زعيمهم في وجه العداء الدولي، خاصة بعد فوزه في الانتخابات التي جرت في الأسبوع الأخير من مايو ١٩٩٢، ومقاطعة أحزاب المعارضة لها.

وميلوسيفيتش نموذج للسياسي الذي تربي في أحضان الحزب والابارتشيك : فهو يتفق سراً مع زغرب لتقسيم أراضي البوسنة بين الصرب وكرواتيا وفي نفس الوقت يعلن أنه ليس للصرب اية اطماع اقليمية، وبينما يلام علي تفتت يوجوسلافيا بسبب أحلامه القومية بالصرب الكبري، يقيم يوجوسلافيا جديدة مكونة من الصرب والجبل الأسود فقط، وبينما تدان الصرب علي أساس أنها المعتدي في أكبر حرب تشهدها أوربا منذ عام ١٩٤٥، فهي لم تعلن الحرب أبداً ضد كرواتيا وضد البوسنة - الهرسك.

وإذا كان هدف ميلوسيفيتش هو تحقيق حلم «الصرب الكبري»، فقد نجح رغم الغمام الذي يحيط بالموقف، فالصرب تحتفظ بثلث أراضي كرواتيا وثلثي أراضي البوسنة - الهرسك، وانضمت إليها جمهورية الجبل الاسود، ولا تستطيع مقدونيا الحركة لأنها عاجزة.

وقد بدأت خطته عندما اصبح سكرتيراً للحزب عام ١٩٨٦ فضمن ولاء الجهاز الحزبي، وضمن «الجيش الوطني» الفيدرالي بعد أن أدرك أن هذا هو رجله، بعدها انتقل

ميلوسيفيتش إلي تصفية المعارضة داخل الحزب. بعدها انتقل إلي السيطرة علي أجهزة الاعلام، وخاصة تليفزيون بلجراد، وصحيفة بوليتيكا المحترمة بين المثقفين والسياسيين. هنا ارتفعت صيحته «القومية» بدلاً من الحديث عن «الشيوعية» و«الاشتراكية» و«التجربة اليوجوسلافية الخاصة» !

كان الزعيم چوزيف تيتو (وقيادة الحزب) هو الضامن لتجميع الجمهوريات بقومياتها معاً، وملأ الصراع القومي ذلك الفراغ، كان الدستور الفيدرالي الذي وضع خلال حياة تيتو يهدف عدم هيمنة القومية الكبري «الصربية» علي القوميات الأخري وعلي الاتحاد الفيدرالي، وضمان وضعية «كوزوفو» و «ڤويڤودينا» كاقليمين يتمتعان بالحكم الذاتي داخل الجمهورية الصربية. لكن ميلوسيفيتش بدأ جولاته في جميع أنحاء الجمهورية الصربية منادياً بثورة «ضد البيروقراطية» في خطب قصيرة سريعة تذاع علي الهواء وفي التليفزيون وهكذا جاء جيل مابعد عصر العملاق تيتو. لقد ذهبت الخطب الوطنية المشتعلة وذهب معها الحديث عن «التسيير الذاتي» و«الاشتراكية» و«التضامن مع العالم الثالث»، لتحل محلها كلمات «الانفصالية، والإرهاب، والفاشية، والأصولية الاسلامية»، كان يشير بهذا الي القوميات الأخري ومسلمي كوزوفو والبوسنة والهرسك. ووضعت صوره بدلاً من صور تيتو في البيو ت والمحلات والسيارات الصربية. وفي يناير ١٩٨٧ قدم مثقفو بلجراد «مذكرة» لميلوسيفيتش يطلبون فيها «توسيع حدود الصرب لتضم مليوني صربي في الجمهوريات اليوجوسلافية الأخري، وأساساً كرواتيا والبوسنة». وهذا هو ما أصبح برنامج ميلوسيفيتش الذي ينفذه بحذافيره. وانها لفضيحة للمثقفين اليوجوسلاف أن يطالبوا بالضم والالحاق، وعدد منهم ممن له انجازات نظرية هامة.

كان ميلوسيفيتش أول من انتقل من الشيوعية إلي «القومية»، من بين زعماء أوربا الشرقية. نفضوا جميعاً الأيديولوجية الماركسية ـ اللينينية التي تنادي «بالإخاء القومي» ليعتنقوا ايديولوجية «العداء القومي».

٣٠ يونية ١٩٩٢

حصار سيراييڤو

هل تنقذ سيراييڤو عاصمة جمهورية البوسنة والهرسك من حصار الصرب؟

واذا لم تنقذ من الحصار ونتائجه، فهل ينقذ سكانها من الموت جوعاً بوصول قوافل الإغاثة بالمواد الغذائية والطبية تحت حماية قوات حفظ السلام للأمم المتحدة؟

بدأت القوات الكندية من «نوي البيريهات الزرقاء» يصلون وعمليات إرسال المواد الغذائية والطبية محفوفة بالمخاطر، وهي تتم ببطء، والمفروض أن تبدأ قبل أن يحل هذا

الشتاء القارص. ونجاح وصول هذه القوافل غير مؤكد. فقوات المسلمين تحيط بالمطار من ناحية، أما الميليشيات الصربية فتطوقه من الناحية الأخري . وحتي إذا وصلت قوافل الإغاثة إلي سيراييڤو فهناك سكان المدن والقري الأخري المحاصرة. وحتي لو وصلت هذه القوافل، فهي قد تحل مشكلة حصار سيراييڤو، ولكنها لن تحل قضية استقلال البوسنة ـ الهرسك الذي اغتاله الصرب.

منذ ٧٨ عاماً بالضبط أطلق شاب صربي قومي متطرف من سكان البوسنة اسمه جاڤر يلو برينسيب، طلقات الرصاص، التي أشعلت نيران الحرب العالمية الأولي. أما المكان فهو بالقرب من جسر علي نهر ميلياكا، أطلق عليه اسمه جاڤريلو برينسيب فيما بعد، كانت الطلقات موجهة الي الأرشيدوق فرانز فرديناند ولي عهد الامبراطورية النمساوية ـ المجرية. أما التاريخ فكان ٢٨ مايو عام ١٩١٤. واليوم لا احد يجرؤ علي المرور فوق هذا الجسر، فهو في قلب مدينة سيراييڤو القديمة التي مازالت تحمل طابعها القديم منذ الامبراطورية العثمانية، وقد حوصر فيها ما لا يقل عن ٣٠٠ ألف علي مدي الأشهر الثلاثة الماضية أي منذ شهر مارس ١٩٩٢. بلا طعام تقريباً وتحت قصف يومي. أما المياه فتتوفر لما لا يزيد عن عدة ساعات قليلة يومياً. كل شيء مغلق في المدينة : المحلات والمطاعم والمقاهي والمكاتب. ولا شيء يمكن أن يباع أو يشتري. وكل من يحاول الدخول إلي المدينة المحاصرة من الغرب يجد حائطاً كبيراً كُتبَ عليه باللغة الانجليزية : «مرحباً بكم في الجحيم» ! ولعل هذا هو أدق وصف للمدينة المحاصرة اليوم.

هذه هي المدينة التي تفخر بإستضافتها للأولمبياد الشتوي عام ١٩٨٤، تقع بين الجبال مثل عش عصافير بمآذنها المرتفعة في شموخ وأسقف منازلها الحمراء. لقد تحولت المدينة الي خرائب، بعد قصف يومي من الميليشيات الصربية التي تسيطر علي معظم المرتفعات المحيطة بوادي ميلياكا. وهم يقصفون المدينة يومياً بجميع أنواع المدافع : بالمدفعية الثقيلة وبمدافع الدبابات وبالصواريخ. ويقبع قناصة الصرب في شقق الضواحي التي يسيطرون عليها جنوب ضفة النهر، يطلقون النيران علي كل من تجبره حاجته علي الخروج إلي شوارع المدينة، للتزود بلقمة أو شربة ماء.

مدينة عدد سكانها ـ قبل الحصار ـ نصف مليون، توقف كل شيء فيها، الترام الأحمر، طريقة المواصلات التي مازالت تستخدم، وهو يتهاوي في شوارعها وخاصة «طريق الماريشال تيتو»، الذي كنا نحب السير فيه ـ والمبني الوحيد الذي به حركة تدل علي الحياة هو قصر الرئاسة بهذا الشارع، وكل مبانيه من بنوك ومحلات ومكاتب قد قصفت ونهبت اختفت من الوجود أنواع الخضار والفواكه التي كانت تطل من واجهة المحلات، واختفت كذلك كل أنواع المعلبات والمواد الغذائية ويخزن الناس كل شيء. أما هؤلاء الذين لم يحتاطوا فسيخرجون ليقفوا في طابور هنا أو هناك في انتظار اللوري الذي يوزع الخبز

من المخبز الوحيد المتبقي، وأحد هذه الطوابير هو الذي اطلقت عليه قذيفة في أحد ايام شهر مايو فلقي ٢٢ مصرعهم في الحال. ومع ذلك يقف أهل سيراييفو في هذه الطوابير مجبرين، فليس أمامهم خيار. والذهاب للوقوف في هذه الطوابير هو «عملية عسكرية» في حد ذاتها يخوض تجربتها الشيوخ والنساء والأطفال كل يوم يتفادون فيها القصف والقناصة. عدد كبير منهم يموت كل يوم، ويدفنون ليلاً. وحتي المدافن لم تنج من القصف، ولم يترك الموتي يستريحون في مقرهم الأخير. وقصفت المستشفيات وقضي انقطاع الكهرباء علي ماتبقي من أدوية ومستحضرات طبية في الثلاجات وهناك ١٦٠ جندياً لا غير من جنود الأمم المتحدة، يتعرضون هم أنفسهم للقصف اليومي وهم في سياراتهم المدرعة.

مهدت الزيارة المفاجئة التي قام بها لسيراييفو الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران بعد قمة لشبونة مباشرة، مهدت الطريق أمام وحدة كندية تابعة للبيريهات الزرقاء لتذهب إلي مطار سيراييفو الدولي وتفتح الطريق لفك الحصار حول المدينة أمام المساعدات الغذائية والطبية. وحطت علي المطار بالفعل طائرة فرنسية تتبعها أخري. وهذا الاجراء لن يمنع استخدام القوة وإن كانت كل القوي الغربية تقوم بعمل حسابات التدخل. فالرئيس الأمريكي جورج بوش يتحرك ببطء بسبب المعركة الانتخابية واسهمه فيها منخفضة، والموقف الأمريكي حتي الآن هو «تأييد استخدام القوة بواسطة الأمم المتحدة، وعدم استخدام القوات الامريكية بشكل مباشر لتوصيل المساعدات الانسانية للمدينة المحاصرة. والحكومات الأوربية ـ الغربية تتحرك بحرص شديد حتي لاتغرق في مستنقع الحرب الأهلية «اليوجوسلافية». لكن مايبدو حتي الآن يشير الي أن الغرب يناور لعدم التدخل كما حدث في العراق بعد غزو صدام حسين للكويت

٢٧. يولية ١٩٩٢

اللاجئون من الحرب الأهلية

خلفت الحرب فيما كانت جمهورية يوجوسلافيا الاتحادية أكبر فيضان من المهاجرين فى أوروبا منذ عام ١٩٤٥: إذ يصل عددهم إلى المليونين داخل الجمهوريات اليوغوسلافية السابقة نفسها. وبالإضافة إلى ذلك هناك مايزيد عن نصف المليون هربوا إلى دول أوروبية مجاورة.

وطبقاًلأرقام «اللجنة العليا للاجئين» فالأرقام كما يلى (وهى تتضمن اللاجئين إلى الدول الأوروبية منذ بدأت الحرب الأهلية منذ حوالى العام) :

* ألمانيا وقد ذهب إليها ٢٧٥ ألف لاجئ.
* المجر وقد ذهب إليها ٥٠ ألف لاجئ.
* السويد وقد ذهب إليها ٤٠ ألف لاجئ.

* النمسا وقد ذهب إليها ٣٠ ألف لاجيء
* سويسرا وقد ذهب إليها ٢٠ ألف لاجئ.
* تركيا وقد ذهب إليها ٢٠ ألف لاجئ.

تم هذا اللجوء دون ترتيب في موجة الذعر من الحرب الأهلية، لذا تريد هذه الدول أن تشاركها بقية الدول الأوروبية العبء. وذكرت الحكومة الألمانية أنها ستسمح لخمسة آلاف لاجئ من البوسنة باللجوء كمرحلة أولي في إطار اتفاق أوربي أشمل وطبقاً لما صرح به وزير داخلية ولاية (لاندر) سارلاند الألمانية فإن الولاية ترغب في إيواء ثلث أي عدد يتفق عليه. والمفروض إن يرتب المؤتمر هذا كله.

لكنه فكرة أن يكون لكل دولة أوربية «نصيب» ـ أو «كوتا» ـ قد تبدو غير عملية حتي لو أمكن تنظيم تحرك اللاجئين. فالحكومات تخشي تدفق لاجئين من مناطق أخري : الحكومة الفرنسية علي سبيل المثال تتوقع تدهور الأوضاع في المغرب العربي وبالتالي تدفق اللاجئين منها، شمالاً. وهي لهذا لم تقبل سوي عدد محدود من لاجيء يوغوسلافيا السابقة. أما بريطانيا فهي أقل كرماً رغم التصريحات المعسولة. ووجهت الحكومة الالمانية في ٢٠ يونية نداءً رسمياً في بروكسيل إلي دول السوق لتبذل جهوداً أكثر، لكنه لقي آذنا من طين وأخري من عجين.

وحتي فكرة توزيع تكاليف اللاجئين تبدو بعيدة عن التقنين، «فلجنة اللاجئين» تقول أن المطلوب لحل المشكلة والقيام بالعمليات في الجمهوريات اليوغوسلافية السابقة ـ حتي نهاية العام الحالي (١٩٩٢) هو ١٤٢ مليون دولار، وحتي الآن تم جمع مبلغ ٧٢ مليون دولار فقط أي حوالي نصف المبلغ.

والمفروض أن يعود اللاجئون الي أوطانهم بعد أن تسكت المدافع، لكن الحكومات الأوربية تعلم من خبرتها أن اللاجيء ما أن يصل حتي يستقر خاصة وأن الدول التي يلجأ إليها أفضل اقتصادياً من وطنه الأصلي الذي وصل الي حالة متردية أيضاً بسبب مأساة الحرب. لذا يقترح إجتماع جنيف وضع «اللاجيء المؤقت»، لكن المسألة ليست تسميات، إذ حدث هذا مع لاجئي كرواتيا من قبل، ولم يعودوا الي ديارهم. فقد عاد السلام في ظل قوات الأمم المتحدة في الجيوب الصربية بكرواتيا، ولم يعد اللاجئون حتي الآن. لكن القضية الأساسية التي تخفي علي العالم الخارجي أن هؤلاء اللاجئين نفذوا بجلودهم هروباً من مذابح رهيبة قام بها الصرب ضدهم : فكيف يعودون ومازال الصرب يمسكون بمقاليد الأمور في هذه الجيوب؟

ولن يتوقف تدفق اللاجئين. فعبر حدود كرواتيا مع البوسنة التي تمزقها الحرب، هناك حركة دائمة من سكان المدن والقري، يهربون جميعاً وبشكل جماعي إلي الأمان.

لقد خسرت البوسنة الحرب تماماً، وكذلك يري الكروات انهم قد خسروا، وإن كانوا لا

يصرحون بهذا علناً : فقد إجتزأت قوات البوسنة وكرواتيا في اقليم يوسافينا شمالي البوسنة ويتدفق اللاجئون أمام القوات الصربية المنتصرة. ويقوم صرب البوسنة الآن بتعزيز إنتصارهم هذا بعمليات يطلقون عليها عمليات «تنظيف أو تمشيط إثنية»، فيطردون غير الصرب جماعات. ويقول مراسل صحيفة الجارديان البريطانية أن أربعة آلاف هربوا من بوسانسكي نوفي وحدها تاركين منازلهم، ودمرت كل جوامع المدينة ووضع الصرب لافتات تقول صراحة : «أيها المسلمون .. أخرجوا»، وقال المراسل أنه في مدينة بوسانسكي برور أخر مدن إقليم يوسافينا التي لم تقع في أيدي الصرب المتقدمين شاهد ألفي رجل ينتظرون عند الجسر المؤدي الي كرواتيا، في انتظار ان يسمح لهم بالانضمام الي عائلاتهم، وقد هربوا من منازلهم في اي شيء متحرك : سيارات وتراكتورات وعربات إطفاء وعربات زبالة الخ. وفي الأشهر القليلة الماضية هرب أكثر من مليون من أهل البوسنة إلي كرواتيا مصدومين من سرعة المأساة. ويعامل الكروات الرجال علي أساس أنهم هاربون من الخدمة العسكرية لتحرير وطنهم. كان جيش الكروات في البوسنة المعروف باسم «مجلس الدفاع الكرواتي» هو الذي يقود كل القوات التي تحارب الصرب في إقليم يوسافينا، وهو الذي أمر أهل البوسنة من المسلمين والكروات بالانسحاب.

كان الهدف الأساسي لكرواتيا قطع خطوط الامدادات الصربية التي تأتي من جمهورية الصرب نفسها وحتي مواقع الصرب القوية في البوسنة وخلال الأشهر الثلاثة الماضية ساندت فرقة صغيرة من «القوات الخاصة» (من كرواتيا نفسها) مدعمة بعدد من الدبابات قوات البوسنة التي تحارب الصرب، وحققت بعض النجاحات التي وصفت بأنها «مذهلة» عسكرياً في يوسافينا. لكن هذه القوة الكرواتية انسحبت بعد التهديد الدولي بالتدخل ضد كل القوات المتحاربة، في الوقت الذي كان الصرب يعدون فيه هجوماً مضاداً. وتعتقد قيادة البوسنة أن «تسليم» اقليم يوسافينا للصرب لم يحدث بسبب تراجع قوات مسلمي البوسنة ولكن أساساً بسبب صفقة ـ واتفاق تم بين الصرب والكروات حول تقسيم كل البوسنة والهرسك بينهما. لكن كان في مصلحة الكروات أن يتم الدفاع عن يوسافينا لمحاصرة الصرب في المناطق التي مازالوا يحتلونها في كرواتيا، وحتي تبتعد القوات المعادية من علي حدودها ـ أي كرواتيا ـ مع البوسنة.

وقبيل سقوط كل شمال البوسنة، وقع رئيسها على عزت بيجوفيتش اتفاقية مع رئيس كرواتيا فرانجو تودجمان تقدم كرواتيا بموجبها مساعدات عسكرية للبوسنة في حالة فشل الجهود الدولية، وتضع هذه الاتفاقية إطاراً للتعاون الفعلي بينهما. وطبقا لهذه الإتفاقية كما يقول رئيس هيئة الأركان الكرواتي انطون توس : «يقوم الجيش الكرواتي بتدريب افراد البوسنة، وكذا يصبح من حق المتطوعين الكروات أن يحاربوا في البوسنة».

٢ اغسطس ١٩٩٢

التمشيط العرقي

استطاعت المحررة الصحفية الشجاعة لمحطة تليفزيون الـ آي. تي.في أن تدخل أحد معسكرات الإعتقال الصربية لتصور فيلما عن المعتقلين المسلمين. الصور ذكّرت العالم بفظائع النازية ضد الشعوب الأوربية، فظائع معسكرات الاعتقال وغرف الغاز التي يحاول العالم ان ينساها، كتاريخ لن يتكرر. لكنها تكررت. المهم أن يتحد العالم ضدها، ولا يقف مكتوف الأيدي لا يريد التدخل. فوراء هذه المعسكرات ماهو أفظع : وراؤها انتزاع الأرض من شعب البوسنة ـ الهرسك، فتتكرر مأساة شعب فلسطين. ولا يجب أن تنسينا فظائع معسكرات الاعتقال مرارة الحقيقة التي تقف وراءها.

المهم أن هذا الفيلم التليفزيوني، وغيره من الأخبار والصور التي بدأت تتدفق من وكالات الأخبار والصحف من مراسليها لعبت دوراً هاماً في تغيير الرأي العام العالمي وخاصة الامريكي.

لم يكن من الممكن في البداية تصديق قصص الفظائع التي يقوم بها الصرب ضد مسلمي البوسنة ـ الهرسك. وقالت إحدي القصص انه بمدينة ترينوبوليه شمال البوينة كانت الميليشيات الصربية تقوم بنقل مائة سجين مسلم من معسكر الي آخر، وفي الطريق انتقوا ثلاثين سجيناً من المائة وأطلقوا عليهم الرصاص. وفي معسكر آخر بمدينة بريبدور حاولت عائلة سجين جائع أن تقدم له طعاماً، فأخذ الحراس الطعام وضربوا السجين أمام زوجته وأولاده. وفي مدينة دوبوي قامت الميليشيات الصربية برش مبيد حشري علي أرغفة الخبز وأطعموها لأطفال المسلمين الذين أصابتهم أمراض رهيبة. وبالقرب من مدينة توزلا شرقي البوسنة قال شاهد عيان ان الميليشيات قامت بربط ثلاث فتيات مسلمات الي السور عاريات الصدر، حتي «يستخدمهن أي صربي». وبعد ثلاثة أيام من الاغتصاب المستمر سكب عليهن «البترول» وأحرقن. وقال أطباء في تقاريرهم ان فتيات مسلمات وكروات أعتقلن لشهور ليمارس معهن افراد الميليشيات الصربية الجنس، وأطلقوا عليهناسم «جواري الجنس»، بعضهن حملن فأطلق سراحهن ليضعن «أطفالا صرب»! وعشرات من الفظائع.

ومن الواضح أن هذه الفظائع بدأ ارتكابها ربيع ١٩٩٢ عندما بدأت القوات الصربية ما عرف باسم «التمشيط العرقي» لمسلمي البوسنة والهرسك التي أعلنت استقلالها. فقد قام الصرب بطرد مليون مسلم وكرواتي من منازلهم، وخلال هذا قاموا بقتل وتعذيب الآلاف لارهاب الباقي حتي لايعودوا إلى أراضيهم ومنازلهم. وقد حاول بعض الكروات والمسلمين مواجهة هذه الفظائع دون جدوى.

الآن كشف النقاب عن هذه الفظائع على شاشة التليفزيون، وفى صدر الصفحات الأولى من الصحف وعلى أغلفة المجلات" المساجين فى المعسكرات «جلد على عظم» وقد ظهرت عظام صدورهم الواهنة، طفل رضيع خلف زجاج نافذة حطمها الرصاص، سيدة عجوز يطلق عليها الرصاص فى جنازة حفيدتها الطفلة، أجساد القتلى وقد تكومت بالعشرات على الأرض، فتيات مسلمات فى الرابعة عشرة والخامسة عشرة من أعمارهن يسردن وحشية الصرب على شاشات التليفزيون.

هكذا تحولت «الحرب الأهلية» فيما كان يوغوسلافيا الفيدرالية إلى «حملة فظائع وحشية» لاتمت إلى بنى البشر، حملة يقوم بها الصرب «لتطهير» الأرض من المسلمين والكروات لتصبح البوسنة خالصة لهم. ورغم أن هذه الحملة بدأت فى الربيع، فقد وقف العالم كله يتفرج على عملية «التمشيط العرقى»، وكان رد الفعل حتى الآن: كثيراً جداً من الكلمات الكبيرة أراقت حبراً كبيراً وارسال بعض قوات حفظ السلام من «ذوى البيريهات الزرقاء» لتوصيل مواد غذائية وطبية إلى العاصمة سيراييفو وحدها!

والآن بعد أن أظهرت وسائل الإعلام مايحدث فى البوسنة للرأى العام العالمى، هناك ضغوط على «التحالف الغربي» ليفعل شيئاً . هناك ضغوط على الرئيس الأمريكى جورج بوش. وكتبت رئيسة وزراء بريطانيا السابقة السيدة مارجريت تاتشر فى صحيفة «النيويورك تايمز» الأمريكية وفى الجارديان البريطانية تقول : «يجب توجيه إنذار للصرب بإيقاف العدوان أو مواجهة عمل «عسكرى».

لكن الرئيس الأمريكى جورج بوش يواجه الانتخابات الرئاسية ولا يريد إتخاذ قرار «يورط» القوات الأمريكية، فذكر بعض الكلمات «لمواساة» أهل البوسنة وقال «ان العالم لايستطيع أن يواجه مرة أخرى معسكرات الاعتقال النازية!! وبدلاً من ترتيب إجراءات التدخل، طلب من «مجلس الأمن» مناقشة اتخاذ قرار بإستخدام القوة إذا لزم الأمر، لضمان وصول المواد الغذائية والطبية للبوسنة!!

اقتصر الأمر على توصيل المواد الغذائية وحمايتها إذا لزم الأمر! فالتحالف الغربى لايريد استخدام القوة، والظاهر أن هناك تضاربا فى كيفية استخدامها من جانب الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها . وعامل آخر، فهناك أقوال بأن وزير الخارجية الأمريكى جيمس بيكر سيدير المعركة الانتخابية للرئيس بوش وبذلك يجب أن يتخلى عن منصبه. وعلى أية حال فإنه رغم كل مايحدث لمسلمى البوسنة فليس هناك فى وزارة الخارجية الأمريكية أى شعور بالعجلة. ونضيف أن حقائق مايجرى على أيدى الصرب، كان معروفاً للدبلوماسيين الغربيين أو على الأقل مضمونه من «تمشيط عرقى» وبعض تفاصيل الفظائع الصربية، قبل أن تذاع بفترة، ورغم ذلك لم يتخذ قرار.

ارتكبت واشنطن والعواصم الأوروبية الغربية ثلاثة أخطاء.

الأول : حدث تقييم خاطئ منذ البداية للرئيس الصربي زعيم الحزب الاشتراكي (الشيوعي السابق) سلوبودان ميلوسيفيتش منذ توليه السلطة.

والثاني : ان تاريخ البلقان عبارة عن سلسلة من الفظائع القومية والعرقية وأن الحاضر هو امتداد لهذا الماضي.

والثالث : أن هناك خلافاً جذريا بين أعضاء «التحالف الغربي» حول مواجهة الموقف.

فالبلقان محكومة بخطوط التماس بين الأديان والامبراطوريات على مدى التاريخ: فالصرب المسيحيون الأرثوذكس يواجهون الكروات الكاثوليك على نفس الأرضية التي عبرتها القوات الغازية للامبراطورية العثمانية إلى أوروبا عندما وصل الغزو إلى ذروته، ذلك الغزو الذي خلف وراءه من أسلم من السلاف الذين يشكلون أهل البوسنة والهرسك أساساً الآن إلى جانب المسلمين السلاف في مقدونيا أيضاً. فالقوميات والأديان لم تنصهر هنا في البلقان؛ فنتج عن هذا الشرارة التي أشعلت نيران الحرب العالمية الأولى، وبعض أشنع فظائع الحرب العالمية الثانية عندما تأسس في كرواتيا نظام فاشستي أيّد ألمانيا النازية التي اجتاحت جحافلها البلاد، وتحول الصرب إلى الأنصار الشيوعيين بقيادة تيتو، الذي كان هو نفسه كرواتياً. وخلال حكم «عصبة الشيوعيين اليوغوسلاف» بزعامة الماريشال تيتو كانت هناك هدنة مؤقتة، وعادت الأمور إلى مجاريها بعد وفاته ثم ببداية تفكك الاتحاد الفيدرالي اليوجوسلافي.

ويقول مساعد وزير الخارجية الأمريكي لورانس ايجليبيرجر : «لقد أخطأنا فهم سلوبودان ميلوسيفيتش رئيس جمهورية الصرب الغوغائي».

الغريب في هذا الكلام أن لورانس ايجليبيرجر كان سفيراً للولايات المتحدة الأمريكية في بلغراد فيما بين عامي ١٩٧٧ و ١٩٨١ أي قبل وفاة الرئيس تيتو وحتى بعد عام من وفاته. ونتيجة لهذا «الخطأ» في الحسابات ظلت الولايات المتحدة تؤيد بلغراد ويوجوسلافيا الموحدة حتى بعد أن بدأت بعض الدول الغربية تؤيد استقلال سلوفينيا وكرواتيا بسبب السياسات القومية الواضحة للرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش. ويقول ايجليبيرجر انه تبين خطأ تقديراته منذ أوائل التسعينات.

وليس لدى الأوروبيين أية إجابة جاهزة الآن حول كيفية ايقاف الصرب الذين يسيطرون بالفعل على أجزاء من كرواتيا وأجزاء كبيرة من البوسنة، تدخل كلها في تأسيس «الصرب الكبرى» التي يحلمون بها. ولقد أيدت بعض الدول الأوروبية هذا الجانب أو ذاك، كل لأسبابه ومصالحه الخاصة بطبيعة الحال، فألمانيا تؤيد الكروات وفرنسا وروسيا تؤيدان الصرب إلى حد ما، أما بريطانيا، فهي كالمعتاد من السياسة البريطانية التقليدية تمسك العصا من الوسط، وتقول وزارة الخارجية البريطانية «أن كل الأطراف في الحرب الأهلية قد ارتكبت الفظائع!» وعندما أعلنت سلوفينيا وكرواتيا استقلالهما عام ١٩٩١ عن الاتحاد

اليوجوسلافى الذى أصبح بقيادة الصرب وحدها، أخذت ألمانيا تضغط فى اتجاه الاعتراف الأوروبى بهما. وفى شتاء ١٩٩٢ صوّت مسلمو وكروات جمهورية البوسنة ـ الهرسك للاستقلال. هنا بدأ صرب البوسنة ـ الهرسك الاستقلال بالمناطق التى يشكلون أغلبية بها، وبدأوا من فورهم عملية «التمشيط العرقى»، أي التخلص ممن ليسوا صرباً بالقتل والطرد والإبادة.

وعندما اتخذت الأمم المتحدة قرارها بمقاطعة يوجوسلافيا، أو بمعنى أصح ماتبقى منها ـ أى الصرب ـ قاومت فرنسا فى البداية، ثم خضعت للضغوط الدبلوماسية واتخذ القرار بالإجماع الدولى.

يستطيع «التحالف الغربى» التدخل الآن إذا أراد بقرار من مجلس الأمن كما حدث عند ردع العراق بعد غزوها الكويت. بل أن الأمر أسهل هنا إذ لاتحتاج الولايات المتحدة الأمريكية إلى «نقل» قواتها لا جواً ولا بحراً كما حدث فى حرب الخليج. فلها قوات يمكنها التدخل من قواعدها الجوية فى ايطاليا بل وعلى الشاطئ الأدرياتيكى المقابل للبوسنة والهرسك، وفى ألمانيا، ومن السفن الحربية [بما فى ذلك حاملة الطائرات «ساراتوجا»] المتواجدة فى البحر الأبيض المتوسط والأدرياتيكى. والمؤكد أن «الضربة الجوية» ستوصل المواد الغذائية والطبية، وإذا ضربت مراكز المدفعية الصربية فيمكنها التخفيف من الفظائع التى ترتكبها الميلشيات الصربية، وإذا كانت هناك خطة محكمة فلا شك أنها سترتدع. أما تدخل قوات أرضية أمريكية ـ وهو ممكن كما يصرح كثير من العسكريين، بل ولازم ـ فيعارضه بشدة وزير الدفاع الأمريكى ديك تشينى أم الرئيس جورج بوش، فما زال يفكر فى الأمر .. حتى الآن !

وقد طرحت علناً عدة أفكار لانقاذ مسلمى البوسنة ـ الهرسك .. تتلخص كلها فيما يلى:

فتح «كوريدور أرضى» لضمان تدفق المساعدات والمعونات الغذائية والطبية، بحيث لاتعتمد المسألة على «الخط الجوى» بمطار العاصمة سيراييفو. والاقتراح هو إقامة عدة «كوريدورات» أرضية لتصل إلى عدة مدن محاصرة وليس سيراييفو وحدها، ويمكن أن تمتد من ميناء سبليت على الساحل الأدرياتيكى على سبيل المثال لا الحصر. لكن لامفر أن تمر هذه الطرق بمواقع صربية تهاجم أرتال سيارات المعونة من جبال البوسنة. وفى رأى القائد السابق لقوات الأمم المتحدة فى سيراييفو أن هذه العملية وحدها تحتاج إلى مالايقل عن ٦٠٠ ألف جندى. لكن معلقين عسكريين يقولون أن هذه أرقام مبالغ فيها، لأنه إذا كانت عملية موحدة أرضية وجوية، فيمكن تأمين هذه «الكوريدورات» بقوات أرضية أقل وبضربات جوية دقيقة.

تسليح مسلمي البوسنة : واحدة من أسباب الفظائع أن مسلمى البوسنة سيئي التسليح، أما ميليشيات الصرب فمسلّحة، ومعروف أن ميليشياتهم تتلقى السلاح من

مخازن «الجيش اليوغوسلافي» الخاضع للصرب فى بلغراد منذ بداية الصراع. قال رئيس البوسنة علي عزت بيجوفيتش في مقابلة صحفية فى أوائل أغسطس ١٩٩٢ «أوافق الرئيس بوش تماماً على أنه لاينبغى أن يموت جنود أمريكيون من أجل البوسنة، ان الآلاف من مسلمى البوسنة على استعداد للموت من أجل وطنهم، لكنهم لايمتلكون السلاح». والرئيس چورج بوش لايريد إرسال السلاح لمسلمى البوسنة «لأنه لايريد المزيد من القتل وسفك الدماء». لكن الذى يسفك هو دماء المسلمين وحدهم.

لكن أين الدول الاسلامية ومعوناتها السخية وأسلحتها؟

ضرب الصرب : وهناك اقتراح بضرب جمهورية الصرب نفسها فهى الرأس المدبر لكل هذه الخطة، ابتداء من «الحرب الأهلية» حتى «التمشيط العرقى». ويمكن اختيار مواقع عسكرية لضربها بالسلاح الجوى. وقالت السيدة مرجريت تاتشر فى مقالها الآنف الذكر: «ويمكن ضرب حتى المؤسسات العسكرية فى الصرب نفسها، إذا مالعبت بلغراد دوراً فى الحرب».

يقول المعترضون أن الصرب مقاتلون أشداء وأن مخازن أسلحة جيشهم مليئة بكل أنواع الأسلحة بما فى ذلك صواريخ أرض - جو. يمكن أن تستخدم بحذق ضد الطائرات الأمريكية. لكن يمكن ضرب المراكز والمواقع العسكرية مع شل الدفاعات الجوية. وقد حدث هذا فى العراق. كذلك يشير الجنرال المتقاعد جون جالڤين قائد قوات حلف شمال الأطلنطى الأسبق : إلى أن «صرب البوسنة يشكلون ميليشيات مستقلة ليست تحت قيادة بلغراد». لكن هذا القول فى الحقيقة فيه مجافاة للواقع وضد أى مفاهيم سياسية لحقيقة الصراع القومى - العرقى الدائر فى يوجوسلاڤيا السابقة. وان كنا نقول أن الذى يقود الصرب المحليين رؤساء عصابات ومهربون ومجرمون وقطاع طرق انتهزوا فرصة الحرب والفوضى ليقوموا بأعمال إجرامية. ومن هذا المنطلق قدلايكون لقيادة الجيش ولا للقيادة السياسية فى بلغراد سيطرة عليهم.

تقسيم البوسنة والهرسك : الذين يعارضون التدخل العسكرى ينادون بتقسيم البوسنة، لكن القضية الأساسية هنا أن هذا هو الهدف الحقيقى وراء الحرب الأهلية التى يخوضها الصرب. إن التقسيم معناه صراحة مكافأة المعتدى وتحقيق أحلامه، وينفذ هدف «التمشيط العرقى» بالسماح للصرب بالاحتفاظ بمعظم الأرض التى استولوا عليها فى الأشهر الثلاثة الأخيرة والأهم من ذلك أنها تترك عدداً كبيراً من مسلمى البوسنة بلا أرض ولا منزل. إن التقسيم يجعل من البوسنة، فلسطين البلقان مرة ثانية، الوطن السليب الثانى، وزيادة على ذلك يقنن التقسيم، خلافات عديدة مماثلة فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى السابق.

٨ أغسطس ١٩٩٢

الدكتور رادوڤان كارادزيتش
إكذب ... واكذب ... واكذب
فالكذب يصنع الدول

إذا كان الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيڤيتش، هو سفاح بلجراد، فالدكتور رادوڤان كارادزيتش زعيم صرب البوسنة هو سفاح البوسنة ـ الهرسك. وقد وقف أمام العالم الآن على شاشات التليفزيون بعد الكشف عن معسكرات الاعتقال وفظائعها، يحاول الدفاع وتبرئة نفسه، بعد أن تمثل الرأى العام الغربي جرائم النازية التى يحاول نسيانها.

قال مراقبون أن زعيم صرب البوسنة، القومى المتشدد، قد فقد سيطرته علي «الوحش» الذي خلقه التعصب ـ القومى ـ العرقى، لذا صرح بأن «هؤلاء الذين لم يطيعوا الأوامر سيعاقبون». فهل صحيح أن وحش الميليشيات الذى خلقته القيادة الصربية فى بلجراد وفى البوسنة، نما وأصبح يتحرك بمفرده بعيدا عن المركز ـ العقل المفكر؟ قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة لبعض الميليشيات، لكن الصحيح أيضاً أنها كلها، سواء خضعت للقيادة أم خرجت عن طوعها، تنفذ الهدف الأساسى الذى وضعه المركز، ألا وهو إرهاب المسلمين ليهربوا، ومن لايهرب ينقل إلي معسكرات الإعتقال الرهيبة، فالهدف النهائى هو «تفريغ» الأرض من سكانها والاستيلاء عليها.

أما الأب ـ الشرعى لهذا «الوحش» فهو سلوبودان ميلوسيڤيتش رئيس جمهورية الصرب ومهندس «الصرب الكبرى» الذي خطط لضم أراضٍ يعيش عليها صرب كرواتيا ثم البوسنة ـ الهرسك، مهما كان الثمن غالياً، وقد كان الثمن مكلفاً بالفعل. وكان الدكتور رادوڤان كارادزيتش هو منفذ الخطة فى البوسنة. وعندما كشف العالم الفظائع والجرائم التى ارتكبت، قبيل انعقاد مؤتمر لندن، كان ميلوسيڤيتش هادئاً غاية الهدوء وغسل يديه من الدكتور كارادزيتش خاصة بعد أن واجهت بلجراد الضغوط الدولية والعقوبات الاقتصادية. لم يعد ميلوسيڤيتش فى حاجة إلى الرجل الذى مزّق البوسنة ـ الهرسك والذى استخدمه فى إلهاب المشاعر القومية ـ المتطرفة ـ المتعصبة.

فالدكتور كارادزيتش ليس هو إذن بطل المسرحية الصربية، انه ممثل ثانوى يمكن ازاحته بسهولة، والرجال الذين يقودهم ويشكلون الميليشيات الصربية معظمهم من المتعصبين ـ ذوى السوابق من الذين يمكنهم ممارسة كل الأعمال غير الانسانية دون أن يطرف لهم رمش، وقد تذوقوا طعم الدم، وحققوا نصراً رخيصاً لأن الظروف سمحت لهم بذلك، وهم لايعرفون «وقف إطلاق النار» ولا احترام اتفاقيات وغير ذلك من الأعراف

الدولية. وهم لا يأبهون لما يحاول أن يقوم به الدكتور كارادزيتش من محاولات لوقف إطلاق النار. بل إن قادة الميليشيات يحددون تاريخاً لإنهاء أهدافهم، فقد صرح چيكوكودريساسا قائد الميليشيات التى تحاصر مدينة جورازده لمراسل صحيفة الجارديان البريطانية [فى ١٩٩٢/٨/٨] «سننتهى من تمشيط مدينة جورازده والعاصمة سيراييفو فى نهاية سبتمبر».

حقق الصرب مايريدون على وجه التقريب، فقد قسّمواالبوسنة ـ والهرسك بالفعل إلى قسمين: قسم «لكرواتيا الكبرى»، والقسم الثانى «للصرب الكبرى»، أما المسلمون فعليهم أن يبحثوا لأنفسهم عن مكان آخر. وبالفعل فإن معظمهم فى معسكرات الإعتقال ينتظرون الموت، وآخرون فى معسكرات لاجئين، وبقية تقرع أبواب أوروبا المغلقة رغم تصريحات قادتها المعسولة.

والدكتور كرادزيتش طبيب نفسانى، يستخدم علم النفس للتأثير على الرأى العام العالمى. فقد نفى فى البداية وجود «معسكرات اعتقال» وقيام الميليشيات الصربية بما يسمى «التمشيط العرقى»، إنها دعاية يروجها المسلمون. لكن عندما بدأت الحقائق تنكشف وتم تصوير «معسكرات الموت» وما يرتكب فيها من فظائع، «وشكر الصحفيين لأنهم كشفوا الحقيقة»، وانه «سيحقق فيما حدث» و «يمكن للصليب الأحمر الدولى أن يأتى ويرى بنفسه كل شئ»، و «سنغلق هذه المعسكرات» !

اكذب ... وإكذب ... وأكذب، فقد يصدق بعض الناس بعض ماتقوله، والبعض الأخر كل ماتقوله !

مارس الدكتور الطب فى المستشفيات الحكومية ولم يمارس السياسة القومية المتعصبة المتطرفة إلا بعد فترة قصيرة قضاها فى السجن يدعى هو أنها بسبب نشاطه ضد «النظام الشيوعى ـ الشمولى»، أما الذين يعرفونه فى سيراييڤو فيقولون أن السبب هو اختلاسات من ميزانية الحكومة. وعلي أية حال كيف «يناضل» ضد الشيوعية، وهو «يتعاون» مع نظام ميلوسيڤيتش الشيوعى ـ القومى فى بلجراد !؟

كان ضمن مجموعة شكلّت «الحزب الديمقراطى الصربىSPD» فى البوسنة صيف عام ١٩٩٠. وأمسك مجموعة مثقفين منهم بالسلطة، ومن بينهم المؤرخ البروفيسور ميلوراد ايكنيريتش صاحب القول الشهير : «ليس بالكثير على تأسيس «دولة الصرب الكبرى» أن يسقط مائة ألف قتيل»! كانوا يعلمون أنه سيسقط قتلى مسلمون وكروات لقيام هذه الدولة.

انتقل الدكتور كارادزيتش للمعيشة «بفندق الهوليداى إن» حيث انتقلت أعمال السياسية أيضاً، تحوطه عناصر الميليشيات تحمل الكلاشينكوف. وفى شهر ابريل ١٩٩٢ نقل مركز قواته على بعد عشرين كيلومتراً من سيراڤيو، بمدينة بيل الجبلية، وعندما بدأت بوادر فى شهر يولية ١٩٩٢ بإمكانية تدخل «التحالف الغربى» ضد بلجراد لوقف العدوان الصربى

عمل على التحرك إلى ملجأ بنى ليلجأ إليه الماريشال تيتو ـ لايبعد كثيراً عن بلجراد ـ أيام الحرب.

كان بمقره بفندق «الهوليداى إن» الأحد الأول من شهر ابريل ١٩٩٢، عندما شاهد آلافا من أهل سيراييڤو، مسلمين وكروات وصرباً، يتظاهرون أمام مبنى البرلمان المقابل، يطالبون بالسلام، ويطالبون ميليشيات حزبه برفع المتاريس، بعد أن أعلنت البوسنة استقلالها.

لم يكن الدكتور كارادزيتش وسيده ميلوسيڤيتش موافقين على حكاية استقلال البوسنة، «وانما ينبغى ان تظل كلها جزءاً من الصرب الكبرى» بأى ثمن. آنذاك ذكر مراسلون كانوا فى مقره بالفندق، رفع قبضته قائلاً :« إن الأمر لايتطلب أكثر من عدة جثث فى الشوارع لنبدأ حرباً، هذه هى المأساة البلقانية».

انه يعرف مايريد، وكيف يصل إليه.

فى نفس ليلة المظاهرات قتلت الميليشيات الطالب سوادا ديلبيروڤيتش فى العشرين من عمره، كان ضمن المتظاهرين ضد تكتيكات الميليشيات، وضد المتاريس التى أقاموها فى شوارع سيراييڤو. وتدفق الآلاف من الريف يطالبون بإزالة الحواجز، ولكن ما أن وصلوا إلى فندق «الهوليداى إن» فى طريقهم إلى مبنى البرلمان، حتى حصدهم رصاص القناصة.

هكذا بدأت حرب استقلال البوسنة.

كان كارادزيتش يكذب علي جميع محطات وقنوات التليفزيون الأوربية كلها : كان يتحدث عن «المأساة البلقانية» وهو يقصد بذلك منع استقلال البوسنة بأي ثمن، وعن «الصراع ـ العرقي ـ التاريخي» وهو يقوم بذبح المسلمين و«التمشيط الاثني» وفتح معسكرات الاعتقال. وكان قائد الميليشيات الصربية في كل منطقة يبدع من ذاته فنون التعذيب والقتل والارهاب. وبينما كل هذا يجري، كان الدكتور كارادزيتش يكذب ويكذب ويكذب، فلم تكتشف وسائل الاعلام الغربية الحقيقة علي مدي خمسة أشهر كاملة. كان يمارس أكاذيبه من مدينة بيل بمساعدة فنيين من الجيش اليوغوسلافي، وأجهزة إذاعية مسروقة من تليفزيون سيراييڤو، واجهزة الاذاعة البريطانية التي استولي عليها بعد انسحاب مراسليها.

ورددت «وكالة أنباء» الجمهورية الصربية للبوسنة الأكاذيب عن فظائع يرتكبها المسلمون : اطفال صرب يصلبون، وخصي رجال وإلقائهم في نهر درينا. كانت كل هذه الأكاذيب موجهة للخارج. وللصرب العاديين لتبرير ماتفعله ميليشيات كارادزيتش في جيرانهم المسلمين.

نجحت الدعاية الصربية ـ الفاشية، وصدقتها شعوب الغرب. لكننا نعتقد أن السياسيين كانوا علي علم بما يجري ولم يتحركوا.

ونجح ميلوسيفيتش فيما خطط، وحقق مايريد مستخدماً مجرم الحرب كارادزيتش وأمثال : الاستيلاء علي ٦٠٪ من أراضي البوسنة ـ الهرسك، وطرد ١٫٦ مليون مسلم وكرواتي من منازلهم، قتل آلاف المدنيين. وعندما يحين موعد الانتخابات التي قد تخطط لها الأمم المتحدة كأسلوب ديموقراطي يمارسه أي شعب، سيقول من تبقي من السكان ـ الصرب طبعا ـ انهم يفضلون الانضمام الي جمهورية الصرب.

أما مسلمو البوسنة، المسلمون السلاف الأوربيون، فقد أصبحوا فلسطينيي أوربا، وأصبحت البوسنة، هي أرض البوسنة السليبة، بعد فلسطين السليبة. ولكنها في قلب أوربا هذه المرة. هؤلاء المسلمون اللاجئون الذين يعيشون حتي الآن في معسكرات فلن تكون لهم كلمة في تقرير مصير بلادهم.

عندما بدأ الرئيس الأمريكي چورچ بوش تحركه عام ١٩٩٠ لضرب العراق بعد غزوها للكويت، قال : «لا يجب مكافأة المعتدي في أي مكان في العالم».

لكن هاهو سلوبودان ميلوسيفتش يستولي علي معظم أراضي البوسنة بالقوة، فلا يتحرك الغرب. ويفلت مجرمو الحرب من أمثال كارادزيتش من العقاب.

١٤ اغسطس ١٩٩٢

... وهكذا ضاعت البوسنة

عند رسم سياسة عامة تجاه دول البلقان، هناك أربعة أهداف واضحة ينبغي أن توضع في الاعتبار وهي :

الأول : أن القوميات والأقليات في أوربا، من الأطلنطي وحتي الأورال، متشابكة. وكل واحدة لها شبكة اتصالات دولية بحيث لا تستطيع أمة بمفردها، أن تهيمن علي أمم أو قوميات أو أقليات أخري. فأي محاولة مثل هذه، كتلك التي يقوم بها الصرب الآن، تؤدي الي نداء إقليمي غير مستقر أكثر من ذي قبل. ولما كان من غير الممكن القضاء علي ثقافة شعب بأي طريقة من الطرق غير الأنقراض، فالمتوقع استمرار عدم الاستقرار السياسي والثقافي. إن مشكلة القوميات والجماعات العرقية في البلقان وماتعانيه ستؤثر علي نصف أوربا علي الأقل. فاستخدام الصرب للقوة، ومايقومون به من «تمشيط عرقي» لمسلمي البوسنة أساساً والكروات، والطرد الجماعي لهم، ستكون إذا ما سلّم بها سياسيو أوربا سابقة خطيرة، خاصة وهناك عدم إستقرار كامن في منطقة شاسعة تمتد ألفي ميل شرقاً من الخط الذي يمتد بين تريستا وبحر البلطيق. لذا ينبغي إنقاذ شعب البوسنة من براثن الصربية ليس من اجل حقوق الانسان وشعب البوسنة فحسب، ولكن من أجل استقرار كل أوربا. يجب ايقاف ضم الأراضي وعملية «التمشيط ـ العرقي»، واغلاق المعتقلات،

وباستخدام القوة، وإذا لم يتم هذا، وبسرعة الآن، سيصبح استقرار أوربا مهدداً لدرجة أن جيوب الأزمات الحالية للحرب الداخلية ستتسع بسهولة الي صدام أكبر شبه عالمي. وغياب رد فعل غربي في البلقان ومسك العصا من وسطها يشجع قوات المرتزقة والمواقف الفوضوية.

والثاني : لم يمس «الحوار» الدائر حتي الآن حول التدخل العسكري لقوي «التحالف الدولي» ، النقطة الأساسية منذ نشوب الحرب في البوسنة ـ الهرسك. هذه النقطة هي إمكانية ردع الميليشيات الصربية وبقايا «الجيش اليوغوسلافي» ذي القيادة الصربية، علي يد قوة محدودة من «حلف شمال الاطلنطي» (الناتو). فكثير من ضباط الجيش اليوغوسلافي المحترفين، بما في ذلك معظم الجنرالات الصرب الذين استقال معظمهم، مذعورون من خليط المجرمين ومدمني المخدرات والفوضويين الصرب الذين أصبحوا أبطال الحركة الصربية المحلية في البوسنة الذين ذبحوا أهلها وارتكبوا الفظائع ضدها. فالسياسة الصربية تجاه البوسنة ـ الهرسك وضعتها القيادة السياسية للرئيس سلوبودان ميلوسيفيتش. وحتي الجنرال الشاب، الصربى المخلص للقيادة السياسية فوك أوبرادوفيتش، ويعكس هذا المستوي الزري الذي أصبحت فيه قيادة الجيش. وحتي الكابتن دراجان، الصربي الاسترالي الذي بزغ واشتهر في حرب العام الماضي (١٩٩١) نادي بالقبض علي فوييسلاف سيسيلي زعيم «الحزب الراديكالي الصربي»، وكانت الميليشيا التابعة له اكثرها وحشية وقسوة. و حتي جنرالات وكبار ضباط هيئة المخابرات العسكرية للجيش اليوغوسلافي الذين كانوا يشكلون قوة لا يستهان بها في السابق نكّل بهم النظام الصربي لسلوبودان ميلوسيفيتش.

وقد غيرّت الانتليجينسيا الصربية موقفها تماماً الآن، فبالإضافة إلي عدد كبير من ضباط الجيش المحترفين السابقين، ستزيد أغلبيتها بإزاحة الميليشيات والعصابات الصربية في البوسنة ـ الهرسك. فقد أدركوا مأساة الحرب وماستجلبه علي الصرب نفسها فيما بعد.

والثالث : يتطلب الأمر كما يقدر اكثر الخبراء العسكريين أكثر من مائة ألف جندي من قوات «الناتو» لتعيد توازن القوة في جمهورية البوسنة ـ الهرسك لفرض حل سياسي يمكن مسلمي البوسنة ـ الهرسك الذين تصل نسبتهم إلي٤٠٪ من سكانها، من إستعادة أراضيهم وعقاراتهم والعودة إلي منازلهم. فالقوات الخاصة للتحالف الغربي، يمكن إنزالها بفعالية كبيرة لمساندة قرارات الأمم المتحدة في المناطق حول سيراييفو عاصمة البوسنة وجورازده وبيهاك، كبداية. وسيكون من السهل نسبياً آنذاك، بالسيطرة الجوية الكاملة لقوات التحالف، تحطيم المدرعات وخطوط التموين الصربية، بالإضافة الي مراكز إتصالات الجيش اليوغوسلافي في الصرب إذا لزم الأمر. وهناك افتراضان لتنفيذ هذا، الأول

عسكري، والثاني سياسي هما :

(١) أن تنهار القوات الصربية بسرعة،

(٢) ينبغي أن يسيطر مسلمو البوسنة ويكون لهم السيادة علي جزء كبير من أراضي البوسنة ـ الهرسك. فبدون وجود «بوسنة» وسيادة مسلميها علي أراضيهم، ستستمر الحرب الي مالانهاية.

والرابع : أن عدم اتخاذ القوي الغربية وعلي رأسها الولايات المتحدة الأمريكية لموقف واضح تجاه البوسنة، سيكون مدمرا. وهناك أربعة أسباب لذلك :

(أ) إذا مااستطاعت الصرب تنفيذ مأربها وخططها واستمرت دون عقاب في «التمشيط العرقي» وطرد مسلمي البوسنة والاستيلاء علي أراضيهم، واذا مرّ ذلك كله دون عقاب، فلنا أن نتوقع انها ـ أي جمهورية الصرب ـ ستنفذ ذلك أيضاً بعد البوسنة في إقليم كوزوڤو ذي الحكم الذاتي و٩٢٪ من سكانه من الجماعة الاثنية الألبانية المسلمة ولنا أيضاً أن نتوقع قريباً مواجهة يونانية ـ تركية حول مقدونيا.

(ب) سيزداد مشاركة دول إسلامية في البوسنة ـ الهرسك وهذا مفهوم وله شرعيته. أما إذا فشلت الدول الغربية في حل المشكلة ووقفت مكتوفة الأيدي والعالم يشاهد أمام ناظريه المذابح والأعمال البربرية ترتكب في حق مسلمي البوسنة، سيصبح من المستحيل حل مشاكل البلقان السياسية بطرق دبلوماسية. وعلينا أن نتوقع تحول عدد من سكان البوسنة الي مناضلين أشداء، وبالمثل لنا أن نتوقع موجة من «الإرهاب» في أوربا الغربية.

(ج) إذا قمنا بحسابات الربح والخسارة لقلنا أن تكاليف التدخل العسكري أقل بكثير من إيواء خمسة ملايين لاجيء الي أوربا الغربية من المنطقة. فاللاجيء الواحد يتكلف عشرة آلاف دولار سنوياً في الغرب أي ٥٠ بليون دولار سنوياً. وقد تصور محرر مجلة «ايسترن يوروب» المتخصصة سيناريو تصعيد حرب البلقان، مما قد يربط البلقان بأحداث ترانسيلڤانيا بسلوڤاكيا، والموقف المتفجر بالفعل في مولدوڤا، والقوقاز وجمهوريات آسيا الوسطي السوڤيتية السابقة، فقال إن هذا سيكلف الغرب مايقرب من ٣٠٠ بليون دولار أو أكثر إذا ماترك هذا السيناريو ليبدأ من البلقان. ويتضمن هذا المبلغ مائة بليون دولار قيمة ديون الشرق، وكذا الاستثمارات الغربية، وبالمثل سيكون هناك تأثير مدمّر علي الاقتصادات الغربية الهشة.

(د) عقم التصريحات والبيانات الرسمية لبعض رؤساء الوزراء ووزراء الخارجية الغربيين، وخاصة بريطانيا فترديد أن البلد الغربي المعني لا يمكنه ان يتدخل عسكرياً ولا أنه يسمح بقتل عدد من قواته أو اصابتهم مقابل الاستقرار الأوربي، هو شيء ـ غير مقبول من الرأي العام العالمي والأوربي ولا هو مقبول حتي من الرأي العام في الدولة المعنية.

ويعتقد كثيرون أن قرار الأمم المتحدة كافٍ، لكنه ينص علي «استخدام القوة لحماية

قوافل المساعدات الغذائية والطبية حتي تصل الي البوسنة». لكن الحقيقة أن هذا القرار سيدخل بدوره في ملف القرارات الأخري، وسيذكر التاريخ أن العالم وقف مكتوف الأيدي أمام الكارثة. فلقد كان الغرب، دائماً، متخلفاً خطوة عن الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش. فقد قام الغرب بالتوصل الي اتفاق وقف إطلاق النار في سلوفينيا في الوقت الذي انتقلت فيه الحرب الي كرواتيا. ثم تفاوضت لتحمي الأمم المتحدة الجيوب الصربية في كرواتيا بالضبط في الوقت الذي وضعت فيه بلجراد كل جبروت آلتها العسكرية لإخماد أنفاس البوسنة ـ الهرسك. والآن تناقش أوربا والولايات المتحدة الأمريكية كيفية تخفيف الحصار عن سيراييڤو، بينما تشمل الحرب كل البوسنة، بل وهي تفعل ذلك بعد أن استولي الصرب علي ٧٠٪ من أراضي البوسنة ـ الهرسك. وهو وضع أخطر بكثير من إستيلاء اليهود ـ الصهاينة علي الأراضي الفلسطينية عام ١٩٤٨.

أنهت الحرب الأهلية اليوغوسلاڤية «الهوس الأوربي» والآمال الكبيرة التي كان يعقدها الأوربيون علي الوحدة والرخاء والسلام بعد سقوط سور برلين والشيوعية في أوربا عام ١٩٨٩. فلقد أمل الغرب والشرق في أوائل عام ١٩٩٠ بتجنب كل الحروب في المستقبل، بعد أن كان أي خلاف في أربعين عاماً من «الحرب الباردة» منذ انتهت الحرب «الساخنة» العالمية الثانية، يهدد باشتعال حرب عالمية ثالثة، نووية هذه المرة، لاتبقي ولاتذر.

لكن هذا السلام كان مشروطاً بشرطين :

الأول : أن تظل مشاغل أمن الدول الأوربية كما هي عليه،

والثاني : أن تستخدم القوة العسكرية في حالة الحياد عن هذا، للاحتفاظ بالموقف والعودة، الي ماكان عليه.

ولكن ... فجرت يوغوسلاڤيا هذين الشرطين. ولو كان ما يحدث في يوغوسلاڤيا الآن قد حدث منذ عشر سنوات، لكانت حالة الطواريء قد رفعت الي الحد الأقصي في كل من «حلف وارسو» و«الناتو» علي السواء. الآن تنقل شاشات التليفزيون في كل أوربا ما يحدث من فظائع وقتل وتعذيب ومعسكرات اعتقال تذكر الاوربيين بفظائع النازي، فلا تحرك النخوة أحداً للتدخل. والدرس قاسٍ لكنه بسيط يمكن فهمه : أن الحروب المحلية ممكنة في «النظام العالمي الجديد»، ويمكن أن تستمر مهما كانت فظائعها، طالما أنها لا تهدد بشكل مباشر المشاغل الأمنية للدول الكبري في أوربا. «فالنظام العالمي الجديد»، و«أوربا الجديدة» و«الآفاق الجديدة بعد سور برلين» وكل هذه الكلمات البراقة والرؤي الجميلة لعالم مابعد الحرب الباردة خانها نفس السياسيين الذين باعوها لناخبيهم منذ عام ١٩٨٩. وهكذا أصبح موقف السياسيين واضحاً : الأسف والأسي علي مايحدث ليس أكثر. تدفق اللاجئين هرباً من مناطق الصدام، فأبدت الحكومات الأوربية دهشتها من كثرة عددهم ! بل ان الحكومة البريطانية أعادت بعضهم. ولقد كانت الفظائع التي كشف عنها النقاب

الأسبوعين الأول والثاني من أغسطس هي جزء لايتجزأ من الحرب الأهلية اليوغوسلافية منذ بدأت.

فالحكومات الغربية - حتي الآن - تركز علي علاج أعراض الصدام وليس علي أسبابه التي تعرفها جيداً. والي جانب هذا فالتركيز علي حماية اللاجئين وصور دخول قوافل المساعدات الغذائية والطبية للأمم المتحدة تحت النيران واختراق سيراييڤو «المحاصرة»، علي شاشات التليفزيون تمس شغاف قلوب المشاهدين، وهي بالمثل إغاثة الملهوف التي هي حاجة عاجلة. وكل هذا يعطي الانطباع بأن الغرب استجاب.

ولاشك أن الصرب الذين لايرغبون علي الإطلاق في تدخل عسكري غربي، سيسمحون «لقوافل الرحمة» ان تصل الي المحاصرين. أما مسلمو البوسنة - الهرسك الذين يرغبون بشدة في تدخل الغرب لانقاذ بلادهم، فلا شك سيصابون بخيبة أمل عندما يكتشفون وعود الغرب في النهاية التي ستنتهي الي ... لا شيء ! لكن هناك نقطة هامة. فليست العاصمة سيراييڤو وحدها هي التي ينبغي وصول المعونات اليها ولكن معظم مدن البوسنة التي يسيطر عليها الصرب. هناك مدينة جورازده علي سبيل المثال ومدن في الجنوب. لكن لأن الغرب لا يريد «الانغماس» في الصراع حتي بالمعونات، فلا شك انه سيرفض طلب مسلمي البوسنة بتوسيع المعونات. هنا يبدأ شعور المسلمين بخيانة الغرب.

واذا أخذنا تصريحات السياسيين الغربيين في اعتبارنا، فهي لا تزيد عن أقوال مثل «لا يمكن أن نسمح للعدوان بأن يتحقق وينجح»، و«لابد من عقاب الصرب». ان هذه العبارات ليست اكثر من رد فعل متوازن لتأنيب الضمير والجهل بالحقائق عن الوضع في البلقان. فالحرب في يوغوسلافيا ليست صراع حياة أو موت بين «الشر والخير» أو بين «الشيوعيين والديموقراطيين» أو بين «الدكتاتورية والديموقراطية» أو بين المسيحيين والمسلمين. إنها صدام عوامل عديدة متشابكة متداخلة متراكبة : تاريخية، وقومية، وعرقية، وإثنية، ودينية، واقتصادية، وإقليمية، وخلاف علي أراضٍ ومناطق. والأفضل تناولها بالحكمة ووضع حلول نهائية. فحتي التدخل العسكري الشامل المطلوب لن يمنع الانفجار المتوقع بين ألبان كوزوڤو والصرب، أو اندلاع الصدام مرة ثانية بين الصرب والكروات. وحتي في حالة انهزام الصرب فلن يكون لديهم سبب لقبول حل وسط مع جيرانهم أو مع الأقليات العرقية التي تعيش بينهم، ويتطلب الأمر آنذاك معالجة خاصة بطريقة أخري.

وعلينا هنا التأكيد علي نقطة هامة فإذا كان التدخل الرادع مطلوباً لانقاذ البوسنة - الهرسك، وللوصول الي أهداف سياسية واضحة، قصيرة المدي، فإن الصدام لن يكون له حلول سياسية فورية. والتأكيد هنا ينبغي أن يكون علي ضرورة حل المشكلة حلاً شاملاً.

**

هناك خياران :

الأول : هو التمسك بمبدأ انه لاينبغي السماح للمعتدي بأن يفلت ويحقق أهدافه بنجاح. وهذا يعني إرجاع أراضي كل البوسنة ـ الهرسك الي أهلها ـ مسلمين وكروات ـ لتكون لحكومة سيراييفو السيادة والسيطرة عليها كلها، ويتطلب هذا قوات عسكرية غربية ارضية وليس «الضربات الجراحية» المقترحة.

والثاني : الاعتراف بالأمر الواقع الحالي وهو ضياع ٧٠٪ من أراضي البوسنة واستيلاء الصرب عليها، وبذلك يكونون قد نفذوا أهدافهم بالضبط كما وصفوها قبل العدوان، فسيكون المطلوب من الغرب آنذاك المساعدة في إعادة رسم الحدود بهدف «تأسيس» دولة اسلامية تتكون من جيب صغير حول العاصمة سيراييفو، لا تزيد مساحتها عن ٣٠٪ من جمهورية البوسنة ـ الهرسك.

لكن المتوقع من النفاق السياسي الغربي أن يستمر : فيدان العدوان والمعتدون الصرب، بينما تقبل نتائج العدوان. وحقيقة الأمر ان هذا تسليم بالعدوان في جوهره وليس طريقاً ثالثاً كما قد يتخيل البعض. انه طريق لتغطية العُرى الأوربي بورقة توت لا أكثر ..

١٧ اغسطس ١٩٩٢

مؤتمر لندن
(١) تمهيد لاعتراف المجتمع الدولي بالوضع القائم؟!

غضب العالم كله علي شراسة الصرب ووحشيتهم ضد المسلمين. لقد أزالوا قري بأكملها من علي الخريطة، وحولّوا مليوناً من أهالي البوسنة ـ الهرسك معظمهم من المسلمين، والكروات الي لاجئين.

لكن الصرب رغم، غضبة العالم ضدهم، كسبوا صربهم في البوسنة.

فنتيجة لسياسة «التمشيط ـ العرقي» الصربية هناك الآن شريط من الأرض يمتد ٣٠٠ كيلو متر من بلجراد عاصمة الصرب، وحتي مدينة بيهاك التاريخية في البوسنة، وبهذا تحول حلم «الصرب الكبري» إلي حقيقة جيوسياسية. وقد وافق برلمان «الجمهورية الصربية في البوسنة ـ الهرسك» علي قرار بالواقع السياسي الجديد، فقد أعلن التحالف مع يوغوسلافيا ـ الجديدة ـ الثالثة، المكونة من الصرب والجبل الأسود، مع استبعاد المسلمين والكروات من أراضيها تماماً. وصرح بهذا رئيس هذه «الجمهورية» رادوفان كارادزيتش !

ولا أحد استطاع أو يستطيع أن يقف أمام الاعتداء الصربي . أما صور «معسكرات الموت» والجوعي والمرضي من المسلمين فقد استفزت «المشاعر الرقيقة» في الغرب، ولكن ليس إلي الدرجة التي تجعله يهب لنجدة البوسنة، فلم يكن رد الفعل اكثر من قرار لمجلس الأمن بتفويض الأمم المتحدة باستخدام القوة... لتقديم المساعدات الانسانية للبوسنة. لكن

لم يتخذ أي قرار باستخدام القوة العسكرية لحماية توصيل هذه المساعدات، أو من الذي يقوم بهذا. ولم يذكر القرار شيئاً عن إيقاف العدوان الصربي علي مسلمي البوسنة، ولا عن إيقاف «التمشيط العرقي» ولا عن «معسكرات الموت». لا شيء ! أما القرار الثاني فهو يدين «التمشيط العرقي»، ولكنه لايذكر شيئاً عن محاكمة مجرمي الحرب الذين قاموا بهذه العمليات !

وهكذا تمخض الجبل فولد فأراً!

الحقيقة الواضحة للعيان أن الغرب وقف مكتوف الأيدي و٧٠٪ من أراضي البوسنة بين أيدي صربها الذين يشكلون أقل من ٣٥٪ من سكانها. «فالتمشيط العرقي» إذن ليس سبب هذه الحرب وإنما هدفها.

كيف استطاع الصرب تحقيق هذه النتيجة وبسرعة؟

أولاً عدم استعداد المسلمين قبل إعلان الاستقلال الاستعداد الكافي. ثم سكوت الغرب إذا أردنا أن نقولها بأدب، وخيانة البوسنة اذا أردنا أن نقولها صراحة. ثم خطة القيادة السياسية في جمهورية الصرب بزعامة الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيڤيتش بمعاونة الجيش اليوغوسلافي. كانت الخطة ذكية غاية في الذكاء، وبسيطة في ذات الوقت : فتحت غطاء الصدام القومي - العرقي يتم الاستيلاء علي أكبر مساحة من أرض البوسنة، وعندما يتيقظ العالم يكون الأمر قد انتهي، واعتمد علي الدعاية وعلي السلاح الذي وزعه الجيش علي الصرب، وكان علي صرب البوسنة إرهاب المسلمين ونشر الذعر بينهم ليهربوا بجلودهم، وقتل عدد منهم وسجن وتعذيب الباقي في معسكرات الاعتقال.

كان جزء من هذه الدعاية موجهاً إلي صرب البوسنة. فقبل أن يشتعل القتال في شهر ابريل ١٩٩٢، بدأ تليفزيون بلجراد - الحكومي - الصربي - يوجه أخباره بطريقته الي بيوت صرب البوسنة. كان التليفزيون - الصربي البلجرادي يطلق علي المسلمين : «الأصوليون الاسلاميون» و«المتعصبون» و«الخمينيون»، و«أرهابيو العالم» وادعي أحد التقارير أن مسلمي البوسنة قد ألقوا بأطفال الصرب طعاماً للحيوانات المتوحشة في حديقة حيوان سيراييڤو. وكانت صحف بلجراد التي توزع في البوسنة ويقرأها الصرب وغيرهم، تنادي «بالتمشيط العرقي» مبررة إياه. وعندما بدأت «بوليتيكا» تتخذ موقفاً موضوعياً عن تغطية الحرب، قدم الرئيس سلوبودان ميلوسيڤش مشروع قرار للبرلمان الصربي بتأميم المؤسسة بأكملها.

وكانت القيادة الصربية بزعامة ميلوسيڤيتش تريد تحقيق هدفها دون مشاركة مباشرة من بلجراد التي كان عليها أن تدعي أنها تقف علي الحياد في هذه «الحرب الأهلية». كان «الجيش الوطني اليوغوسلافي» لايقرّ باستقلال جمهورية البوسنة - الهرسك الذي أعلنته آنذاك. وحتي منتصف شهر مايو ١٩٩٢ كانت قواته المعسكرة في البوسنة تنسق مع

ميليشيات صرب البوسنة، الهجمات علي المسلمين والكروات. كانت الميليشيات تدعي أنها تعمل بشكل مستقل عن بلجراد وأنها لا تتلقي آية أوامر منها.

وعندما أعلن عن تشكيل يوغوسلافيا - الثالثة، استدعت الجيش من البوسنة، فترك مخلفاً وراءه ٣٠ ألف صربي انضموا إلي الميليشيات، كما ترك مخازن أسلحة ومعدات ومدفعية ودبابات ومنصات لاطلاق صواريخ - متعددة، وصواريخ أرض - أرض. وجسرا جويا لنقل هذه الأسلحة من بلجراد دون توقف عبر الأراضي الصربية المستولي عليها من مسلمي البوسنة، مباشرة إلي مدن مثل دوبوي وبانيالوكا. وكانت هذه الأسلحة كافية لكسب معارك أكبر من معركة البوسنة بكثير. هكذا وفرت الصرب الجنود المدربين والأسلحة الأكثر من كافية. وتولت عصابات صرب البوسنة والمجرمين وقطاع الطرق العملية بعد انسحاب الجيش، لأن هؤلاء يرتكبون الفظائع والجرائم بالشكل المطلوب، ربما أفضل من الجيش النظامي، دون تحمل مسئوليتها. وقد شاهد مراسلون غربيون بالفعل شحنات من هذه الأسلحة وهي تفرغ من الطائرات.

وساند في قيادة ميلوسيفيتش منذ البداية المجموعات والمنظمات والأحزاب السياسية لصرب البوسنة التي تحمل سمات عسكرية، منذ بداية نشأتها، وعلي رأسها «حركة الشيتنيك الصربية» وقد لعب الدكتور رادوفان كارادزيتش، وهو طبيب نفسي وزعيم «الحزب الديموقراطي الصربي» بالبوسنة، لعب دوراً هاماً في التنسيق لتنفيذ خطط قيادة جمهورية الصرب. وكان يسافر أسبوعياً من مدينة پيل معقله الجبلي خارج سيراييڤو، إلي بلجراد لمقابلة ميلوسيفيتش.

* * *

هكذا أصبحت الأرض ممهدة للوصول إلي اتفاق يقر الأمر الواقع، بضياع البوسنة، من خلال مؤتمر لندن الذي تقرر عقده الأربعاء ٢٦ اغسطس (١٩٩٢).

٢٣ اغسطس ١٩٩٢

(٢) وهل يعترف «المجتمع الدولي» بما استولي عليه المعتدي؟

يجتمع الأربعاء ٢٦ اغسطس خمسمائة دبلوماسي من جميع أنحاء العالم بلندن «للبحث عن صيغة سلام لما كان يوغوسلافيا». لكن أى سلام؟ هل يقنن المجتمع الدولى مانهبه الصرب من أراضى البوسنة - الهرسك فيسود السلام؟ أم يدين المعتدى الصربى، ويعيد الحق إلى أصحابه ؟

إن الصرب لم يتوقفوا عن عمليات «التمشيط العرقى» فى جمهورية البوسنة - الهرسك التى لاحول لها ولا قوة. والعالم «المفجوع» مازال يتفرج على خيانة الغرب. وهذا يشجع الرئيس الصربى - القومى المتطرف سلوبودان ميلوسيفيتش على القيام بنفس هذه العملية

ضد ألبان كوزوڤو رغم أنهم يشكلون ٩٠٪ من سكانها، وضد مجريي ڤويڤودنيا التابعة أيضاً لجمهورية الصرب، لكن امتداد العمليات الى هاتين المنطقتين يشكل خطورة أخرى لم تكن ماثلة فى البوسنة، ألا وهى امتداد الصراع القومى ليشمل أطرافاً ودولاً أخرى فى المنطقة.

استمرت الميليشيات الصربية فى فرض الحصار على سيراييڤو وضربها، وشددت من حصارها بيهاك شمال - غربى البوسنة، وآخر معاقل المسلمين خارج عاصمة البوسنة سيراييڤو. وقصفت ثكنات الماريشال تيتو التى تقيم بها قوات حفظ السلام الدولية وكذا مبنى يقيم به اللاجئون.

وبعد الكشف عن «معسكرات الموت» الصربية و«التمشيط العرقى» لتفريغ مناطق كاملة من سكانها المسلمين، قدم قادة صرب البوسنة بعض «التنازلات» لتحسين صورتهم عند حضورهم «مؤتمر لندن الدولى»، وتقديم أنفسهم على أنهم «أوروبيون متحضرون» فسمحوا لعدة مئات من اللاجئين المسلمين بترك العاصمة، وسمحوا لقافلة إغاثة أن تصل إلى مدينة جورادزه، ووقعوا إتفاقاً لوضع كل الأسلحة الثقيلة فى منطقة سيراييڤو تحت إشراف الأمم المتحدة، ثم لم يقدموا أى قائمة بهذه الأسلحة التى تقصف العاصمة. واقترح زعيم صرب البوسنة الدكتور رادوڤان كارادزيتش إطلاق سراح مئات آلاف المدنيين المسلمين الذين اعتقلوا فى معسكرات الموت التى كشفت أسرارها أمام العالم، على أساس أن تكون الأمم المتحدة هى المسئولة عنهم. فقال مكتب اللاجئين بزغرب «هذه عملية ابتزاز لأن معناها تنفيذ السياسة الصربية للتمشيط القومى» بإعادة تسكين هؤلاء اللاجئين الذين أخذوا بيوتهم وأحرقوا منازلهم واستولوا على كل مايملكونه».

لقد حققت الصرب خطتها وهى تريد أن يوافق عليها المجتمع الدولى ويقننّها. فحتى الآن لم تقدم أية حكومة غربية أو إسلامية خطة لمواجهة سلوبودان ميلوسيڤيتش، وروجت حكومات الغرب استحالة القيام بعملية عسكرية ضد الميليشيات وضد جمهورية الصرب. وحقيقة الأمر أنها لاتريد التدخل، فليس لها مصلحة فى الدفاع عن حرية البوسنة - الهرسك. وحتى اللاجئين من جحيم الحرب الأهلية لم يقبل منهم الغرب سوى عدة آلاف ، ووقف فى وجه الباقى، لتبييض الوجه.

٣٠ أغسطس ١٩٩٢

(٣) جاءوا ... واجتمعوا ... وتحدثوا !

لم يجرؤ الغرب على ذكر كلمة «السلام» عند دعوته لمؤتمر لندن، الذي شارك فيه أربعون وفداً تمثل المنظمات الدولية والدول الغربية، ويوغوسلاڤيا والجمهوريات اليوغوسلاڤية

السابقة. وتمرأسّ المؤتمر الدكتور بطرس بطرس غالي سكرتير عام الأمم المتحدة ورئيس الوزراء البريطاني جون ماجور بصفته رئيساً «للجماعة الأوربية» في الأشهر الستة التي تنتهي في أواخر ديسمبر ١٩٩٢. ولم تَبْدُ أي بادرة تشير إلي أن الدبلوماسية الغربية ستتصرف بشكل يختلف عن تصرفها الذي سبق، في قضية استقلال البوسنة ـ الهرسك.

وافق زعيم صرب البوسنة الدكتور رادوفان كارادزيتش علي أن يبلغ الأمم المتحدة بمواقع الأسلحة الثقيلة، وأن يضعها تحت إشرافها، واتفق كذلك علي أن تجتمع أطراف النزاع في جنيف، الأسبوع القادم، حيث تستمر الاجتماعات ثم تنفض الي مالانهاية.

كل مااتفقوا عليه في لندن

* أن الأراضي التي تم الإستيلاء عليها بالقوة لايمكن أن يحتفظ بها المعتدي بالقوة،
* وأن دولة البوسنة ـ الهرسك موجودة، ومعترف بها !

وحقيقة الأمر أن مجرد هذا القول في حد ذاته مفيد. فالبوسنة لم تضيِّع كلها، ومازالت العاصمة علي الأقل وماحولها في أيدي المسلمين، ولم تستطع الصرب انتزاعها.

لكن المؤتمر لم يتقدم خطوة بعد ذلك لحل المشكلة، بل علي العكس تماماً، لقد أعطي «ضوءاً أخضر» للمعتدين الصرب لكي ينهوا مهمتهم ويستكملوا خطتهم المرسومة

المطلوب هو تسليح البوسنة،

المطلوب هو أن يعطي العالم الفرصة لمسلمي البوسنة كي يدافعوا عن أنفسهم، وأن يحتفظوا علي الأقل بما تبقي لهم من أرض، والسماح لهم في أن يقاتلوا هم أنفسهم لاسترداد الأراضي التي أخذت منهم بالقوة. ليس مطلوباً أن نحارب من أجلهم، فهم علي استعداد للقتال. المطلوب أن نوفر لهم الأسلحة التي يقاتلون بها من أجل حقوقهم.

وفي مقابلة لرئيس البوسنة ـ الهرسك، علي عزت بيجوفيتش ذكر صراحة :

* «أن مؤتمر لندن لم ينجز إلا أقل مما كنا نأمل ونتوقع»،
* «وأن الغرب ليس لديه الارادة السياسية الكافية لفرض اتفاق»،
* «وأننا نشعر أن الغرب قد خاننا. وهي ليست خيانة آمالنا، ولكن خيانة الغرب لنفسه، لمبادئه. وانه لمن حسن الحظ أن الغرب لم يتردد بنفس الطريقة في بداية الحرب العالمية الثانية، وإلا لما دخلوا الحرب، ولكنا الآن في ظل حكم النازي».
* «أن الصرب لم يستولوا علي ٧٠٪ من أراضي البوسنة، بل علي أكبرمن ٥٠٪ منها بقليل. لكنهم فقدوا الحرب السياسية في بلدنا وفي العالم علي السواء. وفقدوا الحرب الأخلاقية بالمثل لما أرتكبوه ضدنا من فظائع وجرائم بشعة اهتز لها العالم. أما من الناحية العسكرية فنحن مكتوفو الايدي لأننا لا نملك السلاح، لكنهم مكتوفو الايدي نفسياً».

وهنا يسأله المراسل : لو انتهت الحرب الآن، فهل يمكن أن يعيش المسلمون والصرب والكروات جنباً إلي جنب في البوسنة، في أخوة، رغم ماحدث في الحرب؟

فيجيبه علي عزت بيجوفيتش :

«كان هدف رادوفان كارادزيتش (زعيم صرب البوسنة) من هذه الحرب هو ضرب هذه الحياة المشتركة في البوسنة، فقد عشنا معاً في وئام لمئات السنين، و٨٠٪ من أراضي البلاد يقطنها خليط قومي من المسلمين والصرب والكروات وقوميات أخري. وكنا نعتبر هذه إحدي مميزات البوسنة ـ الهرسك، وهي لاتزال كذلك إذا نظرنا إليها من القرن الواحد والعشرين . أما بالنسبة لهؤلاء الذين ينظرون إليها من «القرون الوسطي» الهمجية، فهي ليست ميزة وإنما العكس، وهذا هو سبب قيامهم بـ «التمشيط ـ العرقي». لقد زرعوا الكراهية، وقتلوا الناس، وفصلوهم عن بعضهم البعض، لإقناع العالم أجمع أن حياتهم المشتركة معاً، مستحيلة. وللأسف نجحت سياستهم إلي حد كبير، وكثير من الشرفاء يتشكك الآن في إمكانية الحياة معاً. والمتعلمون والمثقفون الذين لديهم المعلومات الكافية عن حقيقة مايحدث مازالوا يؤمنون بأن الحياة المشتركة ممكنة. وهذا يعطينا أملاً فيها في المستقبل».

«اعتقد أن أوربا صدمت بما حدث في البوسنة ـ الهرسك وقد صدمت أساساً بالشمولية الصربية. وأريد أن أؤكد أن الشر الذي نحن ضحاياه هو من أصل أوربي إلي حد كبير، فهو خليط من الفاشية والاشتراكية، من مواليد أوربا. أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، فإن منطقتنا ليست من أولي اهتماماتها، وهذا هو أحد أسباب المأساة».

«أعتقد أنه من الممكن تجنب الحرب إذا ماطبقت قرارات مؤتمر لندن، وهذا ماأشك فيه. ولكنني متفائل وأقول ان «الجماعة الدولية» لم تتخذ قرارها الأخير بخصوص التدخل العسكري. وقد قامت بقرارات مؤتمر لندن بمحاولة أخيرة لمنع تدهور الوضع. ولكنها لم تستبعد، إذا لم توضع الإتفاقيات موضع التطبيق، إمكانية التدخل للقيام بعملية عسكرية».

٤ اكتوبر ١٩٩٢

هل يتحالف الكروات مع المسلمين؟

بدأت الأسلحة والأموال تتدفق علي جمهورية البوسنة والهرسك من عدة مصادر، وعن طريق البر والبحر والشاطيء الأدرياتيكي. كذلك وصل متطوعون من عدة بلدان إسلامية، من بينهم عدد من المجاهدين الأفغان الذين بدأوا بدورهم تدريب مسلمي البوسنة.

وبدأ الغرب يدرك بعد أن رفض التدخل العسكري، ان بإمكان مسلمي البوسنة، إذا ما أمدّوا بالسلاح، أن يتقدموا بخطوات سريعة نحو استعادة أراضيهم المغتصبة إذا ما استمر تعاون المسلمين والكروات.

ويتوقع المراقبون أن يؤدي الهجوم العسكري الذي تقوم به قوات البوسنة مؤيدة في

بعض المناطق بالقوات الكرواتية، أن تحقق البوسنة كثيراً من المكاسب وتنتزع بعض أراضيها من الصرب. ومن الناحية العسكرية، فإن المواقع الصربية قابلة للإختراق، لأن الاستخبارات والتخطيط الصربيين فقيران. فقد غاب عن ذهن المخططين الصرب أن معظم مسلمي البوسنة الذين كانوا من «العمال الضيوف» في المانيا وغيرهم هم في سن التجنيد، وان القيادة العليا لجمهورية البوسنة ـ الهرسك تحت تصرفها الآن مائة الف متطوع يجري تدريبهم لإسترجاع الأراضي التي استولي عليها الصرب، وطردوا منها أهلها.

أكدت تقارير صحفية من منطقة جورادزي أن القوات البوسنية المحلية، وفي مقدمتها وحدة ممتازة التدريب مؤلفة من ٣٥٠٠ رجل قد كسرت الحصار الصربي للمدينة. وزيادة علي ذلك أكدت هذه التقارير بأن قوات الميليشيات الصربية انسحبت خلال ساعات في رؤيتها بذات الميدان وخوذات تلك الوحدة البوسنية.

والسؤال الآن مع أي جانب تقف القوات الكرواتية؟

لقد تعقّد الهجوم العسكري البوسني في العاصمة سيراييڤو الذي شن لفك الحصار الصربي، بسبب التحركات المبهمة للكروات. علي أن الأمور أصبحت أسهل بالنسبة لمسلمي البوسنة بعد تلقيهم أسلحة من تركيا في معظم الأمر بمساهمة دول إسلامية أخري، وكذلك من ايران. وقد كان من الممكن للمسلمين شن هجوم مضاد منذ أسابيع إذا ماتعاونت معهم القوات الكرواتية HVO، لكن الأخيرة رفضت المشاركة في هجوم مضاد إلا بعد الوصول الي نوع من الاتفاق السياسي مع قيادة البوسنة السياسية. وهكذا وقفت القوات الكرواتية تراقب الحرب الضارية من جبال سيراييڤو عند شتوبا وكيشيليال، رغم أنها تلقت مؤنا من الغذاء والسلاح. وقد رفضت قيادة «قوات الدفاع الاقليمي البوسنية» .B.H.T.O مشاركة القوات الكرواتية في القيادة العسكرية. لذا من المتوقع أن تنهار بين وقت وآخر ترتيبات التعاون بين الجانبين التي اتفق عليها في نهاية اغسطس الماضي ١٩٩٢. وتلوم القيادة الكرواتية ـ الرئيس علي عزت بيجوڤيتش لأنه وثق أكثر من اللازم في ضمانات «الجماعة الأوربية» ووعود الولايات المتحدة الأمريكية.

ومشكلة الرئيس بيجوڤيتش الآن أن قوات المسلمين مبعثرة ليس بينها تنسيق، سواء في سيراييڤو أو توزلا أو زنيكا. وتحارب قوات المسلمين في بعض المناطق الأخري إما الي جانب الوحدات الكرواتية أو في وحدات مختلطة معها مثلما هو الحال في بوساڤينا ومثلث كازيه في أقصي شمال غرب البوسنة ـ الهرسك.

انضم عدد كبير من المقاتلين المسلمين الي الجناح العسكري «لحزب الحقوق الكرواتية» HOS في البوسنة، علي انه تجري تحركات واضحة في من كل جمهورية كرواتيا وجمهورية البوسنة ـ الهرسك لاعتبار هذه الميليشيا غير قانونية وتصفيتها، وكان قائد HOS الاسترالي المهاجر من أصل هرسكي بلاز كراليڤيتش وقد قتل في معركة شرسة مع

ثمانية من حرسه الخاص بالقرب من مدينة سوستار في شهر اغسطس ١٩٩٢ الماضي. ويمكن أن تتحول هذه القوات بسرعة الي «القوات الاسلامية المسلّحة» MOS لتكون جناحاً مقاتلاً راديكالياً، وإن كانت هذه القوات تطالب الرئيس بيجوفيتش بإعادة تنظيم قواته لتواجه الحرب الدائرة بكفاءة.

وهناك علامات متزايدة علي نمو التعاون بين حكومة الرئيس بيجوفيتش وبين حكومة جمهورية كرواتيا. إذ افتتحت سفارة للبوسنة في العاصمة الكرواتية زغرب، وكذلك قنصلية لها في سبليت، وتحولت زغرب الي قاعدة عمل لبعض وزراء حكومة البوسنة - الهرسك. والمشكلة السياسية أن كروات البوسنة، وعلي رأسهم ماني بوبان زعيم المنطقة الكرواتية التي أعلنت نفسها «كرواتية» في داخل البوسنة، يطالبون بتمثيل متساوٍ للمسلمين في حكومة الرئيس بيجوفيتش ثمناً للتحالف. ويشك المسلمون شكاً كبيراً في ماني بوبان ونواياه.

وقد لعب الفاتيكان دوراً في إرساء التعاون بين كرواتيا البوسنة، وتم ذلك من خلال تركيا. ففي منتصف شهر أغسطس الماضى ١٩٩٢ زار المبعوث البابوى الخاص الكاردينال الفونس روجيه اتشجارى كلاً من زغرب وسيراييڤو (*).

والآن ماهى خطة المعركة التى يقودها المسلمون؟

تعتمد الخطة العسكرية على المساعدة العسكرية الكرواتية، وأيضاً على تنفيذ الصرب لقرار الأمم المتحدة بوضع مدفعية الصرب التى تحاصر سيراييڤو تحت سيطرة قوات الأمم المتحدة، وتتلخص الخطة إجمالاً فيما يلى:

أولا : محاولة استعادة وادى زينيكا ووادى توزولا من الصرب.

ثانيا : كسر حصار الصرب لبيهاك شمال غرب البوسنة - الهرسك بفتح ممر من الشمال.

ثالثا : كسر حصار الصرب لسيراييڤو والسماح لعدد من مواطنيها بالتحرك فى اتجاه توزولا وزينيكا.

رابعا : الاستيلاء على الوادى بين توزولا ومدينة دوبوى فى الغرب ليحدث اتصال مع القوات الكرواتية HVO المتقدمة من منطقة سلاڤونسكى برود فى الشمال، ليتم قطع الممر الصربى شرق/غرب المهم للغاية استراتيجياً.

(*) تعايشت الكنيسة الكاثوليكية مع الامبراطورية العثمانية خلال خمسة قرون من حكمها للبوسنة والهرسك. وكانت طائفة «الفرنسيسكان» متوطدة بعمق فى الهرسك كلها وفى وسط البوسنة وغربها منذ نهاية القرن الثالث عشر حتى يومنا هذا. وتهب هذه الطائفة نفسها للعمل العام، وبذلك أصبحت قوة سياسية فى البوسنة. ومنذ بداية الحرب وهم ينادون بخطة فيدرالية ضد «الكانتونات» التى نادى بها الصرب.

خامساً : الإحاطة بمدينة زفورنيك، ثم مدينة فيسيجراد، ثم فوكا، الواقعة شرقي البوسنة ـ الهرسك، وبالترتيب المذكور. وذلك لإجبار الميليشيات الصربية على التحرك شرقاً أو الاستسلام. بهذه الطريقة يقطع وصول الصرب إلى المناطق الشرقية عدا منطقة بييسلينا فى أقصى شمال شرق البوسنة ـ الهرسك.

وتفترض هذه الخطة ثلاث نقاط غير مؤكدة:

الأولى : تنسيق العمليات مع القوات الكرواتية فى البوسنة ـ الهرسك على الجانب الشمالي لمنخفض بوسافينا.

والثانية : تعاون كروات البوسنة فى المنطقة التى أعلنت نفسها «كرواتية» تحت زعامة ماني بوبان.

والثالثة : وتفترض أخيراً تنفيذ الصرب لقرارات الأمم المتحدة دون مداراة.

* * *

ولا شك أن طرق إمداد الجيش اليوجوسلافى وقوات الميليشيات الصربية بتدمير بضعة جسور على أنهار سافا ونيريتنا ودرنيا سيؤدى إلى ضرب العمليات العسكرية الصربية، خاصة وأن المؤن الغذائية والذخائر بدأت تتناقص. وإذا تم حصار مسرح الحرب فى البوسنة ـ الهرسك، فسيعنى هذا أيضاً إغلاق المناطق الكرواتية ـ فى كرواتيا نفسها ـ التى يسيطر عليها الجيش وهى المناطق التى تحميها الأمم المتحدة.

رفعت قيادة قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة تقارير يائسة تقول أن الصرب لاينسحبون من تلك المناطق، ولا يريدون تسليم سد ومحطة توليد كهرباء «بيروكا»، ولا جسر «ماسلينيكا» فى جزيرة «زادار» الواقعة أمام شاطئ الأدرياتيكي. ومعنى هذا أنه لابد وأ تقوم قوات الأمم المتحدة باستخدام القوة إذا لم تنفذ الميليشيات الصربية الاتفاق فى مواعيده المحددة. ويمكن لقوات الأمم المتحدة أن تبدأ عملياتها بإصدار أوامر للميليشيات الصربية المسلحة بالانسحاب بما يطلق عليه «المناطق البمبية Pink Zones ، وكان ذلك الانسحاب مقرراً ان يتم فى ابريل ١٩٩٢. وحتى الآن لم تفعل قيادة قوات الأمم المتحدة شيئاً سوى توجيه اللوم لقوات الجيش الكرواتى HVO لمحاولته استعادة جزء من تلك المناطق فى دلماسيا، والمفروض ان تعود كل هذه المناطق للسيطرة الكرواتية «جمهورية كرواتيا » طبقا لاتفاق سيروس ڤانس.

وسيكون على قوات الأمم المتحدة أن توقف عمليات نهب المحاصيل، وأن تمنع قوات الجيش اليوجوسلافى من ضخ آبار النفط فى سلافونيا الشرقية وبارانيي. وكانت القوات الكرواتية [التابعة لجمهورية كرواتيا] قد تمكنت من فك بعض الأجزاء الهامة من معدات الحفر وأنابيب تجميع البترول.

كذلك على قوات الأمم المتحدة أن تمنع مرور القوات والمؤن الصربية بين مقاطعة كينين

وبين البوسنة الغربية. وقد يؤثر هذا إلى حد ما على رجال المقاومة من مسلمى البوسنة فى مثلث كازين بأقصى شمال ـ غربى البوسنة ـ الهرسك، لأنهم يشترون السلاح الآن، بل وحتى المدفعية، من صرب كينين الفقراء الساخطين المحاصرين.

الطريق إلى سيراييفو

قام جدل فى الغرب حول الحاجة إلى عشرات الآلاف من القوات لتأمين ممر ـ أو عدة ممرات ـ لعبور قوافل المساعدات الانسانية إلى البوسنة ـ الهرسك. وحقيقة الأمر أنه جدل عقيم. إذ قام الكروات سراً عام ١٩٩١، بإعادة بناء طرق غير مستخدمة فى البوسنة، وأعدوا بذلك طريقاً يربط كل المسافة من ميناء سبليت عبوراً إلى ليفنوا ثم إلى ليشيلياك على مشارف سيراييفو تماماً. بل ولهذا الطريق فرع آخر إلى الغرب يصل إلى مشارف مدينة زينيكا. ورغم أن هذا الطريق ضيق وملتوٍ، إلا أنه يستخدم يومياً لمرور قوات الأمم المتحدة، ويستخدمه أيضاً اللاجئون، والمراسلون والصحفيون الأجانب، ومهربو السلاح، بل وتستخدمه قوافل مساعدات من منظمات شعبية دولية. ولا يتطلب إصلاح هذا الطريق إلا جهداً قليلاً. هناك أجزاء ترابية منه، كذلك هناك بعض الجسور المهملة أو المنهارة جزئياً.

ويمتد الطريق من سبلبيت ويمر بتريللى وليفنو وكوبريرس، وبوجونيو، وجودتى، ودوثى ڤاكوف، وتراڤنيك، وكاونيك، وڤيسوكو، ثم يصل إلى سيراييفو (انظر الخريطة المرفقة). ولا يتعرض لهجوم الجيش اليوجوسلاڤى سوى ١٥ كيلومتراً من هذا الطريق. لكن هناك مشكلة صغيرة يمكن حلها وهى أن كروات البوسنة غير مرتاحين لاستخدام المسلمين لهذا الطريق الحيوى الآن، لأنهم لم يشاركوا فى مد هذا الطريق عندما طلب منهم ذلك، خاصة وان ذلك حدث اثناء القتال الدائر.

كروات البوسنة ـ والهرسك

يتحكم كروات البوسنة ـ الهرسك فى الجزء الأكبر من مثلث، قاعدته هى كل جنوب الهرسك تقريباً، ويمتد شرقاً إلى تريبينى، ثم يعود الضلع الثالث من المثلث إلى نيريتڤا ونيڤيتشى، أما قمته فبالقرب من زينيكا. وتسيطر على هذا المثلث القوات الكرواتية HVO وكان ضلعا هذا المثلث تحت هجوم قوى ومتجدد من الجيش اليوجوسلاڤى براً وجواً فى الأسابيع الماضية. ورغم أن مواقع القوات الكرواتية تمتد فى خط رفيع للغاية على امتداد جبهة طولها خمسمائة كيلومتر إلا أنها تستطيع الوقوف فى وجه قوات الجيش، خاصة بعد وصول كمية من الأسلحة والعتاد.

والمسئول الكرواتى الجديد عن مكتب الاتصال مع قوات الأمم المتحدة هو المقاتل ڤلاديمير سيكس. وهو يقترح أن تتحدى قوات الأمم المتحدة الصرب مطالبة إياهم بإظهار التعاون الذى يدعونه، وأن يسمحوا لقوات الأمم المتحدة بالحركة على ممر ثانٍ من كرواتيا ثم عبر الأراضى التى يسيطرون ـ أى الصرب ـ عليها فى بوسافينا، إما من كارلوفاتش

إلى بوزانسكى نوفى، أو من سلافونسكى برود ثم عبور آخر جسر ضيق عبر نهر سافا إلى بوزانسكى برود وزينيكا وسيراييفو. والمؤكد أن القيادة الصربية ستقول أنها لاتسيطر على الميلشيات الصربية المحلية. فى هذه الحالة لابد وأن تستخدم قوات الأمم المتحدة، القوة خاصة وأن هناك تفويضاً باستخدامها من الأمم المتحدة لحماية قوافل الإغاثة.

وهناك أهداف صربية واضحة أمام الهجوم المضاد لقوات المسلمين وهى الجسور الواقعة على نهر درينا، لقطع خطوط تموين الصرب وكذلك عدد من المنشآت العسكرية وتحصينات الجيش اليوجوسلافى على الرغم أن الجيش نقل مصنع أسلحة متطور من هذه المنطقة إلى جمهورية الصرب نفسها. وتقول مصادر عسكرية بريطانية صحفية متخصصة أن أكبر مشروع ذخائر للجيش فى البوسنة الشرقية يقع عند جبل زيب على بعد ستين كيلومتراً شمال شرقى العاصمة سيراييفو. وهناك محطات رادار على جبال بيليسيڤيتشا، وكوزارا، وماييڤا، وياهورينا. وقد هوجمت قواعد الطائرات الحوامة - الهليوكبتر - فى بانيالوكا، وأذاعت قوات المسلمين أنها دمرت عدداً من طائرات الهليوكبتر.

قبل الحرب كانت قوات الجيش اليوجوسلافي فى جمهورية البوسنة - الهرسك موزعة على ستة فيالق :

بانيالوكا، بيهاك، توزولا، سيراييڤو، الهرسك، ادزيتشكا.

أما الآن فهناك أربع مجموعات عسكرية للعمليات :

فيلق كراپينا الأول فى بانيالوكا.

وفيلق كراپينا الثانى فى درڤار.

وفيلق بوسينا الشمالية فى بيلينا.

وفيلق شرق البوسنة على جبل رومانيه (على بعد ٢٥ كيلوا متراً شمال شرق سيراييڤو).

وتتخذ القوات الباقية من فيلق الهرسك وفيلق تيتوجراد، تتخذ مواقعها الآن فى الهرسك الشرقية. ويقود قوات الجيش فى البوسنة والهرسك الميچور جنرال ماتكا ميلاديتش ومقر قيادته فى هاف بييشاك عند السفوح الغربية لجبل زيب وهو الملجأ الواقى من القنابل والغازات الذى أنشئ خصيصاً للملك بطرس الثانى.

مارس ١٩٩٢

البوسنة - الهرسك : الطريق إلى حرب الاستقلال

١ - ٦٤٪ من الناخبين الذين يبلغ عددهم ٢ر٣ مليون نسمة، يدلى بصوته فى الاستفتاء على الاستقلال ٦٨ز٦٢٪ يقولون نعم للحرية. وزير خارجية البوسنة هاريس سيلايديتش يدعو الجماعة الأوروبية فور إعلان نتيجة الاستفتاء إلى الاعتراف ببلاده.

بعد الظهر، يقتل صربى فى عرس ابنه أمام إحدى الكنائس الأرثوذكسية بسيراييڤو عاصمة البوسنة ـ الهرسك. يقول الحزب الديمقراطى الصربىSOP بالبوسنة أن هذا الحادث نموذج لوضع صرب البوسنة. ويقول رئيس جمهورية البوسنة على عزت بيجوڤيتش أن هذا«الحادث يعد لهجوم الصرب على استقلال البوسنة الوليد».

٢ ـ تتزايد عمليات القتل فى العاصمة سيراييڤو ويسقط إثنا عشر قتيلاً، وتقام المتاريس فى شوارعها، مظاهرة من عدة آلاف تطالب بتأكيد استقلال البوسنة وبإزالة المتاريس، وأثناء الليل برفع المتظاهرون معظم المتاريس بالفعل.

٣ ـ اتفاق بين رئيس جمهورية البوسنة على عزت بيجوڤيتش وزعيم صرب البوسنة، رئيس الحزب الديمقراطى الصربى رادوڤان كارادزيتش، على أن تقوم وحدات مشتركة من الجيش الوطنى اليوجوسلاڤى والبوليس بالمراقبة ، يحتج الاتحاد اليموقراطى «الكرواتى» على الاتفاق الذى كان هدفه هو إنهاء التوتر العرقى سدت المتاريس جميع طرق البوسنة ـ الهرسك، وأثناء الليل يقصف القبوميون المتطرفون الصرب بوسانسكي برود.

٥ ـ رادوڤان كارادزيتش يقول «أن البوسنة الموحّدة أصبحت فى خبر كان، بينما يؤكد علي عزت بيجوڤيتش أن تقسيم البوسنة ـ الهرسك على خطوط عرقية هو المستحيل.

٧ ـ ٩ الجولة الرابعة من مؤتمر حول البوسنة ـ الهرسك يعقد ببروكسل مقر «السوق الأوروبية المشتركة». زعماء المسلمين يطالبون بجمهورية ديمقراطية، أما زعماء الصرب والكراوت على السواء فيطالبون بأولوية حق الأمم المكونة للبوسنة والهرسك.

١٠ ـ أطراف الصراع الثلاثة غير راضية عن الوثيقة التى توصلت إليها بروكسل حول «البنية المستقبلية للبوسنة ـ والهرسك». فالمسلمون قلقون من ناحية «الكانتونات القومية»، والصرب يعارضون منح البوسنة الاستقلال. وظل وضع الجيش اليوجوسلافى فى الاتفاقية غامضاً. وقال رادوڤان كارادزيتش أن الحد الأدنى لما قد يقبله صرب البوسنة (١٫٢ مليون نسمة) هو الكونفيدرالية.

١١ ـ زعماء صرب البوسنة لممثل السوق ببروكسل چوزيه كيوتيلهيرو : الخريطة المقترحة لتقسيم البوسنة ـ الهرسك على خطوط عرقية بين القوميات الثلاث : المسلمون والصرب والكروات. قال المسلمون والكروات أن « ٣٠٪ من سكان البوسنة يريدون ٧٠٪ من أرضها».

القتال يندلع فى «بوسانسكى برود» بين الميليشيا الصربية التى تطلق على نفسها اسم «النسور البيضاء» من جانب والسكان المسلمين والكروات المحليين. اندلع القتال بعد أن هاجم أفراد من «وحدات الدفاع الإقليمى الصربية» جنازة أحد المسلمين. ويصل عدد سكان المدينة إلى ٣٤ ألف نسمة ، ٤١٪ منهم كروات و ٣٤٪ صرب و ١٢ ٪ مسلمين [ويلاحظ هنا أن نسبة المسلمين فى هذه المدينة أقل من غيرها].

١٧ - ١٨ الجولة الرابعة لجلسات المؤتمر حول البوسنة - الهرسك تعقد في العاصمة سيراييڤو. يوقع قادة القوميات الثلاث على وثيقة تنص على أن البوسنة - الهرسك دولة موحدة داخل حدودها الحالية، وتتكون من ثلاثة عناصر قومية، وتظل مناقشة قضية هل تكون الدولة كونفيدرالية أو موّحدة؟.

زعيم الصرب كارادزيتش يقول أن «هذه الاتفاقية ستمنع انفجار الحرب الأهلية».

٢٠ - رفض حزب المسلمين للعمل الديمقراطى SDA ، الاتفاقية التى تقول فى رأيه «ثلاث بوسنات في بوسنة واحدة»، على أساس أن الحزب ينادى بدولة موّحدة.

خاض صرب البوسنة والجيش اليوجوسلاڤى القتال ضد كروات البوسنة ومسلميها الذين كانوا فى معظم الأحوال يحاربون جنباً إلى جنب. ونتيجة لهذا يتصاعد القتال المسلح ويسود التوتر.

٢٣ - نشب قتال عنيف فى ميناء نيوم البوسنى على البحر الأدرياتيكى ومعظم سكانه من الكروات، وغربي الهرسك، بين قوات الجيش اليوجوسلاڤى والميليشيات الكرواتية اليمينية المتطرفة التى يقودها دوبروسلاف باراجا.

٢٧ - برلمان صرب البوسنة يوافق على دستور «جمهورية صرب البوسنة - الهرسك» الذى ينص على أنها جزء من يوجوسلاڤيا مع الصرب والجبل الأسود وكراييتا.

٢٨ - القتال يستمر فى مدينة «بوسانسكى برود» التى يغير الصرب اسمها إلى «ڤوكوڤار البوسنة».

٣٠ - يجتمع القادة القوميون الثلاثة للبوسنة ببروكسل لبحث مستقبل الجمهورية، ويبدى الكروات حذرهم هذه المرة من «الكانتونات القومية». وقد انتقل الصرب أيضاً إلى مرحلة قتالية جديدة بإثارتهم للقتال فى المناطق غير الصربية.

ابريـــــل

٤ - رئاسة جمهورية البوسنة - الهرسك تعلن التعبئة العامة لقوات «الدفاع الإقليميTO»، يترك ممثلو الصرب الرئاسة احتجاجاً على إعلان التعبئة. الجنرال ميلوتين كوكانياتش قائد قوات الجيش اليوجوسلاڤى بالبوسنة - الهرسك يقول " «إن التعبئة لن تؤدى إلا إلى المزيد من التوتر».

٥ - عشرون ألفا من أهل سيراييڤو يتظاهرون أمام برلمان البوسنة مطالبين بالسلام وإنهاء كل السياسات القومية - المتطرفة - ويقتحم المتظاهرون مبني البرلمان ويحتلونه، وفى اليوم التالى يجبرون رئيس وزراء البوسنة - الهرسك - چيوبيلڤان - وهو كرواتى - على الاستقالة. يرسل الجنرال كوكانياتش إلى تحى ڤارس أحد أحياء العاصمة سيراييڤو لتحرير أكاديمية البوليس. ويدور قتال شرس عنيف بمدينة كوبرس التى تدعى الميليشيات الكرواتية أنها استولت عليها.

٦ ـ يبدأ القناصة الصرب في إصابة المتظاهرين من فندق سيراييفو الرئيسي، تعلن رئاسة البوسنة ـ الهرسك حالة الطوارئ.

٧ ـ الولايات المتحدة الأمريكية تعترف باستقلال البوسنة ـ الهرسك وتعترف جمهورية كرواتيا كذلك باستقلال جمهورية البوسنة ـ الهرسك وتمنح كروات البوسنة حق الحصول على جنسية مزدوجة.

يعلن استقلال «جمهورية الصرب للبوسنة ـ الهرسك». يقوم الصرب بهجمات بالقنابل على سيروكي برييج، وسيلوك وميدوجوريبي. يستمر المتظاهرون أمام مبني البرلمان.

٨ ـ وزير دفاع البوسنة چيركو دوكو يصدر بياناً يطلب فيه من كل الكروات صد العدوان الصربي الي جانب المسلمين، وأن يقاتلوا قوات الجيش والميليشيات الصربية، شمال الجمهورية وشرقها. وتحتل الميليشيات الكرواتية مزيدا من الأراضي من الجنوب الغربي.

يقوم الجيش بقصف المدن ومن بينها العاصمة سيراييفو ومدينة موستار.

٩ـ تستولي الميليشيات الصربية بقيادة «أركان Arkan علي مدينة زفورنيك.

١٠ـ واشنطن تحذر بلجراد بحدة لأول مرة، بأن توقف تدخلها في الشئون الداخلية للبوسنة ـ الهرسك. وتتلقي زغرب ـ عاصمة كرواتيا تحذيراً مشابهاً.

يندلع قتال عنيف في بوسانسكي برود، وديرڤينتا، وفيسيجرادوفورا، وموستار، وكوبرس، وبانيا لوكا.

يظهر الرئيس علي عزت بيجوڤيتش في التليفزيون، ويوجه نداءً مؤثراً الي الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيڤيتش، ونائب وزير الدفاع اليوغوسلافي الجنرال بلاچوي أدزيتش لايقاف القتال الذي تقوم به قوات الميليشيات الصربية.

١١ـ العمال المسلمون يهددون بنسف خزان فيسيجراد اذا استمر عدوان الميليشيات الصربية والجيش اليوغوسلافي علي البوسنة ـ الهرسك.

١٢ـ قادة الجماعات الثلاث يتفقون علي وقف اطلاق النار، لكن الاتفاقية تنتهك بمجرد توقيعها.

١٣ـ «يفتح» خزان فيسيجراد فتغرق البيوت القريبة منه.

يستمر القتال من أجل الاستيلاء علي كوبرس.

يدعي الكروات أنهم اسقطوا خمس طائرات للسلاح الجوي اليوغوسلافي فوق غرب الهرسك.

١٤ـ الرئيس علي عزت بيجوڤيتش يقول أن البوسنة ـ الهرسك لا تتعرض لحرب أهلية قومية، وانما لعدوان خارجي. قتال عنيف حول ليڤنو، وكوبرس، وتوميسلا ڤجراد.

تدعي بلجراد أن جمهورية سلوڤينيا قد زودت بوليس جمهورية البوسنة ـ الهرسك

بأسلحة يصل ثمنها الي ٦ر٥ مليون دولار.

١٥ـ الرئيس علي عزت بيجوفيتش يحدد ميعاداً لأن تصبح كل القوات المدافعة عن البوسنة ـ الهرسك تحت القيادة العامة «للدفاع الاقليمي». لكن نائب زعيم حزب «الاتحاد الديموقراطي الكرواتي»، وقائد «مجلس الدفاع الكرواتي» للهرسك الغربية ميت بوبان يصرح بأن قواته هي القوات الشرعية الوحيدة في الهرسك الغربية، حيث يحاول تأسيس دولة هرسك ـ البوسنة.

ويعتقد حزب «الاتحاد الديموقراطي الكرواتي» ان رئاسة جمهورية البوسنة قد استغرقت وقتاً طويلاً لتخطط للعدوان.

استولت الميليشيات الصربية علي مدن رفورنيك، وفيسيجراد، وفوتشا، وتحاصر نيوم.

١٦ـ اجتماع دول «الأمن والتعاون الأوربي» بهلسنكي يدعو كل القوات المسلحة والميليشيات الي الانسحاب الي أماكنهم عند بدء القتال. إدانة انتهاك تكامل الأراضي وحقوق الانسان علي يد الصرب والجيش اليوغوسلافي ونداء إلي قيادة جمهورية الصرب وقيادة الجيش اليوغوسلافي للاعتراف باستقلال البوسنة ـ الهرسك وتكامل اراضيها وحكومتها الشرعية. وقال نداء دول المؤتمر انه اذا لم تستجب الصرب لهذا حتي ٢٩ ابريل، فستطرد من «مؤتمر الأمن والتعاون الأوربي».

١٧ـ قتال عنيف حول دير فينتا وبوسانسكي ـ ساماتش، وفي المدن المختلطة من القوميات الثلاث علي الطريق بين المناطق الصربية في شمال ـ غربي البوسنة، وبلجراد. الجسر علي نهر سافا بوسانسكي ـ ساماتش، يغلق، أما الجسر علي نهر سافا الذي يربط البوسنة ـ الهرسك مع كرواتيا عند بوسانسكي برود وهي السيطرة المشتركة للكروات ـ والمسلمين، فيفتح نهاراً فقط.

٢١ـ راديو سيراييفو يصف ذلك اليوم بأنه «أسوأ يوم في تاريخ سيراييفو » حيث يستمر أثقل قصف علي سكانها الـ ٦٠٠ الف من القوات الصربية المحيطة بها.

٢٢ـ اليوم الثاني لمعركة سيراييفو. «القوات الاقليمية» أن المتطرفين الصرب والجيش اليوغوسلافي هم الذين بدأوا الهجوم. أما الجيش فيقول أن بوليس البوسنة ـ الهرسك و«ذوي البيريهات الخضراء المسلمين» واعضاء «الرابطة الوطنية» هم المسئولون.

يستمر القتال كذلك في موستار، وبوسانسكا كروبا، وديرفينتا، وبوسانسكي ساماتش.

٢٣ـ توقيع اتفاقية لوقف إطلاق النار، بعد زيارة اللورد كارنجتون المعين من قبل بروكسيل، للعاصمة سيراييفو. اللورد كارنجتون يصرح بأن الصرب هي المسئولة عن الهجمات. لكن هناك أدلة ـ كذلك علي أن كرواتيا أرسلت قواتها، وأن المسلمين قاموا ببعض الهجمات.

بعد أن يترك اللورد كارنجتون سيراييڤو بساعات، ينشب القتال عنيفاً مرة أخري.

٢٤ـ٢٥ـ يعلن مواطنو سيراييڤو هذين اليومين حداداً، ويطالبون كل الأطراف وقف إطلاق النار ليدفنوا موتاهم.

٢٦ـإعلان دستور «جمهورية يوغوسلاڤيا الفيدرالية» الجديد في بلجراد. يوغوسلاڤيا تنكر مطالبتها بأي أراضٍ في دول مستقلة أخري، وتودي بميثاق الأمم المتحدة، ومؤتمر الأمن والتعاون الأوربي.

رئيس البوسنة ـ الهرسك علي عزت بيجوڤيتش يقول ان الجيش اليوغوسلاڤي قد وافق مبدئيا علي أن يترك البلاد، أو يحور نفسه طبقاً لمطالب واحتياجات الجمهورية.

٢٧ـ يستمر الهجوم علي مدينة موستار، وكذا مدن سيروكي بريبج، وكابليينا، وسيتلوك، وميدوجوري.

٢٨ـ يرفض الجنرال أدزيتش طلب الرئيس علي عزت بيجوڤيتش. ويقول انه لم يوافق علي شيء.

يعود المؤتمر حول البوسنة ـ الهرسك الي الافتتاح في لشبونة تؤجل إحدي لجان «مؤتمر الأمن والتعاون الأوربي» مسألة طرد يوغوسلاڤيا من عضويتها حتي ينعقد مؤتمر بروكسيل حول يوغوسلاڤيا.

مايــو

١ـ وحدات من «القوات الاقليمية» تهاجم مقر رئاسة الجيش اليوغوسلاڤي.

٢ـ أثناء عودة الرئيس علي عزت بيجوڤيتش من لشبونة يقبض عليه الجيش اليوغوسلاڤي هو وابنته ويعتبرهما رهينتين.

يفرج عنهما مقابل خروج ضباط وجنود الجيش المحاصرين في العاصمة سيراييڤو، عبر متاريس المسلمين والكروات.

٣ـ وحدات الجيش اليوغوسلاڤي المنسحبة من مقر رئاستها بسيراييڤو تهاجم عند اسكندريا ويقتل عدة جنود.

المعارك في كل حي من أحياء العاصمة سيراييڤو.

يقرر «مؤتمر الأمن والتعاون الأوربي» أن سلطة حكومة البوسنة ـ الهرسك الشرعية في خطر، اساساً بواسطة الجيش اليوغوسلاڤي والميليشيات الصربية التي يساندها.

٤ـ الرئيس علي عزت بيجوڤيتش يطلب من راديو سيراييڤو المعونة العسكرية من الدول الأجنبية الصديقة، فيشن الجيش اليوغوسلاڤي هجوماً شاملاً علي سيراييڤو، بالمدفعية والمورتار والطائرات. فيتهدم السوق القديم بوسط العاصمة : «سيراييڤو باسكارسييا.

تعلن رئاسة يوغوسلاڤيا أن علي كل المواطنين اليوغوسلاڤ في الجيش اليوغوسلاڤي

ان يتركوا الجيش خلال خمسة عشر يوماً. لكن ٨٠٪ من الجنود اليوغوسلاف الذين يحاربون في البوسنة ـ الهرسك هم من صرب البوسنة، ومعني هذا انضمامهم الي الميليشيات ـ وهم مدربون تدريباً جيداً.

٥ـ يترك ٢٥ من مراقبي «السوق المشتركة» ـ من أصل ٣٤ مراقبا ـ العاصمة سيراييڤو.

تدين الرئاسة اليوغوسلاڤية سيطرة الجيش في البوسنة.

٦ـ يطلق القناصة الصرب الرصاص علي السيارة التي تقل المندوب الخاص للأمم المتحدة ماراك جولدنيج الذي كان الرئيس علي عزت بيجوڤيتش يطلعه علي ماأصاب الحي القديم وسط سيراييڤو.

تهاجم قوات «مجلس الدفاع الكرواتي» بمدينة موستار معسكر كوناك للجيش اليوغوسلاڤي.

يوقع كارادزيتش وبونان اتفاقاً في مدينة كراز بالنمسا، بتقسيم البوسنة ـ الهرسك بين صرب وكروات البوسنة. وهكذا يتحالف كروات البوسنة مع اعدائهم التاريخيين الصرب، في سبيل الحصول علي منطقة جنوب ـ غربي الهرسك، وأغلب قاطنيها كروات، هذا الي انها تقع علي الشاطيء الأدرياتيكي الكرواتي. وتضم هذه المنطقة مدينة موستار. هكذا يلعب كروات البوسنة علي التناقضات بين المسلمين والصرب.

٧ـ يقابل مبعوث الأمم المتحدة ماراك جولدينج الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيڤيتش الذي ينفي اشتراك جمهورية الصرب بشكل مباشر في الحرب التي تدور رحاها بجمهورية البوسنة ـ الهرسك.

يبدي مبعوث الأمم المتحدة تفاؤله من آفاق تواجد قوة حفظ السلام للأمم المتحدة بالبوسنة، لتقوم بنفس المهمات التي يقوم بها ذوو البيريهات الزرقاء (١٤ الف جندي) في كرواتيا.

٨ـ هجوم الطائرات يستمر علي المناطق بين كرواتيا والهرسك الغربية وقتال عنيف شرس في جورازدا، ودوبوي، وموستار، وسيراييڤو العاصمة. الهدف هو احتلال وادي درينا وربطة بالمنطقة التي يحتلها الصرب في الهرسك SAO.

يستقيل الجنرال بلاجوي ادزيتش من منصبه، وتسحب الرئاسة اليوغوسلاڤية كذلك مسئوليات كوكانياتش وتحيل ٣٧ جنرالاً وادميرالاً واحداً علي المعاش، ويضم هؤلاء اندريا راسيتا، (قائد قوات الجيش اليوغوسلاڤي في كرواتيا سابقاً)، وميلان اكسنتيڤتش (النائب السابق ببرلمان سلوڤينيا) وڤويسلاف ديوردييڤاتش الذي نظم اختطاف الرئيس علي عزت بيجوڤيتش.

٩ـ الهجوم مستمر علي سيراييڤو وتقارير تقول أن المدينة علي شفا المجاعة. قتال عنيف

في أودزلك وحول بوسانسكي برود التي تصبح هدفاً مشتركاً للمدفعية والطيران. ونفس الشيء بالنسبة لمدن ليڤونا، ونيوم، وجورازدا، وموستار.

١٠- دول «السوق الأوربية» تسحب سفراءها من بلجراد. وتطلب من حكومة البوسنة التعاون معها لسحب الجيش اليوغوسلافي، وتطلب من كرواتيا أن تبذل جهدها لايقاف تدفق وحدات الجيش والميليشيات الكرواتية علي البوسنة - الهرسك.

١١- مراقبو السوق المشتركة المتبقون يتركون العاصمة. الصليب الأحمر الدولي كذلك علي وشك ان يتركها. وقد عانوا كلهم من هجمات مباشرة.

تسحب الولايات المتحدة الامريكية سفيرها من بلجراد، أسوة بسفراء «الجماعة الاوربية».

١٢- «الحكومة الصربية - للبوسنة - الهرسك» في بانيا لوكا، تعلن وقف إطلاق النار ثلاثة أيام، وتقرر ضم صرب البوسنة الذين كانوا في الجيش اليوغوسلافي الي وحداتها العسكرية.

٢٥٠٠ ضابط وجندي من الجيش اليوغوسلافي يغادرون سيراييڤو بالطائرات الي بلجراد.

الهجوم يستمر علي موستار، وديرڤينتا.

قوات المسلمين والكروات تدخل بوسانسكي برود فيتركها ١٠ آلاف لاجيء صربي.

١٣- انتهاك قرار وقف إطلاق النار. قناص صربي يطلق النار علي الرئيس علي عزت بيجوڤيتش بعد دقائق من تركه مكتبه، فلم يصبه.

١٤- سيراييڤو تشهد أسوأ معاركها القتالية. قائد قوات الأمم المتحدة ساتينس نامبيار يحاصره الصرب في مقر رئاسته.

قائد عسكري من البوسنة يلوم القوات الكرواتية لفشل رجاله في فك الحصار عن سيراييڤو.

الدول الاسلامية تدعو الأمم المتحدة الي اتخاذ موقف أقوي لوقف القتال في جمهورية البوسنة - الهرسك. رئاسة البوسنة وقيادة الحزب الديمقراطي الصربي SDP والجيش يتفقون علي وقف إطلاق النار.

١٥- يستمر الهجوم علي سيراييڤو رغم اتفاق وقف إطلاق النار. يدور القتال في شوارع حي پوفولوي وقرب جسر نهر ڤربانيا علي الخطوط القومية التي رسمها «الحزب الديموقراطي الصربي» SDP لتقسيم المدينة.

تقرر أن تنقل رئاسة قوات الأمم المتحدة من سيراييڤو الي بلجراد.

أزمة جديدة تظهر في نوزولا حيث تشتبك «القوات الاقليمية» والجيش الذي رفض أن يترك المدينة بدون أسلحته.

قالت وكالة أنباء البوسنة أن الميليشيات الصربية هاجمت مدينة موستار بالأسلحة الكيماوية.

الجيش يهدم مطاره العسكري الحديث الجديد بمدينة بيهاك شمال مدينة موستار.

١٦ـ اجتماع للقادة الكروات والمسلمين بمدينة سبليت، يصدر بياناً يقول فيه ان «إقامة كونفيدرالية بين كرواتيا والبوسنة، هي مسألة مقبولة لكروات ومسلمي البوسنة ـ الهرسك».

١٧ـيدعو «المؤتمر الاسلامي» اعضاءه الـ ٤٦ لسحب سفرائهم من بلجراد، ويدعو وزير خارجية البوسنة العالم ليتدخل لانقاذ بلاده.

١٨ـ الميليشيات الصربية تمنع آلاف اللاجئين من سيراييڤو من تركها حتي يرفع الحصار عن ثكنات الجيش.

رئاسة البوسنة ـ الهرسك تعلن عن تشكيل جيش تابع لها مباشرة يتكون من ١٨ الف رجل، من كافة الميليشيات والقوات الاقليمية.

١٩ـ يسمح الصرب للاجئين بترك سيراييڤو

كارادزيتش يعلن تعبئة جميع صرب البوسنة رجالاً ونساءً خلال ٤٨ ساعة.

الجيش اليوغوسلاڤي يوقف انسحابه من شرقي كرواتيا، وكان المفروض أن يسلّم الجزء الأول من أراضي كرواتيا التي يسيطر عليها الصرب لقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة.

٢٠ـ الأمم المتحدة تمنح البوسنة، وكرواتيا، وسلوڤينيا عضويتها الكاملة. ويطلب من «مجلس الأمن» فرض حظر بترولي علي جمهورية الصرب.

أول نوفمبر ١٩٩٢

مزيد من العدوان .. والغرب ساكت

يستمر الصرب في الاستيلاء علي استقطاع أراضي أخري من البوسنة باستخدام مدافع ثقيلة المفروض أن توضع تحت إشراف الأمم المتحدة، وطائرات حذرت الأمم المتحدة من طيرانها، ويصرخون في نفس الوقت بمنع تصدير جميع أنواع الأسلحة الي جمهوريات يوغوسلاڤيا السابقة.

وأدار الكروات أسلحتهم الي حلفائهم المسلمين وأخذوا بدورهم يستقطعون مايستطيعون من اراضي البوسنة طاردين أهلها من منازلهم، قاطعين طرق الإمداد علي المسلمين وفي الأسبوع الأخير من نوفمبر وحده رفع علم كرواتيا علي مدينة بروزو، وعلم الصرب علي مدينة چاييسي، وتقع المدينتان شمال ـ غرب سيراييڤو. وطرد السكان المسلمون وشردوا الي صقيع الشتاء في الجبال.

الكروات والصرب يطالبون الغرب بعدم إرسال السلاح وتطبيق قرار الأمم المتحدة،

والغرب يطلق الصيحات «باحترام سيادة البوسنة وتكامل أراضيها»، ولايساعد قرار الحظر هذا إلا علي المزيد من استقطاع الصرب والكروات لأراضي البوسنة ـ الهرسك. وقد كان من الممكن لو حصلت حكومة البوسنة الشرعية علي السلاح لمنعت استقطاع أراضيها.
وكان منع السلاح لايعني إلا المزيد من الظلم والقتال والمذابح والتمشيط العرقي وطرد المسلمين ليصبحوا لاجئين. فالصرب يمتلكون جيشاً قوياً ومخازن أسلحة هائلة، أما كرواتيا فلها شواطيء طويلة وحدود مع أوربا الغربية واستخدمت الأشهر التسعة السابقة في تكديس السلاح وتقوية قواتها.
وكان الخاسر الوحيد : المسلمون. محاصرون في الداخل ليس لهم شواطيء، في عدد من المدن المحاصرة المتجمدة من البرد، الجائعة، لا يملكون مصادر السلاح، وليس لهم دولة أم يعتمدون عليها مثل كروات وصرب البوسنة، الذين يعتمدون علي جمهورية كرواتيا، وجمهورية الصرب. وجاء في تقرير «للمعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية»، صدر في شهر اكتوبر أن صرب البوسنة يمتلكون :

* ٣٠٠ دبابة
* ١٨٠ سيارة مدرعة
* جيش قوامه ٦٧ الفاً
* ٤٠ طائرة مقاتلة وهليكوبتر
* قطع لا حصر لها من المدفعية الثقيلة
* ذخائر ومؤن لا حدود لها.

أما كروات البوسنة فجيشهم قوامه ٥٠ الفاً، تزوده زغرب بما يحتاجه من سلاح وعتاد.
أما جيش المسلمين فهو بين ٣٠ الي ٥٠ الفاً لا يمتلك إلا القليل جداً من الأسلحة الثقيلة، وليس له مؤخرة تحميه ويتزود منها بالسلاح والعتاد مثلما هو الحال مع الصرب والكروات. ويعكس تقرير الأمم المتحدة لتبادل النيران في سيراييڤو وحولها قوة نيران الجانبين : فقد أطلق الصرب ٦٦٢ قذيفة ناحية مناطق المسلمين يوم السبت ٣١ اكتوبر ١٩٩٢، بينما لم يطلق المسلمون المدافعون عن سيراييڤو غير ٩٧ قذيفة علي مناطق صرب البوسنة. وقد أتت معظم قذائف الصرب من المدافع الثقيلة التي وعد الدكتور رادوڤان كارادزيتش في مؤتمر لندن، في نهاية أغسطس، ألا تطلق وأن توضع تحت إشراف قوات الأمم المتحدة. وقع اتفاقا مكتوباً بأن يسلم القوات الدولية مواقع المدافع الثقيلة حول أربع مدن من بينها چايس. التي كان المسلمون والكروات أربعة اضعاف سكانها الصرب (٤ : ١)، وهي الآن مدينة صربية تماماً. وأقلعت طائرات صربية لتضرب مدينة چايس، من معقلهم في بانيا لوكا، رغم قرار الأمم المتحدة بعدم الطيران فوق كل يوغوسلاڤيا السابقة.

الخداع

وكان الخداع هو السمة السائدة في التعاملات مع المسلمين. فموقف الصرب كان واضحاً منذ البداية مع الوسطاء الدوليين والغربيين من «الجماعة الأوربية» : يتفقون علي شيء وينفذون شيئاً آخر مختلفاً تماماً.

وينطبق نفس الشيء علي الكروات. فالمفروض أنهم حلفاء المسلمين وفي يونية ١٩٩٢ وقع الرئيس الكرواتي فرانچيو تودچمان اتفاقية مع الرئيس علي عزت بيجوفيتش، لتدريب المسلمين عسكرياً. وفي الشهر التالي مباشرة أغلقت جمهورية كرواتيا حدودها مع البوسنة لتغلق الباب في وجه اللاجئين المسلمين من الحرب، وهذا ليس انتهاكاً للاتفاق بين الرئيسين فحسب، لكن انتهاك للاتفاقيات الدولية. وصرح في شهر اكتوبر ١٩٩٢ لوفد من السياسيين الأمريكيين بأن «الأصولية الاسلامية» يرتفع مدها بين مسلمي البوسنة، وأن حظر بيع السلاح لكل يوغوسلافيا - السابقة ينبغي أن يستمر. انها نفس النغمة التي يتحدث بها الصرب. أما كروات البوسنة، فقد قطعوا خطوط الامداد عن المسلمين، من الغرب، وشنوا حملتهم الخاصة بهم «للتمشيط العرقي» فاستولوا علي أراضي المسلمين وطردوا أهلها.

ولم يطلب الرئيس علي عزت بيجوفيتش الكثير من الغرب، بعد أن أيقن تماماً أنه لن يتدخل لانقاذ البوسنة - الهرسك، لم يطلب غير رفع حظر تصدير الأسلحة لكي يدافع المسلمون عن أنفسهم. إدعي الغرب أن تسليح حكومة البوسنة سيجعل الأمور أسوأ، وترك للمعتدي أن يتسلح حتي أسنانه دون عقاب، ويتناقض حتي مع نفسه، إذ كانت استراتيجية «الناتو» علي مدي الأربعين عاماً من الحرب الباردة هي «توازن الرعب» التي قال - أي الغرب - انها حافظت علي السلام العالمي، رغم تسلح المعسكرين حتي الأسنان تسلحاً نووياً !

وبعد أن خان الغرب البوسنة، استدار الرئيس علي عزت بيجوفيتش الي العالم الاسلامي، فقام في الأسبوع الأخير من اكتوبر ١٩٩٢ بزيارة طهران وأنقره حيث طلب رسمياً امدادات من السلاح «لأن السلاح هو اللغة الوحيدة التي يفهمها أعداؤنا».

وبينما كان الرئيس علي عزت بيجوفيتش في جولته الشرق - أوسطية أستمر الصرب والكروات في الاستيلاء علي المزيد من أراضي البوسنة، ويقومون «بالتمشيط العرقي» فيها. في نفس الوقت الذي كان فيه الوسيطان الغربيان سيروس ڤانس، واللورد أوين يزوران بلجراد ويقومان بجولة في يوجوسلافيا السابقة، ويؤكدان انه لن يكون هناك تقسيم للبوسنة يقوم علي خطوط عرقية !

الثاني من نوفمبر ١٩٩٢

... ماذا ينتظر العالم ؟

ضاعت البوسنة ـ الهرسك. فحوالي ثلاثة ملايين من اهلها ـ أي ٧٠٪ أخرجوا من بيوتهم أو هربوا، وثلثهم علي أقل تقدير الي خارج البلاد. وأزيلت كل الآثار والثقافة الاسلامية بشكل منتظم وسيجهز الشتاء القارص ١٩٩٣/٩٢ علي بقية السكان، وخاصة الأطفال والشيوخ، ما لم يتم الاتفاق علي وقف إطلاق النار في العاصمة سيراييڤو وحولها ـ وهو أمر مستبعد ـ فسيتعرض السكان للموت والمجاعة والأمراض. ومع استبعاد التدخل الغربي العسكري الآن، هناك سيناريوهان للمستقبل ليس اكثر

الأول : استمرار ما يتم حالياً من استئصال للمسلمين من البوسنة ـ الهرسك

والثاني : تطبيق خطة ڤانس ـ أوين التي قدماها الي مؤتمر چنيف في الأسبوع الأخير من نوفمبر ١٩٩٢.

واستمرار مايحدث الآن معناه إبادة مسلمي البوسنة ـ الهرسك وتقسيمها الي كانتونات قومية ـ إثنية : هلال صربي كبير يضم غربي البلاد وشماليها وشرقيها، وقسم أصغر للكروات، فلا يتبقي للمسلمين غير «جيب» صغير لا يضم غير العاصمة سيراييڤو وما حولها، بل وقد تقسم العاصمة كما قسمت القدس، وسيكون الفارق أن تقسم سيراييڤو الي ثلاثة أقسام بدلاً من قسمين، وقد يتم الاتفاق لنزع سلاحها.

وبدأت «الجمهورية الصربية في البوسنة» RS تخفف من عملياتها العسكرية، في الوقت الذي تحرك فيه الكروات لانتزاع قطعة أكبر لأنفسهم من أراضي البوسنة. وسيركز صرب البوسنة علي حل مشاكلهم الادارية، بإقامة علاقات سياسية رسمية ـ شكلية مع الصرب، من خلال «يوغوسلاڤيا الثالثة» الجديدة. وفي الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر ١٩٩٢، أعلن صرب البوسنة وصرب كرواتيا عن «دمج» يخلق «الخطاف» الغربي «للصرب الكبري»، رغم تحذيرات سيروس ڤانس، وديڤيد أوين.

وكان صرب البوسنة قد أعلنوا عن تشكيل «جمهوريتين» : واحدة في كرواتيا وأخري في البوسنة. وأعلنوا برلمانا «الجمهوريتين».

الأسبوع الأخير من نوفمبر ١٩٩٢ عن اندماج «الجمهوريتين» الصربيتين (في كرواتيا وفي البوسنة ـ الهرسك)، ليؤسسا جمهورية موحدة، بعد أن تخلصتا من سكانها المسلمين والكروات، ولم تبق غير «جيوب» صغيرة منهم في دوبوي، وجراداساتش ـ أوراسي، وتيساني. وبعد أن استولي الصرب في الأسبوع الأخير من نوفمبر علي چابيتشي، أصبحت محطات الكهرباء منها تحت سيطرتهم، مما يسمح لهم ببدء تشغيلها لإعادة البناء الاقتصادي. الآن توصل الصرب الي تحقيق أهدافهم النهائية، لذا فهدفهم السياسي الأول هو التوصل الي اتفاق مع «بقايا» المسلمين، وهم في هذا الموقف الضعيف للغاية، ويقدم الصرب اقتراحاً برفع حصارهم عن منطقة توزلا ـ زنيتشا مما يسمح باستيلاء المسلمين عليها وتوسيع رقعتهم قليلاً ، مقابل ان يلقي المسلمون بسلاحهم في شمال البوسنة، وان

يعترفوا بالجمهورية الصربية الجديدة RS (أي التي تضم صرب البوسنة وصرب كرواتيا). وسيكون علي المسلمين كذلك الاعتراف بجمهورية الصرب ـ أي بيوغوسلاڤيا الجديدة.

ويبدو أن لدي الصرب تنازلاً آخر للمسلمين إذا ماوافقوا علي التقسيم القومي ـ العرقي للبوسنة ـ الهرسك، وهو التقسيم الذي تم بالفعل. فيبدو أن الصرب عرضوا، بالإضافة الي سازين / بيهاك المسلمة، منطقة أخري في جورني ڤاكوف ـ تراڤنيك إذا ماوافقوا علي تقسيم العاصمة سيراييڤو علي خطوط إثنية، علي افتراض أن المسلمين يمكنهم طرد الكروات من جورني ڤاكوف ـ تراڤنيك.

وأوقف الصرب كل العمليات التي تهدف إلي سيطرتهم علي البوسنة ـ الهرسك الشرقية. فمنذ طرد الجيش اليوغوسلاڤي متقهقراً من معظم البوسنة الصيف الماضي (١٩٩٢) وهو يعرض غرب البوسنة علي الكروات، مع استبعاد وادي نيريتڤا وكوبرس في الشمال الغربي، مقابل توقيع الكروات علي اتفاقية سلام.

لكن الخطة الصربية قد يكون من الصعب تحقيقها كما رسمت لعديد من الأسباب :

الأول : ان الكروات غير مستعدين لتسليم پوساڤنيا شمال البوسنة مقابل مناطق الهرسك التي يسيطرون عليها بالفعل. والأكثر واقعية بالنسبة للكروات هو التوصل الي اتفاق مع المسلمين. وهم في موقف الضعف الحالي، للحصول علي مايريدونه من أرض يسيطر عليها المسلمون. واذا لم يستطيعوا التوصل الي اتفاق، فهم يستطيعون انتزاع هذه الأرض بالقوة فيوضع المسلمون بين شقي الرحي : الصرب من جانب، والكروات الذين خانوا التحالف من الناحية الأخري. وهم يريدون قطعة من الأرض تقسم أراضي صرب البوسنة التي استولوا عليها الي قسمين أو اكثر. وهذا هو السبب في آن الكروات يؤيدون بشدة خطة ڤانس ـ أوين الأخيرة التي قدمت في مؤتمر چنيف (وسنناقشها في نهاية هذا الموضوع)، ويؤيدها قادة القوات المسلحة الكرواتية علي وجه الخصوص، وبالذات «مجلس الدفاع الكرواتي». لذا فلا ينتظر أن توافق قيادة كرواتيا، ولا قيادة كروات البوسنة ـ الهرسك علي مقترحات الجيش اليوغوسلاڤي. وهم علي العكس من ذلك تماماً قد يتفقون مع المسلمين للقيام بحرب عصابات كرواتية ـ مسلمة في أراضي صرب البوسنة وصرب كرواتيا، تكون بمثابة حرب استنزاف.

والثاني : أن الإرهاب والقتل والتعذيب الذي مارسه الصرب علي المسلمين يجعل الناجين ـ من المسلمين ـ علي استعداد لأن يخوضوا حرباً ضدهم حتي النهاية. وحتي إذا ماوافق الرئيس المسلم علي عزت بيجوڤيتش علي اتفاقية ما مع الصرب، فسيتبخر يأييد شعبه له. ولم تمد قواته سيطرتها الي أبعد من العاصمة سيراييڤو، وبعض الجبال التي تحيط بها. وهناك قوات مسلمة أخري مرتبطة حتي الآن بقيادات الكروات، وحتي هؤلاء الذين يحاربون شرقي البوسنة ومنهم «الفيلق البروليتاري السابع» ـ من الصفوة ـ الذي

انقذ مدينة جورازده ـ فقد تبعثر الي وحدات صغيرة منفصلة هنا وهناك، انشغل بعضها بعمليات انتقامية ـ إثنية، نتيجة للفوضي السائدة بين «القوات المسلحة» للبوسنة والهرسك. وكان إخفاق قوات البوسنة أمام الجيش الكرواتي في أراضي وسط البوسنة، علامة علي ضعفها العسكري.

وثالثا : أسرع الرئيس علي عزت بيجوفيتش بزيارة زغرب للاجتماع بالرئيس الكرواتي فرانيو تودجمان، بعد أن انتقد بشدة الدور الذي تلعبه «القوات الكرواتية»، ويعكس هذا ضغوطاً من الجنود المسلمين ومن مسلحي نصف مليون مسلم يعيشو ن في كرواتيا أو يستجيرون بها، وهؤلاء يتهمونه بسبب اهتمامه الزائد بالمساعدات الدولية الانسانية الي العاصمة سيراييفو وحدها، وبأنه يخصص الكثير من الأسلحة والمساعدات المالية لقواته العسكرية وحدها، علي حساب التكوينات الاقليمية الأخري. وقد وعد بيجوفيتش بإقالة قائد قواته سيفر هالوفيتش وقادة آخرين، وكان أمله ان تقام قيادة عسكرية كرواتية ـ مسلمة مشتركة. ومن الواضح ان الاتفاق يشمل استمرار الرئيس بيجوفيتش في منصبه، الذي تنتهي مدته في ديسمبر ١٩٩٢.

والرابع : أن عملية الاتصال العضوي بدأت بالفعل بين «الجمهورية الصربية» المعلنة مؤخراً، و«جمهورية الصرب» في يوغوسلافيا الجديدة فالجمهورية الصربية تعتمد تماماً علي جمهورية الصرب مالياً وفي قوة العمل التي تحتاج اليها في المناطق المستعمرة الجديدة التي طرد منها المسلمون أساساً والكروات. ويقدر أن نصف السكان الذين كانوا يعيشون علي أراضيها قد تركوا منازلهم ومدنهم وقراهم، وستملأ بها جماعات من الصرب في حركة بطيئة مدروسة، حتي لا تعود الي أصحابها الأصليين. لكن مما يصعبّ من هذه العملية، أن المناطق الشمالية والغربية من «الجمهورية الصربية» المعلنة معزولة عن مناطق تمويلها وأسواقها التقليدية في كرواتيا. ومازال حظر الأمم المتحدة و«الجماعة الأوربية» مفروضاً علي يوغوسلافيا ـ التي تتشكل من جمهورية الصرب وجمهورية الجبل الأسود وتؤثر اكثر ما تؤثر علي «الجمهورية الصربية» الجديدة. ولاشك أن هذا سيؤدي الي المزيد من تقوية أمراء الحرب.

ويتبقي اندماج هذه «الجمهورية الصربية» في جمهورية الصرب لتأسيس الحلم الذي وقف وراء الحرب الأهلية : «الصرب الكبري». ويتطلب هذا إعادة تكوين كل النظام السياسي ليحصل الذين حاربوا المسلمين والكروات، علي امتيازات ومكافآت.لكن دون ذلك العديد من العقبات. فعندما اجتمع برلمانا الجمهوريتين الصربيتين لاتخاذ قرار الاندماج، ظهرت مشكلة المكان الذي سيحدد المستقبل السياسي لتلك المدينة التي يعقد بها، فعقد بمدينة بريبور بسبب المنافسة الشديدة بين صرب «بانيا لوكا» ومدينة «بيل» معقل الدكتور رادوفان كارادیتش. وقد دخل حلبة المنافسة «الجنرال» ميلان مارتيتش ضابط البوليس

السابق، الذي برز كوزير داخلية كينين ـ المنطقة الثالثة. ويعقّد من هذا كله ان الصرب الذين لا ينتمون «للحزب الديموقراطي الصربي» في البوسنة وكرواتيا، افتتحوا مكتباً للعلاقات العامة في بلجراد، وبدأ بمحطة إذاعة تهاجم دكتاتورية قادة الحزب في «الجمهورية الصربية». ويتطلب تأسيس نظام مستقر هناك تقوية الاقتصاد. وهذا غير ممكن في الآونة الحالية علي الأقل.

فالاحتمال الأكبر هو استمرار الصدام بين الصرب أنفسهم في جمهورية جديدة تعاني الفقر والحرمان، وإن هرب سكانها من المذابح، وأصبح زعماؤهم مجرمي حرب وقطاع طرق. الي جانب «جيوب» محاصرة تريد كل منها التوسع في منتصف البوسنة، وصدامات شرسة علي طول كل المحيط الداخلي للجمهورية الصربية الجديدة، وضغوط عسكرية واقتصادية دائمة من جمهورية كرواتيا.

أما معظم الأرض التي يسيطر عليها الكروات من أراضي الهرسك فستضم الي دالماتيا، لتعيد وحدة جغرافية ـ اقتصادية كانت موجودة من قبل لمئات السنين.

هذا هو السيناريو الأول.

أما **السيناريو الثاني** فيسير طبقاً لخطة ڤانس ـ أوين التي قدماها الي مؤتمر جنيف، وهي خطة سبق وأن وضعت «الجماعة الأوربية» خطوطها العامة تحت ضغط الصرب، وتعتمد علي تقسيم البوسنة الي «كانتونات عرقية». وقد طورت خطة ڤانس ـ أوين هذه الخطة مقترحة تقسيم البوسنة ـ الهرسك الي عشر مناطق ذات حكم ذاتي، وتكون كل منها مسئولة عن اقتصادها وعن المسائل الادارية (البوليس، والمحاكم، والتعليم الخ) ومن الممكن أن تضم كل وحدة أغلبية عرقية واحدة سائدة، ولا يسمح لأي منها أن تحمل أية علامة عرقية مهما كانت، ويرفض اي نوع من «السيادة العرقية». أما السياسة الخارجية، والدفاع، والأمن الداخلي، والمالية والجمارك فتسند كلها الي حكومة البوسنة ـ الهرسك المركزية، وبرلمانها ذي المجلسين.

لكن هناك مشكلتين كبيرتين ينبغي التغلب عليهما، إذا ماأريد لهذه الخطة أن تنفذ :

الأولي : أن الصرب جميعاً يرفضون الخطة، فقد انسحب صرب البوسنة من مؤتمر جنيف في الثاني من نوفمبر. وصرح الدكتور كارادزيتش زعيم «الحزب الديموقراطي الصربي» بأن «صرب البوسنة يعارضون الخطة، فنحن مصممون علي أن يعيش كل الصرب في بلد واحد. أما الباقون فيمكنهم أن يقسمّوا أراضيهم كما يحلوا لهم». فليس من المحتمل إذن بأي حال ان يغيرّ صرب البوسنة رأيهم، لأنها تتعارض مع أحلام «الصرب الكبري» التي حاربوا من أجلها.

والثانية : ان الخطة تعتمد علي خريطة سكانية ليوغوسلاڤيا التي كانت. وهي تفترض ان يتعايش المسلمون مرة أخري مع الصرب بعد المذابح وعمليات الإرهاب و«التمشيط

العرقي» التي ارتكبوها ضدهم. ففي معظم الحالات فالجيران الصرب هم المتهمون بقتل وتعذيب جيرانهم المسلمين واغتصاب نسائهم.

كتب للمؤلف

* ثورة الصومال - نقد - مكتبة مدبولي - القاهرة - ١٩٧٤
* آفاق التعدين في مصر - نقد - مؤسسة روز اليوسف - القاهرة - ١٩٧٤
* موقف الكنيسة المصرية من اسرائيل والصهيونية - نقد - دار القاهرة للثقافة العربية - القاهرة - ١٩٧٥
* شيلي : الثورة والثورة المضادة - نقد - دار الثقافة الجديدة - القاهرة - ١٩٧٦
* قبرص بين أنياب حلف الاطلنطي - القاهرة - ١٩٧٦
* اليهود والصهيونية في الولايات المتحدة الامريكية - دار العربي للنشر - القاهرة - ١٩٧٧
* عاصفة علي قرن افريقيا - القاهرة - ١٩٧٧
* تسلل المصالح الامريكية الي الوطن العربي - نقد - دار الهمزاني - عدن - ١٩٨٤
* البيريسترويكا - مكتبة مدبولي - ١٩٩١
* حرب الخليج والنظام العالمي الجديد - مجموعة مقالات - مكتبة مدبولي - ١٩٩١
* الانسان يدمر كوكبه - دار سعاد الصباح

تحت الطبع :

ثورة يولية في الوثائق البريطانية (٥ أجزاء)

ترجمات :

* تطور الاقتصاد السوفييتي - بقلم يوري بروشوك - نقد - مكتبة يولية - القاهرة - ١٩٦٥
* العصر الذري - مجموعة مقالات علمية - نقد - مكتبة يولية - القاهرة - ١٩٦٦
* اصل الأرض والكواكب - تأليف ب . ليفين - نقد - دار الكاتب العربي - القاهرة - ١٩٦٧
* نظرية في أصل الارض - بقلم الاكاديمي أوتوشميت - نقد - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٠
* القمر في انتظارنا - بقلم روبرت خوزيه - نقد - سلسلة كتاب اليوم - ١٩٦٩
* عصر الانسان أم الروبوت - دار الثقافة الجديدة - القاهرة - ١٩٧٣
* اليسار الجديد : بقلم بولشاكوف - نقد - دار الثقافة الجديدة - القاهرة - ١٩٧٦
* امبريالية المساعدات : بقلم تيريزا هايتر - دار ابن رشد - بيروت ١٩٧٩
* ثورة الساندينسنا - نقد - دار الهمزاني - عدن - ١٩٨٤

*أطول الحروب : جاكوبو تيمرمان - دار الثقافة الجديدة - ١٩٨٥
* المخابرات الاسرائيلية - ٨ طبعات في القاهرة وبيروت وعدن
تحت الطبع :
ثورة ١٩٨٩ تأليف مارتون أش

المراجــع

أولا الكتب

"Development of Spiritual Life In Bosnia Under The Influence of Turkish Rule.:
(Andric, Ivo) Duke UP, 1991.
"Class Struggle In Socialist Poland: With Comparisons To Yugoslavia:
(Szymanski, Albert) Praeger, 1984.
"Yugoslavia In Crisis."
Oxford UP, 1989 (Lydall, Harold).
"Yugoslavia In The 80's"
(Ramet, Pedro) Westview, 1985. "Yugoslavia In Transition: Choices & Constraints".
(Allcock, John B.) Berg Publrs, 1991.
"Democratic Reform In Yogoslavia: Changing Role of the Party"
(Carter, April) F Pinter, 1981.
"Yougoslavia: A Fractured Fedaralism".
(Rusinov, Dennision Ivan) Wilson Centre, 1989.
"Yugoslavia In Turmoil: After Self-Management".
(Simmie, James & Deklave Jose) Pinter, 1991.
"Yugoslavia: A Continuing Crisis?"
(Biberaj, Elez) Research Institute fot the Study of Conflict & Terrorism, 1989.
"The Balkans: Minorities & States In Conflict".
(Hugh Poulton) Minority rights Publrs, 1991.
"A Short History of the Yugoslav Peoples".
(Fred Singleton) Cambridge Univ. Press, 1985.
"Revolutions In Eastern Europe".
(Roger East) Pinter Publrs, 1992.
"The Fall of Yugoslavia: The Third Balkan War".
(Misha Glenny) Penguin, 1992.
"A Paper House: The Ending of Yugoslavia".

(Mark Thomson) Radius Publrs, 1992.
"Remaking The Balkans".
(Christopher Civic) Pinter, 1991.
"The National Question In Yugoslavia: Origins, History, Politics".
(Ivo Banac) Cornell, 1984.
"Red Odyssey"
(Marat Akchurin) Secker & Warberg. 1992.
"Minorities In The Balkans" (The Minority Rights GRoup).
The Eagle's Curse" (study pub. in Sunday Times 9th August' 92 by Prof. Norman Stone.

ثانيا المعاجم

Encyslopedia Britannica.
"Dictionary of Twentieth Century Hisory 1900-1989".
١٩٧٩, (Alan Palmer) Penguin,
"A Dictionary of Political Thought"
(Roger Scructon) Harper & Row,1982.

ثالثا المجلات المتخصصة

Eastern European Newsletter (London)
East European Report (Budapest)
RFE/RL Research Report (Germany)

رابعا المجلات الأسبوعية

The Economist
Time
Newseek
Guardian Weekly (Inc. Le Monde & Washington Post)

خامسا الصحف اليومية

The Guardian
The Independant
The Times
Herald Tribune.

ركزت المقالات التى تنشر عن حرب الاستقلال التى خاضها مسلمو جمهورية البوسنة علي جانب واحد. بعضها على الجانب القومى والعرقى، وبعضها على الجانب السياسى - الإقتصادى، وثالثة على الجانب الدينى.

أما هذا الكتاب فإنه يناقش التاريخ المعقد للمنطقة فى عجالة سريعة، ثم يقدم الجانب القومى - العرقى - الدينى المتعدد المتنوع، ثم يعرج بعدها إلى يوميات متناثرة عن حرب الإستقلال التى خاضتها الأمم - القوميات .



دار المستـ

٤١ شارع بيروت .
ت ٩٠٤٧٢٧